

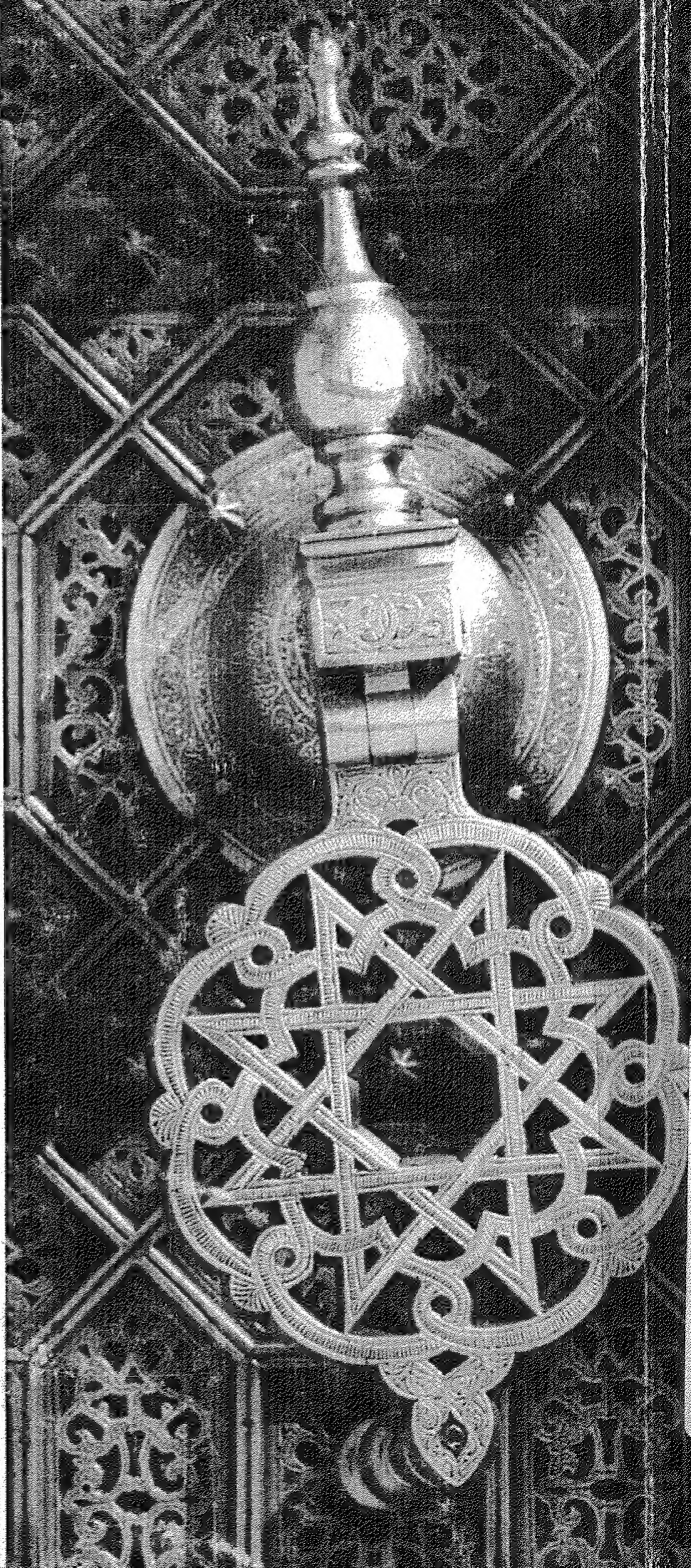
على الجار

الحق في السبيل



مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة





الهيئة العامة لقصور الثقافة
GENERAL ORGANIZATION for
CULTURE CENTERS

قصة العرب في إسبانيا

على الجارم

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. مصطفى السرزاز

أمين عام النشر
محمد كشيك

المشرف العام
سمير ندا

مدير التحرير
محمد أبوالمجد

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي

١٦ شارع أمين سامي - القصر العيني - القاهرة - رقم بريد ١١٥٦١

مترجم عن Stanley Lane - Poole
بتصريح خاص من الناشر بلندن

قديم

شغف الناس في القديم والحديث بتاريخ العرب في الأندلس ، ووجدوا في قراءته والاستماع لأحاديثه لذة روحانية عجيبة لا يجدونها في سواه . ولعل من أسباب هذا الشغف أنهم يقرءون فيه قصة رائعة للبشرية تتقلب فيها أحداث الزمان . وتصطبغ صروف الأيام ، ويداول الدهر فيها بين شطريه . فهو مرة صفاء لا يشوبه كدر . وابتسام لا تحوم حوله جهومة . وأمن لا يخالطه حذر ، وعز راسخ . وقوة وسلطان ونعيم وملك كبير . وهو في أخرى هم ونصب ، وخذلان وبلاء مستطير .

إن قصة الأندلس عجيبة حقاً . مثيرة للنفس حقاً . فيها من أحاديث البطولة والإقدام ما يعجب له العجب . ويهتر له عطف العربي الكريم . فيها جرأة طارق ، وإقدام عبد الرحمن الداخل ، وعزيمة الناصر ، وعبقريّة المنصور . وفيها إلى جانب كل هذا أمثلة رائعة للصبر حين البأس ، وللجلد على أشد المكروه ، وللمسك بالعقيدة والسيف مصلت فوق الرؤوس ، وللثبات في مأزق يفر فيه الشجاع .

وقصة الأندلس ، ككل القصص . كما تصور الرجولة تسهوى النفوس وتسحر العيون ، ترسم إلى جانبها الفسولة والخبث ، والحقد والنفج الكاذب ، والشره في حطام الدنيا الزائل . وبيع النفوس للشهوات في أقبح ما يصوره المصورون .

وتاريخ الأندلس كله عراك ونضال وصخب . لا تكاد تقلب صفحة من صفحاته حتى تسمع قعقة السيوف ، وصليل الرماح : صراع بين ملوك المسلمين ، وصراع بينهم وبين نصارى الشمال ، وصراع بين الأجناس

والقبائل ، وصراع بين العقائد والمذاهب ، ثم صراع أخير بين الحياة والموت . وبين الأذان والناقوس .

ومن العجب أنك على الرغم من هذا الاضطراب الشامل ، تقرأ في قصة الأندلس صحائف من ذهب . تتجلى فيها مدنية العرب معجزة من المعجزات وآية من الآيات . فقد كانت الأندلس في العصور الوسطى شعلة النور ومنار الهداية . وكانت جامعاتها بقرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة . وغيرها ملتحى طلاب العلم من الشرق والغرب . وكان فيها للأدب والشعر والفنون عامة منزلة لم تكد تصل إليها أمة ، وإذا تحدثنا عن فنون العمارة والهندسة والنقش وغيرها طال بنا الكلام . وخرجنا عما قصدنا إليه من الإيجاز .

إن سقوط الأندلس لم يكن إلا سقوط النجم المتلألئ اللامع . وانهبان الجبل الأشم الراسخ . وإن دولة في الأرض لم تشيع بعبرات العيون . وحسرات القلوب . كما شيعت الأندلس . ولم يبك الشعراء ملكا طواه الزمان كما بكوا ملك الأندلس . ولم يقف المؤرخون وهم يدونون خاتمة أمة حاسرى الرؤوس خاشعين . يرسلون الزفرات — كما وقفوا عند قبر دولة العرب بالأندلس .

خفقت الجوانح بحب الأندلسيين على الرغم مما يزعمه التاريخ من أنهم أعطوا ملكا فلم يحسنوا سياسته ، واستنابوا إلى الشهوات . واستعان بعضهم على بعض بالأعداء . على أنه يجدر بأهل الرأي ألا يتعجلوا في الحكم على أهل الأندلس وهم لم يعيشوا في بيئتهم . ولم يدرسوا أتم الدرس الأحوال التي مرت بهم . ولم يدققوا النظر في نظام الحكم الذي التزمته الأمم في هذه الأزمان .

إن المسلمين بالأندلس كانوا في أرض غير أرضهم . وفي إقليم اجتمعت فيه كل صنوف الفتنة والجمال . وكان أعداؤهم من الأسبان يحيطون بهم من كل جانب . وأعداؤهم في المشرق ينصبون لهم الحبائل — أفبعد هذا

نصب عليهم اللوم حمياً ، ونحملهم وزر تصارييف الزمان ، وتحكم البيئة ، وسيطرة الأحوال التي وضعتم فيها يد القدر ؟ .

إن العرب عاشوا في هذه الفتن الجائحة نحو ثمانمائة عام . قل أن تستطيع أمة سواهم البقاء في مثلها . ليقول الشعوبية ما شاءوا ، وليقس ابن خلدون وأمثال ابن خلدون على العرب كما أرادوا . أليس من التجنى على الحقائق أن يدعى ابن خلدون أن العرب لا يصلحون لسياسة الأمم . وأنهم أمة جهل وتدمير ، وأنهم إذا نزلوا بلداً أسرع إليه الخراب ؟ ! إن سماحة حكم العرب بالأندلس ، وجمال مدنيّتهم ، واتساع مدى ثقافتهم أسمى من أن يصل إليه إنكار منكر أو جحود جاحد . وإن في آثار قرطبة . وإشبيلية وغرناطة ، التي لا تزال ماثلة إلى اليوم من معجزات البناء والهندسة — ما ينجل كل من يدعى أن أمة العرب أمة خراب وتدمير ، وأنهم يهدمون القصور ليتخذوا من أحجارها أثافي للقدور ، ومن خشبها أوتاداً للخيام . أين هذه الأثافي وأين تلك الخيام من جنات الأندلس الباسمات وقصورها الشامخات ؟ . ثم أين هي من عظمة دمشق أيام الأمويين ، وجمال بغداد في حكم العباسيين . وازدهار القاهرة في عهد الفاطميين ؟ ! إن العرب يبنون ولا يهدمون . وإن الهدامين لآثارهم ومدنيّاتهم إنما هم أعداؤهم من البربر ، والإفرنج ، والتتار وغيرهم . وإذا كانت دول العرب قد منيت بالانحلال السريع في الشرق والغرب . فإن أكثر السبب في هذا — فيما يغلب على الظن — إنما يعود إلى نظام الحكم الذي كان قائماً . لا إلى طبائع العرب أنفسهم . ولو نظرنا في عهودهم إلى الأمم حولهم في أقطار الأرض ، لرأينا أنها أصيبت بما أصيب به العرب .

والآن نعود إلى قصة الأندلس فنرى أن ما كتبه الأولون فيها لا يشفي نفس القارئ ولا يبل غلته . وهذا كتاب نفح الطيب — وهو خير كتاب في تاريخ الأندلس — كله اضطراب . واستطراد وتكرار والتواء وتشنت . لهذا كانت خزائن الكتب العربية في أشد الحاجة إلى مثل كتاب « إستانلى

لين بول « الذي سماء قصة العرب في أسبانيا ، والذي قرأته فأحسست بدافع نفسي يلح بوجوب ترجمته إلى لغة العرب . وشعرت بأن النكول عن هذه الرغبة عقوق لحسبي وقوى وتاريخي . وإذا كان هذا القلم الذي جردته أربعين عاما لا يجيد إلا تنميق قصيدة في الغزل . أو المديح أو الرثاء ، ولا يصول إلا فوق صفحات من الأدب واللغة . حتى إذا جاء كاتب إنجليزي محقق فألف كتاباً بلغته فيه إنصاف للعرب وتاريخهم ، وفيه إشادة بحكمهم وعلمهم وأدبهم وحضارتهم — انكمش في دواته وأدركه الحصر ، فأجدر بهذا القلم أن يحطم ، وأحر بسنانه أن يقصف ، وأخلق بصاحبه ألا يباهى مرة أخرى بعرويته . . .

إن إستانلي لين بول يحب العرب ويتغنى بمجدهم . ويؤلف لأبناء أمته في تاريخهم كتاباً . أو قل قصيدة طويلة الذبول كلها ثناء وإطراء . وحب وإعجاب ، وعطف وحنان . ولوعة وبكاء . فهل كان يصح في حكم البر بالعربية . أن يبقى أبناؤها محجوبين عن هذا الكتاب دهرأ طويلاً ؟ ترجمت الكتاب فارتاحت نفسي ، لأنني في حين واحد أذعت فضل العرب على لسان رجل ليس منهم . ثم أذعت فضل هذا الرجل لأنه جدير بإعجاب العرب .

أما طريقة لين بول في التأليف : فجامعة بين التحقيق العلمي . وربط الحوادث بعضها ببعض ، وتأدية قصة الأندلس كاملة متصلة الأواصر ، في أسلوب شائق وسياق رائع . فانه بعد أن قرأ تاريخ الأندلس في مراجع شتى بين عربية وإفرنجية ، ولقي ما لاقى في اجتياز ذلك الخضم المضطرب بالروايات والحوادث — استطاع أن يخرج للأدب والتاريخ قصة بديعة الأسلوب . متماسكة الحلقات . لها — مع صدق حقائقها — كل ما للقصص الخيالية من فنة وسحر .

وقد بداخلك بعض الريب في أن المؤلف متعصب للعرب . محتطب في حبهم ، لأنك تراه يقتصر الفرص أو يخلقها للإشادة بدينهم ،

وسياستهم للأمم . ثم بأدابهم ومدنيتهم التي يعدها شعلة النور في أرجاء أوروبا بعد أن خمدت مدنية الرومان . وزالت حضارة اليونان . ثم إنه رسم لعبد الرحمن الداخل . والناصر . والمنصور بن أبي عامر صوراً من القوة والحزم . والعدل والدهاء . لم يستطع مؤرخ عربي أن يجمع ألوانها . وإذا غمز بعض المحسنين من الأمراء بنقد . كان خفيف المس رفيقاً . حتى إنه لم يبخل بفضلة من عطفه على ملوك الطوائف . الذين بددوا شمل الدولة . فأحسن رثاء دولتهم . وبكى فيهم الهمة والسخاء . وإنهاض العلوم . وإعلاء شأن الأدب والشعر . أما حديثه عن مملكة غرناطة وأقول شمس العرب بالأندلس . فلم يكن إلا أنات وزفرات ودموعاً . وقف على أطلال الأندلس كما يقف العاشق المحزون . فبكى مدينة زالت . وفنوناً بادت . وعزاً طاح مع الرياح . وملكا كأن لم يمض عليه إلا ليلة وصباح . ومجالس أنس كانت نغماً في مسامع الدهور . ودروس علم هرعت إليها الدنيا وتلفتت العصور . نعم إن استأنى لين بول كان يحب العرب حقاً . ولكن هذا الحب لم يجاوز به الحق . ولم ينجده عن نفسه . ولم يسلبه صفة المؤرخ المحقق . وكل ما في الأمر أنه كان صريحاً في نشر الحقائق . فصدع بها حين أنكرها أو شوه من جمالها كثير ممن يكتمون الحق وهم يعلمون . إن لين بول لم يكن متعصباً للعرب . ولكنه كان فم منصفاً . وعلى تاريخهم أميناً . ولم أتحاً وصديقاً . حين قل الأخ وعز الصديق . على أن في الكتاب عتاباً في مواطن العتاب . ولو ما في مواضع اللوم . وتعنيف المحب المخلص حين يحسن التعنيف . وما تجمل الإشارة إليه : أن المؤلف في حديثه عن الأسباب خاصة وأهل أوروبا عامة — إنما كان يتحدث عن حياة قوم في العصور الوسطى ، أو في أيام حكم البربون . قبل أن يتسع نطاق المدنية . ويتبلج فجر العصر الحديث الذي غيّر كثيراً من أخلاق الناس وعقولهم ونظرهم إلى الأشياء . فإذا نقد المؤلف رجال العهود الماضية بأوروبا وأسبانيا . فإنه لن يتردد اليوم

في الحكم بأن الزمن دار دورته . وأن التاريخ لو نظر إلى الخلف لرأى مدنية
جديدة وقوماً آخرين .

وقد قصدت في ترجمة هذا الكتاب إلى ترجمة المعاني مع الحرص على
الروح التي أملته . فان لكل لغة بياناً . وحسب النقل أن يدرك الغاية ،
ويصيب اللباب . والله سبحانه المستعان .

على الجارم

جزيرة الروضة
٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٧



عانت بساحتك الظي يا دار
ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر
طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت النوى بقطينها
وتمخضت بخرابها الأقدار
كبت يد الحدثان في عرصاتها
(لا أنت أنت ولا الديار ديار)
ابن خفاجة الأندلسي

آخِر أيام القوط

بقيت بلاد العرب آمنة مطمئنة لا يداس لها عرين . ولا يباح حماها .
عند ما كانت جيوش الإسكندر الأكبر تغير على الإمبراطوريات الشرقية
القديمة : فلزم سكان شبه الجزيرة العربية صحراءهم في عزلة وأنفة .
لا يبعثون إلى الفاتح العظيم رسلاً ، ولا يقدمون إليه طاعة ولا خضوعاً .
وعقد الإسكندر العزيمة على إذلال هؤلاء العرب المستكبرين . وأخذ
الآهبة لغزوهم ووطئهم تحت قدميه ؛ وما كاد يهتّم بذلك حتى أدركته
المنية (١) . فحالت دون أمنيته . وبقي العرب أعزاء لا يغلّبون .

كان ذلك قبل مولد السيد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة . والعرب
من ذلك الحين وقبله أعزاء مستقلون بصحرائهم الواسعة . لا يخضعون
لسطوة فاتح جبار . وقد مر بهم زهاء ألف سنة في هذه العزلة الهادئة التي
قل أن يكون لها مثل بين بقاع الأرض . وقامت من حولهم إمبراطوريات
جديدة : فأنشأ خلفاء الإسكندر المملكة السورية . وكان بها السلاسة
(The Seleucids) وأبناء الأسرة المصرية من البطالسة . وتوج
أغسطوس إمبراطوراً لرومة . وأصبح قسطنطين أول إمبراطور مسيحي
ليزنطة . وخضع حشود البربر لإمبراطورية القياصرة البعيدة الأطراف

(١) مات الإسكندر سنة ٣٢٣ ق . م

واندمجوا فيها . كل ذلك والعرب متحصنون بشبه جزيرتهم . لا يززع
 خم أمن . ولا يطرقهم طارق . ولا يحاول غزوهم فاتح . وإذا دانت بعض
 مشارف بلادهم وثغورها بشيء من الطاعة أحياناً لأكاسرة الفرس وقيصرة
 الروم . وجاست بعض الفرق الرومانية بين الحين والحين خلال بعض
 مفاوزها - فإن شيئاً من ذلك كان ضئيلاً متقطعاً . لم يمس استتار البلاد
 ولم ينل من عزتها .

وهكذا ربح العرب في جزيرتهم لا ترعجهم صائحة . وطفقوا وقد
 أحاطت بهم الممالك الضارية الظامئة إلى الغزو والفتوح . وادعين بصحرائهم
 مستلثمين بشجاعتهم التي لا تقهر . وبقى لذلك تاريخ العرب مغموراً منذ
 أزمان بعيدة في القدم إلى القرن السابع الميلادي . فلم يعرف عنهم إلا أن لهم
 وجوداً . وإلا أن أحداً من الغزاة لم يحاول غزوهم . إلا قعدت به
 الوسوس وساوره خوف الخزيمة . ثم حدث فجاءة في أخلاق العرب
 تطور جديد . فلم يعودوا يرغبون في العزلة كما كانوا . بل انطلقوا يجهون
 الدنيا . وأخذوا في جد وحزم يحاولون غزو العالم .

نشأ هذا التطور من عزيمة رجل واحد هو محمد بن عبدالله . فإن هذا
 النبي العربي شرع في طليعة القرن السابع ينشر الإسلام . فلقبت دعوته
 آذاناً واعية . وعظم تأثيرها في قلوب العرب . فاثارت في طبائعهم وأخلاقهم
 ثورة عنيفة شاملة . وكان ما يدعو إليه محمد سهلاً حنيفاً . قريباً إلى
 النفوس ، يتفق مع شريعة اليهود التي كان لها أحبار بالجزيرة ، وقد أبطل
 كثيراً من الأحكام والعادات ، وأضاف أحكاماً جديدة كان العرب في

حاجة إليها ، ودعا إلى الوحدةانية . فكان ذلك فتحاً جديداً بين قوم
مردوا على عبادة الأوثان .

ويصعب علينا في هذه الأيام أن ندرك التأثير الشديد الذي بعثه هذا
الدين الهادي في قلوب العرب ؛ ولكنتنا نعرف أن هذا التطور الديني قد تم
فعلاً . وأن للأنبياء الصادقين دائماً قوة غريبة في اجتذاب النفوس . ولقد
كان محمد حين دعا قومه صادقاً . ولقد بلغ دينه الذي يراه الدين الحق
أميناً مثابراً . ولقد كان في الدين من سمو . وفي النبي وأصحابه من الرغبة
الحافزة في نشره — ما أثار موجة ملكت على العرب شعورهم . وأجج في
نفوسهم جذوة يسميها الناس اليوم بالتعصب الديني .

وكان العرب قبل بعثة محمد أشتاتاً من شعوب وقبائل متطاحنة ،
تتنافس في الشجاعة الوحشية . والكرم . والبطولة . وتعيش من الغارات
وانتهاب الغنائم . فحوّلم النبي في طريقة عين إلى قوم مسلمين . وملأ
قلوبهم بحماسة الشهداء . ووصل حبهم الفطري للدنيا والمغانم ، بطموح
نبيل هو تبليغ الدين إلى الناس كافة .

خضعت جزيرة العرب كلها لمحمد قبل أن يلاقى ربه . وانتشرت
القبائل التي وحد كلمتها في الممالك المجاورة للجزيرة ، وألقى أهلها لهم القياد
دهشين مشبهين . ثم اكتسحت جيوش خلفائه بلاد الفرس . ومصر ،
وشمال إفريقيا ، حتى بلغوا منه المكان المعروف بأعمدة هرقل ، وردد
المؤذنون أذانهم من وراء نهر جيحون بآسيا الوسطى إلى شواطئ المحيط
الإطللطي .

وصدت الهجوم العربى بآسيا الصغرى قوات إمبراطور الروم ، ولم يتح للمسلمين أن ينالوا من هذه البلاد حظا إلا فى القرن الخامس عشر ، حين بلغوا ما طال إليه تشوقهم من فتح القسطنطينية ، التى دكت حصونها شجاعة الترك العثمانيين وشدة مراسهم . وفى النهاية المقابلة من بحر الروم ، صد أحد قواد الروم تيار العرب إلى حين ، فاتجه العرب الفاتحون إلى ممالك شمالى إفريقية ، وكبحوا جماع أمة البربر الشامسة العنيدة بعد جهاد عنيف . وأخضعوها لسلطانهم ، ولم يقف فى وجوههم إلا قلاع سبته وحصونها . وكانت سبته كغيرها من بلاد جنوبى بحر الروم ، تحت حكم إمبراطور الروم . غير أنها لبعدها من القسطنطينية كانت تتوجه إلى مملكة أسبانيا بطلب المعونة ، فهى تابعة للروم من حيث الحكم ، مضافة فى الحقيقة إلى ملك طليطلة لحمايتها والدفاع عنها . ولم يكن فى حكم الظن أن تكون معاونة أسبانيا لها كافية لصد أمواج العرب الفاتحين ، على أنه حدث فوق هذا أن كان هناك شقاق بين « يوليان » حاكم « سبته » و« لذريق » ملك أسبانيا ، ففتح هذا الشقاق الباب واسعا لدخول العرب ، وذلك سبيل الفتح للغزاة .

كان يحكم أسبانيا فى ذلك الوقت القوط الغربيون ، وهم قبيلة متوحشة كغيرها من القبائل التى اكتسحت ممالك الإمبراطورية الرومانية ، إبان ترنحها للسقوط ، أما القوط الشرقيون : فقد احتلوا إيطاليا ، وتركوا أبناء عمومهم من القوط الغربيين يأخذون مكان بعض القبائل الجرمانية الخافية ، ويدقون أطناب حكمهم بآسبانيا فى القرن الخامس الميلادى .

وكانت أسبانيا عندما دخلها القوط . منحلة العرا . غارقة في ألوان
من الترف الفاجر ، والنعيم الذى يسلب الرجولة . ويمثل هذا العبث وذلك
الفجور . ذهبت ربح دولة الرومان قبلهم ؛ فإن الرومان كغيرهم من
رجال الحروب . حينما انتهوا من غزواتهم الكثيرة المتعاقبة بالنصر
والغلب . ورأوا الدنيا تحت أقدامهم — انصرفوا إلى الراحة بعد الجهد
الشاق . والجهد المضى . وألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم . وناموا في
ظل ظليل من الغنى الواسع والأمن الشامل . فذهبت أخلاقهم . وماتت
فيهم حمية آبائهم الشجعان البسل . الذين كانوا يرضون بالكفاف ويتركون
آلة الحرث ليجردوا السيوف ماضية بتارة . إذا دعاهم أحد القياصرة
لحماية بلادهم . أولغزوقارة جديدة .

كانت الطبقة الغنية بأسبانيا في عهد الرومان . قد خلعت العذار لأنواع
الترف والشهوات . حتى لكأنها لم تخلق إلا للطعام والشراب ، واللهو والقمار ،
ولكل ما يثير النفس العابثة ويرضى نزعاتها ؛ وكانت الطبقة الدنيا تشمل
العبيد ، وأحلاس الأرض الذين أدخلوا إلى زراعتها ، حتى كأنهم قطعة منها
لا يفارقونها حياتهم . فإذا انتقلت إلى مالك جديد . انتقلوا إليه معها .
وبين هاتين الطبقتين — طبقة الأثرياء ، وطبقة العبيد والأحلاس —
كانت الطبقة الوسطى من سكان المدن الأحرار . تلاقى من سوء الحال
وضنك العيش ما كان شراً مما يلاقى العبيد وأشد نكراً ، فعليهم كان يقع
عبء الإنفاق على الدولة . فهم الذين يؤدون الضرائب ، ويقومون
بخدمة الدولة وما تتطلبه المدن من الأعمال . وهم الذين يجمعون الأموال

للأغنياء ليعثروها في لذائذهم . وبديهي أن دولة تصاب بهذا الفساد وذلك الضعف . لن تكون بها منة على صد فاتح بطاش شديد الشكيمة .

كان النبلاء والأغنياء — وهم في عمرة النعيم ورفاغة العيش — لا يسمعون ما يلغظ به الناس من اقتراب الأعداء . وكانت سيوفهم قد صدئت من طول ما مكثت في أنعمائها . وكان العبيد لا يأبهون لتغلب حاكم على حاكم . لأنهم وصلوا إلى حال من الذل والبؤس بحيث لا يستطيع حاكم جديد أن يصيبهم بشر منها . وكانت الطبقة الوسطى ساخطة حانقة وقد بهظها ما كانت تحمل من تكاليف الدولة وما كان يقع عليها من الغرم من غير أن تنال من الغنم شيئاً .

وإن شعباً هوى إلى هذه الهوة . وتدهور في هذا الدرك لا يستطيع في حكم البديهة أن يؤلف من رجاله جيش قوى مكافح . لذلك دخل القوط أسبانيا واستولوا عليها بدون عناء . وفتحت لهم المدن أبوابها عن طواعية ، وخضعت لهم الحضارة الرومانية العلية دون أن تمتد للدفاع كفاً . وفي الحق إن طريق القوط إلى الفتح كانت قد مهدت بمن نزل قبلهم بأسبانيا من متوحشي الأللان والرندال والسوابي ، فلم يكلفهم الغزو جهداً ، أو يحملهم عنتاً ، فقد علم الرومانيون من سكان أسبانيا حق العلم ، ما يجزئ وراءه غزو المتوحشين من نكبات وأوزار . فكم رأوا مدائنهم والنار تلتهمها التهاماً ، وكم رأوا زوجاتهم وأولادهم يساقون إلى الذل والأسر ، وكم رأوا قوادهم يقتلون صبراً . رأوا عواقب هذه الحروب ولعناتها ، وما يتصل بأذيالها من الطواعين والمجاعات والقحط وشيوع القوضى الضارية ، وعلمتهم هذه

الكوارث درساً لم ينسوه . فألقوا القياد للقوط خاضعين .

وكان للقوط بأسبانيا أكثر من مائتي سنة . حينما وصل العرب في أوائل القرن الثامن إلى شواطئ المحيط الإطلنطى بإفريقية . وعبروا بأبصارهم مضيق هرقل . فشاهدوا من بعد ولايات أسبانيا المشرقة .

وكان للقوط منذ أن فتحوا أسبانيا مدسع من الوقت لإصلاح ما فسد من شئونها . وبعث روح جديدة في الشباب وكان عليهم أن يستفيدوا من مدنية الرومان . فكثيراً ما استفادت العناصر المتوحشة التي كملت فيها صفات الرجولة . من اندماجها في المدنيات القديمة الذابلة . وكان هناك أسباب خاصة تدعو القوط إلى إصلاح أحوالهم : فإنهم لم يكونوا شجعاناً أشداء فحسب . بل كانوا فيما يزعمون - بصارى مخلصين . والحقيقة أنهم عند ما استولوا على أسبانيا لم تكن النصرانية فيها إلا صورة ورسماً . لأن قسطنطين اكتفى بجعل النصرانية دين الإمبراطورية الرومانية ولم يعن بتقوية دعائمها في الممالك الغربية . وكان في حكم الظن أن يكون هبوط دين جديد على أمة جاحلة كالقوط جديراً بأن يثير حماسها . ويملا صدورهم بالأمل بعد أن رزحت تحت أثقال الوثنية طويلاً . حتى لقد ضيع قساوسة الكاثوليك في أن يكون لهم ولكنائسهم في العهد الجديد شأن مذكور . ولكن النتائج لم تؤيد المقدمات . فإن القوط جعلوا من أعماقهم الدينية ذرائع لغفران ما يجترحون من ذنوب وآثام . وأعدوا لكل إثم نوعاً من التوبة . واقترفوا الذنب ليتوبوا منه من جديد . دون أن يجدوا لذلك في صدورهم حرجاً !

وجملة القول أنهم كانوا كأشراف الرومان الذين سبقوهم . عادة وسوء خلق ، ولم تدفعهم النصرانية إلى شيء من الخير والإصلاح ، فكانت حال أحلاس الأرض اللازمين خدمتها . أسوأ مما كانت في عهد الرومان . لأنهم لم يكتفوا بالزامهم خدمة أرض بذاتها . أو سيد بعينه . بل حتموا عليهم ألا يتزوجوا إلا برضا السيد . وأنهم إذا أصهروا من ضيعة مجاورة قسمت ذريتهم بين صاحبي الضيعتين . وحملت الطبقة الوسطى - كما كانت الحال في حكم الرومان - عبء الضرائب . فجر ذلك إلى خراب هذه الطبقة وإفلاسها . وكانت الأراضي في قبضة عدد قليل من الأغنياء . يقوم على خدمتها وزراعتها عدد عديد من العبيد البائسين . الذين يعيشون بلا أمل في الانتعاش من كبوتهم . أو حلم في الخلاص من يؤسهم . وحسبك أن رجال الدين الذين كانوا يخطبون ويشيدون بالأخوة المسيحية بعد أن أثروا وملكوا الضياع الواسعة . اتبعوا السياسة الموروثة . وعاملوا عبيدهم وخوهم بالعسف والشدة . كما كان يفعل أثرياء الرومان . ثم إن أغنياء القوط غرقوا في صنوف من النعيم أفقدتهم الحس . ونافسوا الوثنيين في الفجور . ففلجوا عليهم حتى أدركهم ذلك السبات الذي أطاح بدولة الرومان .

يقول بعض المؤرخين - وهو يحاول تمحيص الأسباب التي أدت إلى تغلب المسلمين على المسيحيين - : « إن الملك ويتزا « غيطشة » علم أسبانيا كيف تقترف الآثام » ولكن أسبانيا كانت قد تعلمت ذلك على أحسن وجوه العلم قبل « غيطشة » بزمان بعيد . وربما لم يكن هذا الملك أسوأ من سابقه . الذين أغرقوا في الشهوات . وترخصوا في كل ما أصاب الدولة

من الفساد والتدهور . ولما كانت آثام القوط المتوحشين قريية الشبه جداً من مآثم الرومان الدائلين ، لم تشعر المملكة عند انتقال الحكم من الرومان إليهم بشيء جديد .

هكذا كانت أسبانيا حينما اقترب المسلمون من حدودها . طبقة فاسدة مفسدة من الأغنياء ، قسمت الأرض بينها ليزرعها العبيد وأحلاس الأرض البائسون اليائسون ، ثم طبقة من سكان المدن لم يبق لها الظلم والعسف رطباً ولا يابساً (١) .

هكذا كانت أسبانيا حينما كان جنود الإسلام يقيمون على الجانب الآخر من بحر الزقاق الذي عرف فيما بعد : بمضيق جبل طارق – وهم قوم يُسل أشداء . تلهب نفوسهم حماسة لدينهم . وتتأجج شوقاً إلى ما في أرض الكفار الحصية من غنائم وخيرات . وقد تدربوا على السلاح منذ نعومة أظفارهم . وعاشوا في صحرائهم عيشة خشنة جافية . وإن موازنة بين هذين الفريقين . لا ترك مجالاً للشك فيمن سيكون له النصر والغلب . على أن الخيانة التي جاءت بعد ذلك فساعدت الفاتحين على اقتحام البلاد . أزال كل أثر للشك في انتصارهم .

نخلع لنريق غيطشة من عرشه (٢) . وبدأ حكمه بداءة حسنة . ولكنه

(١) يزيد صاحب « أخبار مجموعة » وهو أقدم كتاب في تاريخ الأندلس طبع بمجريط : أن البلاد أصيبت بالجماعة والوباء قبل الفتح ، فمات أكثر من نصف سكانها في سنوات : ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ هـ .

(٢) عبارة صاحب « أخبار مجموعة » : هلك غيطشة وترك أولاداً لم يرضهم أهل الأندلس ، فراضوا على علع يقال له : لقريق شجاع هجوم ، ليس من بيت الملك ، ولكنه من قواد .

خضع آخر الأمر لإغراء الثروة والقوة . وجمع به النهم في الشهوات الدنيئة حتى نفرت منه القلوب . وأصبح كل ما حواه مستعدا للاشتعال . لا ينتظر إلا شرارة صغيرة لينفجر ويذهب بمملكته .

وكانت العادة بين أمراء المملكة أن يرسلوا يبناتهم وأبنائهم إلى القصر لتهديبهم وأخذهم بكل ما يتقف النفس ويغرس الخلق الكريم ! فأرسل الكونت (يوليان) حاكم سبته . ابنته فلورندا إلى قصر لذريق بطليطلة ، لتتال قسطاً من التربية بين وصائف الملكة . وكانت فلورندا غاية في الجمال فشغف لذريق بها . وذنس عفافها . ذاهلاً عما يوجهه عليه الشرف من حمايتها كما يحمي إحدى بناته (١) . وزاد في بشاعة الجريمة ، أن زوج يوليان كانت بنت غيطشة . فكان في فعلة لذريق تلطيخ للشرف الملكي بالعار . وقد كتبت الفتاة إلى أبيها حينما شعرت بجسامة الكارثة . ودعت غلاماً تثق به وأوصته أن يسرع بالكتاب . وأن يصل ليله بالنهار حتى يضعه في يد أبيها . ثم منته الأمانى .

ولم يكن يوليان يحب لذريق . لأن صلته بالملك المعزول أو المقتول على الأرجح . صدته عن الميل إلى الغاصب : ثم جاء العبث بشرف ابنته . فزاد نار حقدده اشتعالاً . وأغراه بالكيد والانتقام . وقد استطاع أول الأمر أن يقف في وجه غارات العرب . ولكنه عزم الآن على ألا يدفع عن مملكة أثيم ثلب عرض ابنته . وصمم على أن يترك العرب يملكون

(١) يقول المؤلف : إنه يتقل هذه الرواية دون أن يتعرض لتأييد صدقها ، وإذا كان ما يختص بفلورندا منها خيالاً ، فإن ما يختص بيوليان حق لاشك فيه .

أسبانيا إذا أرادوا . ثم زاد فقرر في قرارة نفسه أن يرشدهم إلى الطريق .
 فأسرع - وحب الانتقام يملأ صدره - إلى للذريق - بعد أن أسكت
 غضبه وأخفى ما في نفسه - فأحس الملك بشيء من الندم . ووثق في
 نفسه من أن فلورندا كتمت سره وسرها . وأخذ يغمر يوليان بصنوف من
 الإجلال والتكريم . ويستشير في كل ما يتصل بحماية المملكة . ويصيغ
 إلى ما يزوق له من الخديعة والحتل . حتى إنه أرسل أكرم خيوله وخير
 عتاده إلى الجنوب . لتكون تحت إمرة يوليان إذا هجم الفاتحون .

وغادر الكونت طليطلة ومعه ابنته . مخفوقاً بعطف الملك ورضاه .
 وطلب للذريق منه عند افتراقهما أن يرسل إليه نوعاً خاصاً من البزاة
 المعلمة . فأجاب يوليان : بأنه سيرسل إليه بزاة لا عهد له بها . وبهذه
 الإشارة الخفية إلى قدوم العرب . عاد أدراجه إلى سبته .

وما كاد يصل إليها حتى زار موسى بن نصير . الوالى من قبل الخليفة
 على شمال إفريقية . الذى طالما اشتبكت سيوفه بسيوفه في حروب مشتعلة
 الأوار . فأخبره أن الحرب بينهما قد وضعت أوزارها . وأنهما منذ اليوم
 صديقان حميان . ثم أخذ يملأ أذنى القائد العربى بأحسن القصص عما
 فى أسبانيا من الجمال والثروة . ويحكى عن أنهارها وبروجها . وأغنيائها ،
 وزيتونها . وعظمة مدنها وقصورها . وما فيها للقوط من كنوز . ثم قال :
 إنها أرض تموج باللبن والشهد . وليس على موسى إلا أن يخطو فيناها
 بقبضته . وأخذ يوليان على نفسه أن يرشده إلى الطريق . ويعد له
 السفن . وكان القائد العربى داهية شديد الحذر . فخشى أن تكون

هذه الدعوة خديعة واستهواء إلى الوقوع في شرك أوكين . لذلك أرسل إلى الخليفة بدمشق رسلا ليرى رأيه في الأمر ، واكتفى فيما بين ذلك سنة ٧٠١ م (٩١ هـ) بإرسال خمسمائة رجل بقيادة (طريف) أبحروا على أربع سفن ليوليان للإغارة على شاطئ الأندلس . ولم يرص موسى أن يعرض من رجاله للخطر أكثر من هذا العدد ، لأن العرب لم يكونوا قد اعتادوا بعد الإبحار في بحر الروم .

عاد طريف في شهر يولية بعد أن نجح في الغرض الذي أرسل من أجله . فقد أرسى سفنه في المكان الذي لا يزال يسمى باسمه ، ونزل الجزيرة الخضراء وانتهبها ، ورأى بعينه ما كفى لاقتناعه بصدق ما قاله الكونت يوليان ، من فقدان وسائل الدفاع بأسبانيا . وبأن إخلاصه للفاتحين لا يقبل الشك . ولكن موسى على الرغم من هذا لم تمل نفسه إلى المخاطرة في سبيل فتح جديد ، وجاء كتاب من الخليفة بدمشق يأمره ألا يقذف بجيش المسلمين في أخطار مجهولة العاقبة ، وعهد إليه أن يكتب بإرسال فرق قليلة من آن لآن . للإغارة المفاجئة .

ولكنه بعد أن ملأه نجاح طريف ثقة بالنصر والتغلب . عزم على أن يوسع نطاق غزوه .

فحين علم في سنة ٧١١ م (٩٢ هـ) أن للبريق مقيم بشمالى مملكته لقمع ثورة البشكنس ، أرسل أحد قواده ، وهو طارق البربرى ، ومعه سبعة آلاف رجل جلهم من البربر للإغارة على الأندلس ، فقال من هذه الإغارة فوق ما كان يتوقع ، فإنه أرسى سفنه عند صخرة الأسد التي

حملت اسمه منذ ذلك الحين . فدعيت : جبل طارق . وبعد أن ملك « كارتية » . توغل في داخل البلاد ، ولم يسر بعيداً حتى رأى جيوش القوط بقيادة للزريق تقرب لتزاله ؛ فالتقى الجيشان على شاطئ نهر سماه المسلمون : وادي بَكَّة . بالقرب من نهر وادي لكّة الذي يصب في المضيق عند رأس الطرف الأغر (١).

وتقص علينا الأساطير : أن الملك للزريق قبل هذه الموقعة . كان جالساً على سرير ملكه بمدينة طليطلة . فدخل عليه رجلان جلل الشيب وأسيهما . وهما في ثياب بيض من نسج قديم . وكان حزاماهما مزينين بصور مواقع النجوم وما لها من شأن في تصارييف القدر . وقد علق بهما كثير من المفاتيح . فلما مثلا بين يدي الملك قالوا له : اعلم أيها الملك : أن هرقل منذ الزمن القديم . وحين نصب صنمه عند مضيق البحر . أنشأ حصناً قوياً بالقرب من طليطلة القديمة . وأخفى فيه طلسماً جعل عليه باباً من الحديد ثقيلاً . له أقفال من الصلب توكيداً لحفظه . ثم إنه أمر أن يقوم كل ملك جديد : بإضافة قفل جديد لهذا الباب . وأنذر بالويل والثبور كل من يهم بكشف هذا الطلسم . وقد قمنا وقام أسلافنا بحراسة باب الحصن منذ أيام هرقل إلى هذه الساعة . وعلمنا أن بعض الملوك . حاول كشف هذا الطلسم . فكانت عاقبة أمرهم الموت أو الجنون . ولم يصل واحد منهم إلى أبعد من عتبة بابه . وقد جئنا الآن أيها الملك . لترحوك أن تضع قفلك على باب الحصن كما فعل

(١) في « أخبار مجموعة » : أن اللقاء الجيشين كان يمكن يقال له البعيرة .

جميع الملوك قبلك . ثم انصرف الشيخان .
 حينما فكر للتريق فيما قالاه . ثارت في نفسه الرغبة في دخول هذا
 الحصن المسحور . على الرغم من تحذير بطارقه ووزرائه الذين قالوا له :
 إن كنت تظن أن به مالا فقنّده ، ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره .
 ولا تحدث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته . وقد علمت أن قيصر
 الأكبر على جرأته لم يحاول دخوله

ولن يفتح الحصن إلا لمن قضى الله في ملكه بالزوال
 ممالكه زال سلطانها بنشر الفساد وكيد الرجال
 فنالت من الله شر انتقام وآب بنوها بشر المسأل
 ولكن الملك أصروصدم على الرغم من هذه النصيحة . فركب يوماً مع
 فرسانه إلى الحصن ، وكان فوق صخرة عالية تحيط به مهاو بحقيقة ، وكانت
 حيطانه من المرمر الذي إذا واجهته الشمس كاد شعاعه يذهب بالأبصار .
 وكان مدخله في طريق منحوت في الصخر . وقد أغلق عليه باب عظيم
 من الحديد ، غطى بالأقفال الصدئة من عهد هرقل إلى أيام غيطشة .

ووقف الحارسان إلى جانبي الباب ، وحاول فرسان الملك وبعض
 الحراس فتحه ، فاستطاعوا بعد لأي فك أغلاقه قبيل الغروب ، ودخل
 الملك وحاشيته من الباب ، إلى بهو في نهايته باب آخر ، وقف أمامه تمثال
 من البرنز ضخيم هائل المنظر ، بيده رمع عظيم أخذ يحركه ويضرب به
 ما حوله من الأرض .

ولما رأى للتريق هذا التمثال ، هاله منظره ، وأخذته البهر ، وتملكته

بالدهشة . ولكنه حينما قرأ ما كتب على صدره وهو : « إني أقوم بواجبي » استرد شجاعته . وأمر التمثال أن يفسح له الطريق . زاعماً أنه لم يأت لاستباحة حرمة المكان . وإنما جاء ليعرف سر ما فيه . فهدأت عندئذ نائرة التمثال ورفع رمح . فمر الملك ومرت حاشيته من تحته إلى حجرة ثانية . فوجدوا جدرانها مغطاة بكريم الأحجار . ورأوا في وسطها مائدة عظيمة من ذهب وفضة . مكحلة بالجواهر . وعليها تابوت من الفولاذ . به قفل علق به مفتاحه . وقد كتب عليه : « في هذا التابوت ضلم الحصن . ولن تمتحه إلا يد ملك . ولكن ليحذر هذا الملك . فإن أشياء عجيبة ستصور له ما يحصل له قبل موته » .

وحين فتح الملك التابوت لم يجد به سوى رق به صور فرسان عابسي الوجود مسلحين بالقسي والخنجر . وقد كتب فوق هذه الصور : « انظر أيها الطائش الأرعن إلى هؤلاء . فإنهم سيثلون عرشك وينخضعون مملكتك » . وبينما كان الملك وأصحابه يصدقون في الصور . إذ سمعوا زمازم الحرب ولججها . ورأوا أن الصور طفت تتحرك كأنها في غمام . حتى أخذت هيئة حرب في ميدان^(١) .

رأى للتريق في هول وحزن بهذا المنظر السحري حرباً
عواقبها تراها العين جهراً وإن كانت من القدر الخفا
ثم أبصروا ميداناً عظيماً يتباني فيه النصارى والمسلمون في موقعة طاحنة .

(١) لم أقرأ عرافة تحرك التمثال ولما أصوات الحرب ولججها وتحرك الصور المرسومة في الرق فيما كتبه الغرب عن هذه الأسطورة .

وسمعا أصوات جرى الخيل ووقع حوافرها . وزعق الأبواق والصنوج ،
وما يصم الآذان من ضرب آلاف من الطبول . بين بريق السيوف
والقضب وحفيف السهام وصليل الرماح : ورأوا أن النصارى يتضاءلون
أمام أعدائهم الذين تدفقوا عليهم كما يتدفق السيل . فتبدد شملهم ،
وسقط إلى الأرض يبرق الصليب . وديس علم أسبانيا تحت الأقدام .
وامتلاً الجوبصيات الانتصارينخالطها صراخ الغضب وأنين المحتضرين .
ورأى الملك لنريق بين هذه الفرق الفارة من الميدان . فارساً متوجاً .
كان ظهره إليه . ولحظ أن سلاح هذا الفارس وعدته . تشبه سلاحه
وعدته . وأنه كان يركب جواداً أشهب . يشبه جواده « أوريليا » .

ثم رأى أن الفارس بعد قليل سقط عن جواده في هرج الحرب ومرجها
فلم يعد يرى . وأن أوريليا أخذ يعدو في الميدان بغير راكب .
وحينما خرج الملك وحاشيته من الحصن دهشين خائفين . اختفى
التمثال من الوجود . وسقط الشيخان الحارسان ميتين عند مدخل الحصن .
وكان من إرهاب الطبيعة الغاضبة أن اتهمت النار الحصن . فتأجج
كل حجر فيه وأضرماداً تنروه الرياح . ويقول القصاصون : إنه كلما
سقط رماد من هذه الأحجار في مكان . وجد بجانبه نقطة من الدم
المسفوك .

أولع مؤرخو العصور الوسطى من النصارى والعرب بالإفاضة في هذه
الحادثة . وإمدادها بكثير من صور الخيال . وضروب الإرهاب
كما قيل :

كم من رؤى وأساطير مزوقة بها وعيد وإرهاب وإنذار
 فيها تلاقى خيالُ العرب مازجه ما خيلته لأهل القوط أشعار
 وكم قرأنا أن كلا الفريقين قبيل الموقعة . كان ينشرح صدره
 أو ينقبض بالفأل والطيرة . وزعموا أن النبي نفسه . ظهر لطارق في المعركة
 وحثه على الإقدام . وأمره أن يضرب ويغلب . إلى غير ذلك من أمثال
 هذه الروايات . وكيفما كانت رؤى الجيشين وأحلام رجالهما . فإن نتيجة
 القتال حين وقف الجيشان بالقرب من وادي لكه . كان لا يشوبها
 شك . . . نعم إن طارقاً أمد بخمسة آلاف مقاتل من البربر . فبلغ جيشه
 الصغير اثني عشر ألفاً . حينما كان جيش لذريق يبلغ ستة أمثاله في العدد .
 لكن الثقات حين كانوا شجعاناً مغاوير أشداء . مروا على الحروب . وكان
 قائدهم بطلاً باسلاً . بينما كان الأسبان خليطاً من العبيد المستضعفين
 في الأرض . وكان بين قوادهم بعض الخونة من الأشراف . فإن أقرباء
 غيطشة - وإن أطاعوا لذريق في ظاهر الأمر وحضروا المعركة - كانوا
 عازمين على الانضمام إلى الأعداء عندما ينكشف لهم وجه القتال . ولم
 يخطر لهم ببال أن في فعلهم هذا خيانة لأسبانيا . فقد ظنوا واهمين أن
 الغزاة لم يقصدوا إلا إلى النهب والغنيمة . وأنهم عند انتهاء الغارة وحصولهم
 على الأسلاب يذهبون تَوّاً إلى إفريقية . فتعود سلالة غيطشة إلى عرشها^(١)

(١) في « أخبار مجموعة » : فقال بعضهم لبعض : هذا ابن الحبيشة قد غلب على
 سلطاتنا وليس من أهله ، وإنما كان من سفالنا ، وهؤلاء قوم لاجحة لهم باستيطان
 بلدنا ، إنما يريدون أن يعلثوا أيديهم ثم يخرجوا عنا فانهزموا بنا إذا لقينا القوم .
 وكان لذريق قد ولي شيبيرت ميمته وأبة ميسرته ، وهما ابنا الملك غيطشة .

القديم المغصوب : وبهذا الظن الخاطئ عاونوا من حيث لا يشعرون على وضع أجمل ولايات أسبانيا نحو ثمانية قرون تحت حكم العرب .

وقد سقطت قلوب المسلمين بين جنوبهم ذعراً . حينما رأوا الجيش اللهم . الذى أعده للزريق لتزاهم . وحينما رأوا الملك فى درعه الفاخرة وفوقه المظلة الملكية : ولكن طارقاً صاح فى رجاله : « أيها الناس : العدو أمامكم والبحر وراءكم . وليس لكم والله إلا الجلد والصبر » : فاستنجد المسلمون بشجاعتهم وصاحوا : « إنا وراءك يا طارق » ثم هجموا خلف قائدهم يقذفون بأنفسهم فى وطيس الحرب وأتونها . واستمرت المعركة أسبوعاً ، أظهر فيه الفريقان كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام . وكان للزريق يستحث قومه مرة بعد أخرى . ولكن فرار أتباع غيطشة رجح كفة الميزان . فصار الميدان صورة محزنة للدمار والهزيمة .

ومزق جيش للزريق ونحارت	بمن فيه العزائم والقلوب
وحين رأى الهزيمة فر يعلو	وحيداً مستكيناً لا يؤوب .
عليه من غبار الحرب ثوب	ومن لون الدماء به لبيب
وتحمل كفه سيفاً خضيباً	كنشار أفلتته الحروب
فلأمة صدره فيها شقوق	وخوذة رأسه فيها ثقوب
أطل بقمة فرأى دماراً	له كادت حشاشته تذب
وأعلاماً ممزقة تبدت	وكل بالدم القاني خضيب
وجال بسمعه للعرب صوت	بنصر الله رده السهوب

رأى قواده فرّوا وأبقوا جريحاً أو قتيلاً لا يجيب
 وأنى عينه لمحت مكاناً بدا للعين فيه دم صيب
 فقال وقد بكى: قد كنت ملكاً وماذا ينفع الآن النحيب ؟
 ونمت الأمس فوق فراش عز وفرشى اليوم تجفوه الجنوب
 جثا الخدام أمس أمام عرشي وليس اليوم لى منهم عريب
 فيوم ولادنى يوم عبوس ويوم ولايتى يوم عصيب
 فما أشقى نهارى حين أرنو لشمس الأفق يحجبها المغيب !
 فعجل أيها الموت المرجى فما لى اليوم فى الدنيا حبيب

هكذا تقول الأنشودة الأسبانية . ولكن نهاية للدريق بقيت سرّاً خفياً
 إلى اليوم . فقد وُجد فرسه ونخفاه عند شاطئ النهر بعد يوم من المعركة ولم
 يظهر له أثر . ومن المحقق أنه غرق . وأن النهر حمل جثته إلى المحيط .
 ولكن الأسبان يابون أن يصدقوا هذا . فقد ألبسوا الملك الراحل حلالاً
 قدسية خفية الأسرار . لم يخلعوها عليه فى حياته . وجعلوا منه معبداً فياضاً
 لكثير من القصص والروايات . وخلعوا عليه صفات المنقذ المخلص ،
 كما فعل الإنجليز بالملك آرثر ؛ فاعتقدوا أنه سيعود مرة أخرى من مقره
 فى بعض جزائر المحيط . بريئاً من جراحه ليقود التصارى لقتال الملحدين .
 وجاء فى أساطيرهم أنه قضى بقية حياته فى أعمال الخير والإنابة ، وأن
 ثعابين أخذت تبتلع شياً فشيئاً ، عقاباً لما كان يقترب من إثم ، حتى
 محبت ذنوبه « فإن عقاب البدن يتخذ الروح من الآلام » ثم إنه حمل إلى

الجزيرة الهادئة المطمئنة ، ولا يزال رجاله منذ ذلك الحين ينتظرون أوبته
إليهم ، كما يؤوب الظافر المتصر .



موجة الفتح

«لم يكن هذا فتحاً كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين . فإن الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر يوم القيامة »

هكذا كتب موسى بن نصير أمير إفريقية إلى الخليفة الوليد في وصف انتصاره بموقعة وادي لكة .

وليس عجباً أن يدهش المسلمون لنصرهم المؤزر الحاسم . أو أن يملكهم الزهو بهذا الفتح المين . لأننا إذا ألقينا جانباً الأساطير والأوهام التي لفقها مؤرخو الأسبان حول سقوط لفريق . ورجعنا إلى التاريخ المتشد غير المتحيز . رأينا أن انتصار المسلمين في وادي لكة التي بأسبانيا كلها في أيدي العرب . فقد ربيع طارق ومن معه من الاثنى عشر ألف بربرى الجزيرة جميعها . ولم يكن في حاجة إلا إلى قليل من الجهد . ليقضى على المقاومة الحائرة في بعض المدن .

ولم يضع طارق وقتاً في متابعة انتصاره ، فقد تقدم هذا القائد المجلود بلا تردد . متحدياً أمر موسى ، الذى كان يتحرق حسداً لما ناله جنديه البربرى من المجد الذى لم يكن يخطر له ببال ؛ وقسم طارق قوته ثلاث فرق أوكتائب ، وبثها جميعاً في شبه الجزيرة ، فأخضع مدينة إثرمدية ، بعد مقاومة لا تكاد تذكر .

وأرسل مغيث بن الحارث على سبعمائة فارس لامتلاك قرطبة . فأخفى جنوده . حتى إذا جاء الليل تقدم نحو المدينة . واتفق في ذلك الحين أن سقط هاتل من البرد أخفى وقع سنابك الخيل . فعد المسلمون ذلك عناية من الرحمن . والتقوا براعى غنم أرشدهم إلى ثغرة في سور المدينة ، فعزموا أن يجعلوا منها منفذاً لهجومهم : وتسلق رجل منهم كان أكثرهم نشاطاً وأشدهم حمية شجرة تين كانت تحت الثغرة : ثم وثب منها إلى السور . حتى إذا استقر به . خلع عمامته . وأرسل بطرفها إلى بعض أصحابه . ثم جذبهم إليه واحداً واحداً . حتى إذا نزلوا من السور إلى داخل المدينة دهموا حراس الأبواب . ففتحوها للقاتحين : وتم الاستيلاء عليها دون عناء .

وعند ما دخل المسلمون قرطبة . اتجأ حاكمها وحرسها إلى دير يعصمهم من العدو . ولزموه ثلاثة أشهر محاصرين . حتى إذا انتهى أمرهم إلى التسليم بقيت المدينة بأيدي اليهود الذين أثبتوا صدق إخلاصهم للمسلمين ، فنالوا عطفهم ورعايتهم . ونظر العرب إليهم نظرهم إلى الصديق . فلم يضطهدوهم كما اضطهدهم قساوسة القوط . إلا في العهد الأخير ، فحينما اتجه سلاح المسلمين سار اليهود من ورائه متابعين متراحين : فالعرب يحاربون واليهود يتجرون . حتى إذا ألفت الحرب سلاحها . رأيت اليهود والعرب والفرس وقد اجتمعوا على إنماء التعليم . والفلسفة . والآداب . والعلوم : إلى غير ذلك . مما ميز حكم العرب . وأرسل شعاعه في العصور الوسطى منيراً وهاجاً .

وجرت فتوح طارق شوطاً بعيداً بمعاونة اليهود ، وشدة فزع الأسبان ،
 فاستولى على أرشدونة دون أن يلتقى مقاومة ، وفر سكانها إلى التلال ،
 وألقت القياد مألقة ، وعصفت الحرب بإلبيرة ، (بالقرب من مكان
 غرناطة الآن) .

ودافع تدمير Theodemir حيناً عن شعاب جبل مرسية بشجاعة
 وصبر ، ولكنه دفع إلى ترك معقله ، والاشتباك مع العرب في موقعة طاحنة
 حطم فيها جيشه تحطياً ، وفر مع خادم له إلى مدينة أوريولة ؛ وهناك
 فكر في أن يلتقى مطارديه بخديعة بارعة ؛ فإنه حينما رأى أن الحرب لم تكد
 تبقى على رجل بالمدينة ، لسقوط شبان مرسية في المعركة جميعاً ، جمع
 النساء وألبسن ثياب الرجال ووضع الخوذ على رؤوسهن ، وسلحنهن بقصب
 يشبه الرماح . وأمرهن أن يضعن شعورهن فوق الذقون كاللحي ، ثم
 وزعن على أسوار المدينة . فلما اقترب المسلمون في دغش الشفق ،
 سقط في أيديهم لما رأوا من قوة الدفاع عن المدينة ؛ وبعدئذ حمل تدمير
 يده راية الهدنة ، وألبس خادمه عباءة يلبسها السفراء ، وذهب لمفاوضة
 القائد المسلم الذي لم يعرف الأمير الأسباني ، فأحسن استقبالها ، ثم قال
 له تدمير : « لقد قدمت نائباً عن حاكم المدينة لأفاوض في شروط تليق
 بعظيم تسامحك ، وشرف منزلته ؛ فأنت ترى أن المدينة جديرة بأن تثبت
 أمام حصار طويل ، ولكن الحاكم شديد الرغبة في الإبقاء على حياة
 جنوده ، فعذنى بأن يغادروا المدينة أحراراً دون أن يمسه سوء أسلمها
 (٣)

إليك غداً بغير حرب ، وإلا فقد وطننا العزم على القتال إلى آخر رجل ،
فقبل القائد ما عرضه عليه .

ثم وضعت شروط التسليم كما أحب . وبعد أن ختمها القائد وأمضاها
تدمير ، التفت إلى القائد قائلاً : « انظر إلى فأننا حاكم المدينة » .
وعند الفجر فتحت أبواب المدينة ، واتجه المسلمون ليروا الحامية القوية
خارجة منها ؛ ولكنهم لم يروا إلا تدمير وخادمه في درع محطمة ، وخلفهما
جمع من الشيوخ والنساء والأطفال ، فسأله القائد العربي : « أين الجنود
ورجال الحامية الذين رأيتم حول الأسوار البارحة ؟ » فأجابه : « ليس لدى
من الجنود أحد ؛ أما رجال الحامية فهي هم أولاء أمامك ، فانظر إليهم ، فهؤلاء
النسوة حصنت أسوارى ؛ أما هذا الخادم فهو سفيرى وحارسى وحاشيتى . »
فأخذ القائد العجب من جرأته ، وسر من براعة حيلته ، فعينه حاكماً
لمقاطعة مرسية التي سماها العرب بعد ذلك باسمه . وتدل هذه القصة على
كرم العرب ورقة طباعهم . ولا ريب فقد كانوا مثلاً عالية للفروسية الحقبة
التي طالما ازدانت بها أعمالهم ، وكانوا يمتازون بالعفو عند المقدرة ،
وبكثير من صفات البطولة والنجدة ، التي حملت الأسبان بعد تغلبهم
عليهم على أن يلقبهم « بفوارس غرناطة » وبالغطارفة وإن كانوا عرباً .
وفي هذه الأثناء ، كان يضغط طارق على طليطلة قسبة القوط ، لأنه
كان يجد في طلب أشراف القوط ، فقد بحث عنهم في قرطبة ففروا قبل
جيشه . ولا دخل طليطلة التي أسلمها إليه اليهود ، لم يجد بها للأشراف
أثراً ، فقد غادروا المدينة قبل دخوله ، والتجئوا إلى صخرة أشتورش

(أستورياس) ولم يبق بطليطلة إلا الخونة من أسرتى غيطشة ويوليان الذين كوفتوا بمناصب فى الدولة ، أما سراة المملكة فقد هجروها وأسلموها للعرب ، فصارت ولاية تابعة للدولة الأموية ، التى جعلت مقر حكمها بدمشق ووسعت رقعة مملكته من جبال الهند إلى أعمدة هرقل .

وترك لموسى بن نصير إخضاع ما بقى من الأندلس ، فإنه حينما سمع بفوز طارق المطرد ، عبر المضيق على عجل بجيش من العرب فى صيف سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) ، لينال نصيبه كاملا من المجد ، وكان عدد رجاله ثمانية عشر ألفاً . فاتصل بطارق فى طليطلة بعد أن أخضع قرمونة وإشبيلية وماردة . ولم تكن مقابلة القائد الأعلى للفاتح مقابلة ود وصداقة : فإن طارقا حينما سارع إلى لقاء موسى فى حفاوة وتكرمة ، عاجله هذا بالسوط . وأخذ يقرعه ويعنفه على مجاوزة أوامره : معلناً أنه لن يستطيع أن يضمن سلامة المسلمين . فى يد قائد مخاطر مثله . ثم زج به فى غيابة السجن^(١) . ولما علم الخليفة الوليد بما وقع لطارق وما أصابه من الظلم . انذى أثارته الغيرة وصبه الخسد - استدعى موسى إلى دمشق ، وأعاد طارقا إلى القيادة بأسبانيا .

وقبل أن يعود موسى إلى الشام . كان قد بلغ جبال البرت (البرانس)^(٢) وأطل منها . فجالت بخیاله صورة لفتح أوروبا كلها ،

(١) أعتقد أن هذه الحادثة غير صحيحة وإن تواترت كتب التاريخ على نقلها . وأغلب الظن أنها من وضع العباسيين .
(٢) ويقال لها البرينات أيضا

ولكن دعوة الخليفة عاقته عن الاستمرار في تقدمه ، فقام بهذا الأمر غيره (١).

ذلك أن حاكماً (٢) عربياً تملك في سنة ٧١٩ م (١٠١ هـ) القسم الجنوبي من الغال المسمى : « سبتيانيا » بما فيه من مدينة قرقشونة ، وأربونة . . . وأخذ من هذين المراكزين يغير بجيشه على برغاندى ، وأقبتانية . غير أن يوديس دوق أقبتانية استطاع قهر العرب عند أسوار طلوثة (تولوز) سنة ٧٢١ م (١٠٣ هـ) . فلم يفت هذا الغلب في عضدهم . بل حفزهم إلى الاتجاه نحو الغرب ، فنهبوا بونة . وفرضوا الضرائب والإتاوات على سان . واستولوا على أفينون سنة ٧٣٠ م (١١٢ هـ) وتوالت غاراتهم على الولايات المجاورة .

وقد وطد العزم عبد الرحمن حاكم أربونة الجديد ، على التغلب على كل بلاد الغال ، فإنه بعد أن وقف تقدم يوديس الذى حاول بعد انتصاره في طلوثة أن يغزو أرض المسلمين . هجم على طرّكونة وفتح أقبتانية . وهزم يوديس عند شواطئ البحارون .

واستولى على بُرديل (بوردو) عنوة . عند ما سمع بالكنوز المذخورة بدير القديس مارتن . وقابل شارل بن يبين الذى كان في الواقع ملك فرنسا الفعلى . لأن ملكها كان ضعيف العزم . يكاد يكون محجوراً عليه من رئيس القصر .

(١) توفي موسى مضوباً عليه من الخليفة سنة ٩٧ هـ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله الفائق ، استشهد في سنة ١١٤ هـ سنة ٧٣٢ م

بنوقة بلاط الشهداء . .

وتقدم المسلمون إلى الغزو فرحين مستبشرين . ظانين أنهم سيلاقون من النصر ما لاقوا في موقعة وادي لكه . وتوقعوا أن يروا فرنسا الجحيلة من كاليه إلى مرسيليا ، وقد سقطت فريسة في أيديهم . وفي الحق إن مصير أوروبا كان في الميزان ، حتى لقد عدت هذه الموقعة من المواقع الخمس عشرة الفاصلة في حياة البشر . وكان السؤال العظيم الذي كان جوابه في شفار السيوف وأسنة الرماح . هو : « أتصبح أوروبا مسيحية أم مسلمة ؟ » ، أتكون نوتردام التي لم تبن بعد كنيسة أم مسجداً ؟ أتردد كنيسة سنت بول تراتيل المسيحية . أم تدوى بها أصوات المصلين من المسلمين ؟ ذلك أنه لم يكن هناك من سبب يدعو مطلقاً إلى وقوف الفاتحين عند ساحل المنش إذا لم تصد جيوشهم عند تور ؛ ولكن قضت الأقدار بأن مد الغزو الإسلامي قد بلغ غايته ، وأن الجزر أخذت تبدو مظاهره للعيان .

لم يكن شارل والإفرنج من أتباعه من الصنف الخائر العزيم ، الضعيف الخنث ، كبقايا الأسبان والرومانين والقوط ، بل كانوا في الشجاعة والشدة أكفاء للعرب أنفسهم وأمثالا ، وكان لهم من بسطة الجسم ، وعنفوان القوة ، ما كان له أكبر الأثر في أعدائهم .

وقد قضى للجيشان ستة أيام في المناوشة ، واشتد الالتحام في السابع وهي الصدام ، فاخترق شارل صفوف العرب بصولة لا تقاوم . ثم أخذ يرسل يمينا وشمالا ضرباته القوية التي سمي من أجلها : بشارل مارتل ، أو إن شئت : « شارل المرزبة أو المطرقة » وسرت روحه في جنوده . فانقضوا على المسلمين بقوة ساحقة . فتمزق جيشهم ولادوا بالفرار ، ودعى بين

الحزن والذعر مكان هذه الموقعة يبلاط الشهداء حيناً من الدهر طويلاً .
 زال الخطر عن غرب أوربا لأن كارثة العرب كانت فادحة ، حتى
 إنهم لم يفكروا طوال القرون التي حكموا فيها في الجنوب أن يغزوا فرنسا .
 نعم إنهم احتفظوا بأربونة وبالجبهات المشاركة للسفوح الشمالية لجبال البرت
 (البرانس) حتى سنة ٧٩٧ م (١٨١ هـ) : ثم خاطروا بإرسال غزوات
 على بروفانس - ولكن طموحهم لم يصل بهم إلى أبعد من هذا ، فإن
 موقعة « تور » حققت استقلال فرنسا ، ووقفت سداً أمام الفتوح العربية .
 لقد غمرت حشود العرب الأرض كما يغمرها مد البحر . وكانت
 جيوشهم تملأ كل مكان ، ولكنهم الآن بعد هزيمتهم الساحقة أصبحوا
 يسمعون صوتاً غريباً يرث في آذانهم صائحاً : « هنا ستقفون ، وهنا
 ستستقر أرواحكم المزهوة المغرورة »

وكان ملوك فرنسا مع كل هذا يثقون بشجاعة جيرانهم العرب ،
 وينحشون بأسهم ، حتى إنهم - وإن فرحوا أحياناً بانتصارهم عليهم في
 وقائع صغيرة - لم يحاولوا إخضاع أسبانيا إلا مرة واحدة . ذلك حينما فقد
 قارله (شارلمان) - الذي شبهوه بالإسكندر - راحته وأحس بقلقه لشدة
 مناعة العرب في الجانب الآخر من جبال البرت . وظن أن من واجب
 المسيحي ، أن يستأصل شأفة الملحدين ، ورأى أنه وهو الملك العظيم
 المظفر ، لا يحمل به أن يحتمل إلى جانبه دولة مستقلة بالأندلس . وقد
 منحت له الفرصة في النهاية ، حينما ثار بأسبانيا بعض القبائل لتولية أول
 أمير أموي ، وقد دأبت القبائل طيلة أيام العرب بالأندلس على السخط

والهياج . فدُعي شارلمان للتدخل في الأمر وطرده الأمير الغاصب .

ويزعم مؤرخو الأسبان : أن ألفونسو ملك أشتورش (أستورياس) هو الذى استنجد بملك فرنسا . ولكن الأرجح أن الدعوة جاءت من بعض زعماء المسلمين^(١) ، الذين خابت آمالهم ، وانعكست مطامعهم في عبد الرحمن الداخل الأموي ، حتى أصبحوا يؤثرون الخضوع لعدو الإسلام اللدود على قبول هذا الأمير الجديد .

وكان ما طلبوه من شارلمان محبوباً إلى نفسه . ملائماً للفرصة التي كان يتوقعها . وكان الدهر في هذا الحين مبتسماً لشرلمان لأنه أتم إخضاع السكسون ونفى زعيمهم « وتكنند » وأقبلت الألوف من أصحابه إلى بادربون للدخول في المسيحية زمرا . وأصبحت يد الفاتح حرة طليقة . تتجه أنى شاءت للغلب والانتصار .

فتم الاتفاق بين المتآمرين على أن يغزو شرلمان أسبانيا . بينما يعمل الزعماء الساخطون على توجيه الجيش العربى إلى ثلاث جهات متباعدة . وكان من حسن طالع أمير قرطبة أن هذا الاتفاق الخطر لم يتم منه شيء ، فإن حلفاء شارلمان أخطئوا في حسابان الزمن . ثم تنازعوا وصاحت صائحة الحرب بينهم . فلما احترق شارلمان البرت سنة ٧٧٧ م (١٦١ هـ) لم يجد ناصراً ولا معيناً ، فأخذ يحاصر سرقسطة . وبينما هو عند أسوارها ، إذ وصلت إليه الأخبار بأن « وتكنند » عاد وأثار السكسون وتقدم بهم حتى وصل إلى

(١) هم : سليمان بن يقطان الأعرابي الكلي حاكم برشلونة ، وعبد الرحمن بن حبيب القهرى ، وأبو الأسود بن يوسف .

كولون ، فلم يجد شارلمان بدأ من أن يعود أدراجه لحماية مملكته ، فاقترح
 بجيشه شباب الجبال . وفي شعب رونسفال^(١) نزلت بمؤخرته كارثة فادحة
 قضت عليها ، فإن البشكنش — وقد أحرقت صدورهم العداوة القديمة
 الدائمة للإفرنج — وضعوا لهم كميناً في أغوار صفوف جبال البرت ، وانتظروا ،
 حتى إذا مرت مقدمة الجيش من الشعب انقضوا على المؤخرة ، وكانت
 بطيئة السير محملة بالأثقال ، فاستأصلوا رجالها حتى لم يكدر يفر منهم أحد
 من يد الموت .

ويقص علينا المؤرخون المسيحيون ما تقشعر له الأبدان من مذابح هذا
 اليوم . ويذكرون أن المسلمين وفرسان ليون تعاونوا على تحطيم جيش الإفرنج .
 وتصور لنا أنشودة أسبانية كيف أن البطل برناردو كان يقود فرسان ليون
 في مذبحه جيش الإفرنج فتقول :

يسوق إلى الفرنج به أسودا
 شعار «بلاى» والشرف التليدا
 رضينا أن نكون له عبيدا
 قريباً كان يقصد أو بعيدا
 وإنا خير من — العهودا
 يطيح بهم ويرهقهم صعودا
 يمد إلى العدا زناداً شديدا ؟
 لعرش ليون جباراً عنيدا ؟

مشى برنارد في جيش ضخم
 ليحمي أرض أسبانيا ويعلى
 ولنا سادة الأحرار لكن
 نتابع ريش خوذته ونمضي
 وعاهدناه أن تقضى جميعاً
 أنلقى بالبنين لمستبد
 وبين ضلوعنا قلب جرىء
 أيطمع شارل أن يتي مليكاً

(١) يسميه العرب باب الشورى .

لقد كذبت أمانيه فإننا سنحصد جمعه حتى يبيدا
ويبقى شعب ألفونسو شريفاً ويبقى ملك ألفونسو مجيداً
حارب العرب كثناً إلى كتف لاستئصال الإفرنج . مع أبطال ليون
الذين أبوا أن ينضموا إلى أمير أستورياس في خضوعه لشرلمان . ويحدثنا
أبسيديو ترين في تاريخه القصصى لشرلمان وأرلان دو « بهجوم ثلاثين ألفاً
من العرب على جيش المسيحيين . وقد امتلئوا غضباً وحقدًا . وكان
المسيحيون مجاهدين يترنحون للسقوط لطول ما قاتلوا من قبل . فحصد
المسلمون رجائهم . ولم يبقوا منهم على أحد . فمنهم من نفذت الرماح من
أحشائه . ومنهم من هشمته القضبان . ومنهم من طاح رأسه بالسيف .
ومنهم من سنخ حياً . ومنهم من شق فتلاً من الأشجار »
كانت المذبحة مفرجة . ولم تتمع ذكرى هذا اليوم من أخيلة سكان
هذه الجهة على طول الددر . حتى إن الجيش الانجليزى حينما تعقب قواد
نابليون في شعب رونسفال سمع الناس يتغنون بالأنشودة القديمة التي قيلت
في هذه المعركة الطاحنة . وأخذ شعراء أسبانيا الجوانون يضيفون إليها كثيراً
من الحوادث . إن صدقاً وإن كذباً . ومن أشهر الأناشيد أنشودة أمير
البحر جارينو - التي سمعها المدون كيشوت وشانكو بانزا تغنى بتوبوسو -
وهي :

يا فرنسا قد كان يومك حقاً	عند رونسفال يوماً عصيباً
كأن برنارد فيه سيناً فولى	وسناناً لشارلمان صلياً
وجرينو قد كبلكه قيود	فهو يدعو فلا يلاقى مجيأ

حواله سبعة من العرب أبطاً ل يرى بينهم أسيراً غريباً
ومكذا تمضي الأنشودة . فتقص علينا قصة أسر جارينو ، ثم انتقامه
بذبح أسره في المبارزة . ثم فراره إلى فرنسا .

وكان ممن ذبحوا في هذا اليوم الأيوم . رولند الشجاع : وهو من قواد
شارلمان الاثني عشر وقائد حدود بريتانى . وقد صورته خيال الشعراء بطلا
في قصة شارلمان ، ونسب إليه من أعمال الفروسية والشجاعة ما يتردد العقل
في قبوله .

فقد قيل : إنه حارب طوف اليوم . وقذف بنفسه في أشد مواقع المعركة
التحاماً . ضارباً بسيفه « ديورندا » إلى اليمين وإلى الشمال ، ولكن شجاعته
لم تغن عنه شيئاً . ولم تكسبه المعركة . فارتقى إلى الأرض جريحاً محاطاً
برجاله وأخذ يجود بنفسه . ويقولون : إنه قبل أن يسلم الروح استل سيفه
الأمين من قرابه . وكان به ضئيلاً . يؤثر أن يفقد الذراع التي جردته على
أن يفقده وشرع يقول :

« أيها الحسام الذى لم يمثله سيف فى بريقه وصفاء مائه ، وعظمته
ولينه . ثم فى قبضته العاجية البيضاء المزينة بصليب ذهبى فاخر ، فوقه
تفاحة زبرجدية . حفر بها اسم الله الأقدس . لقد منحت مضاء ،
واستأثرت بمزايا ليست فى سواك . من ذا الذى سيشارك فى المعارك
بعدى ؟ ! . ومن هذا الذى سيكون لك صاحباً ؟ فإن ماللك لا يغلب
ولا ترهبه الأعداء ، ولا تخيفه الأوهام . فإذا صحبتك وصحبته معونة الله ،
حطم المسلمين ، وأعلى كلمة المسيح . وبلغ قمة النجد .

« يا أيها السيف السعيد . يا أمضى المواضي . لقد عز لك النديد
والنظير ، فإن القين الذي طبعك لم يطبع لك أخاً ، وإذا ضربت لم يستطع
الفرار من ضربتك أحد » ثم ضرب به صخرة قسمته نصفين مخافة أن يسقط
في يد جبان أو مسلم . ثم نفخ يُجمع قوته في بوقه الذي كان صوته يحطم
الأبواق ، حتى انفجرت أوداجه .

وأرسل بوقه المحزون صوتاً فردد فونترايان صداه
ووصل الصوت إلى أذن شارلمان وهو في معسكره على ثمانية أميال ،
غير عالم بالمصيبة التي حلت بمؤخرة جيشه . وكاد الملك يهيم بنجدة صاحب
البوق المستصرخ . لولا أن أحد الخونة أخبره بأن رولند ينفخ في بوقه
للصيد . وهكذا لم يسعف شارلمان قائد الأمين ، الذي فاظ بعد أن رتل
صلاته وأدى اعترافه . ثم أسرع بولدوين إلى شارلمان — وكان من نبلاء
فرنسا — وأخبره بما حاق بمؤخرة الجيش وبموت رولند وأوليفر . عندئذ
حوّك الملك عنان فرسه وعاد بجيشه إلى رونسفال ، فرأى الجثث مبعثرة
في الميدان . ورأى جثة البطل ممددة على هيئة الصليب ، وبوقه وسيفه
المحطم إلى جانبه : فوقف يتدبه في حزن وأسى ، وهو يردد الزفرات ، ويعول
إعوال الشكالي . ويضرب كفاً بكف ، ويتنفح لحيته ، ويقول :

« يا يدي اليمنى . يا فخر الإفرنج . يا سيف العدل ، ويا رحماً لا يلين
ودرعاً لا تحطم . يا ترس الطمأنينة والسلام ، يا حامى المسيحية وسوط
عذاب الإسلام . يا حائط القساوسة ، وصاديق الأرامل واليتامى ،
يا أمين الرأي ، ويا صادق الحكم ، ويا أشرف قومك ، ويا أشجع قائد

الجيش . لم تركتك هنا لتموت ؟ كيف أراك ميتاً ولا أموت بعدك ؟ لماذا تركتني حزيناً وحيداً . وخلفتني ملكاً بائساً مسكيناً ؟ ولكنك رفعت إلى السماء وأصبحت تسعد بصحبة الملائكة والشهداء .

وهكذا ظل شرممان يبكي رولند ويندبه طيلة حياته . ثم أقام الجنود في البقعة التي مات بها . وضمخوا جسده بالبسم والطيب . وسهر الجيش على حراسته يرتل الأدعية ويتلو الأناشيد . ويوقد النيران على قمم الجبال حوله . ثم حمله الجنود معهم . واحتفلوا لدفنه كما يحتفل للملوك . وهكذا انتهى هذا اليوم الأسود . . .

حيث رونسفال كانت للفرنج الخمس لحدا
ألفر لاقى بها الختلف ورولند تردى
ولم يشد التاريخ بعمل قليل الشأن كما أشاد بهذه المعركة . حتى لقد جعلها منبعاً لأساطير البطولة وأناشيد الشعراء . فهي ثروويل^(١) جبال البرت (البرانس) في التغنى بها وطول الحديث عنها ، وإن لم يكن لها ذلك المجد ، ولا هذا المغزى .

(١) ثروويل : شعب ضيق في بلاد اليونان ، بين جبل أوتا والبحر ، اشتهر بالهطاع اليائس الذي قام به ملك الاسبرطين ليونيداس ، ومعه ثلاثمائة جندي حينما وثب جيش الفرس على اليونان في سنة ٤٨٠ ق . م .

الأنديون

وضع انتصار شارل مارتل سنة ٧٣٣ م (١١٥ هـ) سداً أمام غزو المسلمين لأوروبا ، فلم يعودوا يفكرون في دفع فتوحهم إلى الأمام ، واتجهوا إلى توحيد المملكة التي افتحوها وجمع أطرافها ، وبعد أن وقعت الواقعة بجيش شارلمان ، عاشوا في بلادهم آمنين لا ينازعهم منازع مدة ثلاثمائة سنة . نعم إن أبناء القوط المهزمين تمسكوا باستقلالهم في المقاطعات الجبلية الشمالية ، وأخذوا من آن لآن يستردون أجزاء من مملكتهم القديمة ، ولكن هذه الغارات ، وإن ضاقت بها صدور العرب ، لم تكن إلى الآن خطراً عليهم ، لأنهم كانوا يقطنون القسم الأعظم من أسبانيا في رخاء وبلهنية ، ولم يتحقق خطر المقاطعات إلا في القرن الحادى عشر .

وقبل الفاتحون أول الأمر الاعتراف باستقلال هذه المقاطعات ، وعدوا ذلك شراً لا بد منه ، لأن انتزاعها من أيدي الأسبان كان يكلفهم دماء أغلى مما تستحق ؛ فتركوا للمسيحيين جليقية (غاليسية) ، وليون ، وفشتالة ، ومقاطعات غسقونية ، وقنعوا بأحسن قسم في أسبانيا ، ولرغموا المسيحيين على التمتع بمقاويز الشمال الموحشة الباردة ، ومخوزه القاسية الجافية ، على ألا يطمحوا أو يملوا أعينهم إلى ما ينعم به العرب ، من الولايات الجنوبية والشرقية اللينة الخصبة .

ومنذ نهاية القرن الثامن — حينما وقفت حدود مملكة العرب عند غاية ، إلى أن زحف المسيحيون على ممالك الإسلام في القرن الحادى عشر — كان الحد بين المسلمين والمسيحيين على التقريب ، عند امتداد شارات وادى الرمل^(١) ، التى تمتد فى اتجاه شمالى شرقى من قُلمرية فى البرتقال إلى سرقسطة ، ويمكن أن يعد نهر إيره حداً تقريبياً . فكان المسلمون ينعمون بالسهول الحصينة لأنهار تاجه ، ووادى يانه ، والوادى الكبير ، وهو الاسم الذى سُمى به العرب هذا النهر لعظمه ، وكانوا يملكون إلى جانب مدن الأندلس الشهيرة مزايا الثروة ، ورواج التجارة ، واعتدال الجو إلى غير ذلك مما اشتهر به هذا القسم من عهود الرومان . وهذا التقسيم طبيعى ، فقد تميز القسمان تميزاً جغرافياً منذ القدم ، لاختلاف أجوائهما ، فالشمال موحش معرض للرياح الهوج ، والأمطار الهاطلة ، والبرد الشديد ، وهو على جودة بعض المروج والمراعى به ، لا يصلح كثير من أراضيه للزراعة . أما الجنوب ، وإن كان مهدداً بالرياح الحارة التى تهب من إفريقية ، فزدهر . كثير المياه ، صالح للزراعة . وبين القسمين مساحة واسعة ، كان المسلمون ينتفعون بها على الرغم من أن ملكيتها كانت موضع شك وجدال ، وأبغض العرب وهم عشاق الشمس المتألقة هذه المساحة الباردة ، فتركوها لقبائل البربر أصحاب طارق ، وكان هؤلاء دائماً موضع زراية العرب الخالص الذين جنوا ثمرات الفتوح .

ملك المسلمون ثلثى شبه الجزيرة وسموها بالأندلس ، وأنشأوا بها مملكة

قرطبة العظيمة ، التي كانت أعجوبة العصور الوسطى . والتي حملت وحدها في الغرب شعلة الثقافة والمدنية ومؤتلفة وهاجعة . وقت أن كانت أوروبا غارقة في الجهالة البربرية ، فريسة للشقاق والحروب .

ويجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاب والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة ، وعدل ، وحكمة ، كما حكمت في عهد العرب الفاتحين . وقد يسأل المرء نفسه دهشاً : من أين جاء هؤلاء العرب كل هذه المواهب السامية في الإدارة والحكم ؟ فقد جاءوا من صحرائهم العربية ولم تترك لهم فتوحهم المتوالية من الزمن إلا قليلاً ، للدراسة فنون سياسة الأمم المغلوبة . نعم إن بعض رجال دولتهم كانوا من اليونان والأسبان ، ولكن هذا لا يبطل العجب ، لأن هؤلاء لو تركوا وحدهم ، أو عملوا في ميدان آخر بعيد عن العرب ، لعجزوا عن أن يكون لهم أمثال هذه النتائج الباهرة . وكل ما هبى للعقول الأسبانية من القدرة الإدارية ، لم يكف لجعل الحياة أيام دولة القوط محتملة هنيئة ، ولكن الأمة الأسبانية على النقيض من ذلك كانت في ظلال حكم العرب راضية هائلة كما يمكن أن يرضى ويهنأ شعب مغلوب بحكمه غاصب ، بل إنها كانت أسعد حالاً وأرخص بالاً ، مما كانت عليه حين كان حكامها القوط يدينون بدينها الذي تراءوا باسمه دون حقيقته فإن اختلاف الدين كان في الحق أقل المصاعب التي لاقاها العرب في أول حكمهم ، وإن أصبح بعد ذلك مثار عنت واضطراب ، لأن ميول الأسبانين للمسيحية كانت لا تقل عن ميول الوثنية ، فقد فرض عليهم

قسطنطين المسيحية فرضاً . فبقى الناس متشبثين برومانيتهم . ولم يترك الدين في نفوسهم إلا أثراً ضئيلاً ، وهم في الواقع لم يكونوا في حاجة إلى دين جديد . بل كانوا في أشد الحاجة إلى القدرة على أن يعيشوا حياتهم في أمن ورغد . وقد منحهم ساداتهم المسلمون هذين .

وفي بداية الفتح . مر بالأندلس وقت قصير مضطرب . شوهته حوادث الإحراق والقتل والمصادرة . غير أن حكام العرب أسرعوا إلى وقف كل ذلك ، ورأت الرعية بعد أن استقرت الأمور في نصابها أن حياتها على كل حال لم تكن أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم أفادوا من تغير الحكم ، فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم . وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجريتهم من خلاف ، وأصبح سكان المدن لا يكلفون إلا الجزية والحراج — إن كانت لهم أرض تزرع — بعد أن كانوا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تنفق على الدولة ، وكانت الجزية متدرجة على حسب منزلة المطالبين بها : فكانت تبتدئ من اثني عشر درهماً إلى ثمانية وأربعين في العام ، أو من نحو ثلاثة جنيهات إلى اثني عشر ، وقد قسمت اثني عشر قسماً ، يجبي قسط في كل شهر للتخفيف عن الرعية ، وقصرت الجزية على المخالفين في الدين من النصارى واليهود . أما ضريبة الأراضي التي كانت تنفوت على حسب قدرة إنتاج الأرض ، فلأنها فرضت بعدل وساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً ، ولم تمتد يد المسلمين في الغالب إلى أملاك الملوك

والأهلين التي كانت لهم قبل الفتح ، نعم إن أملاك الكنائس صودرت ، وكذلك الأملاك التي فر أصحابها إلى جبال الشمال ، ولكن العرب تركوا عبيد هذه الأراضي يعملون بها ، على أن يؤدوا إلى ساداتهم المسلمين نسبة من الحاصل تتفاوت بين الثلث وأربعة الأخماس ، وعومل بعض المدن كماردة ، وأريولة معاملة خاصة ، وفازت من الفاتحين بخير الشروط ، فاحتفظ السكان فيها بخصائصهم وأراضيهم . على أن تؤدي إلى الحاكم إتاوة في كل عام . ولم يكن المسيحيون على أسوأ الفروض ملزمين دفع ضرائب أكثر مما كان يدفع جيرانهم المسلمون ، على أنهم قد ظفروا بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط ، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرين على نقل ملكية أراضيهم لغيرهم . أما التسامح الديني فلم يدع للأسبانيين سبباً للشكوى ، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة . كما كان يفعل القوط باليهود . وكانت الجزية كبيرة الفائدة لخزانة الدولة ، حتى إن بعض أمراء قرطبة كانوا يميلون لتثييط عزائم المتحمسين من المسلمين الذين أخذوا يدعون إلى الإسلام ، لأن هذه الدعوة كانت تحرم الدولة منبعاً غزيراً من موارد جبايتها .

وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح ، أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد ، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الإفرنج أو القوط ، حتى إن القساوسة أنفسهم لم يكونوا شديدي التألم لحكم العرب كما يدل على ذلك التاريخ المنسوب إلى (لينزيبور)

(٤)

الباجي^(١) الذي كتب بقرطبة سنة ٧٥٤م (١٣٧هـ) فإن هذا الراهب الصالح لم يتخرج من تدوين تلك الصلة غير الجائزة من زواج أرملة للزريق يابن موسى بن نصير^(٢) . وأسطع الأدلة على رضا المسيحيين عن حكمهم الجدد ، أن ثورة دينية واحدة لم تحدث في خلال القرن الثامن .

أما فرح العبيد بما طرأ على نظام الحكم من التغير فقد كان عظيماً حقاً ، بعد أن لاقوا من ضروب العنف والقموسة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان . فإن الرق في رأى المسلمين الأخيار نظام إنسانى رقيق ، حتى إن النبي (صلى الله عليه وسلم) حينما لم يجد بداً من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادئ الإسلام بذن كل جهد في تخفيف ويلاته في كثير من الوصايا والأحاديث ؛ فهو يقول في الأرقاء : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس . ولا تكلّفوهم ما يغلبهم . فإذا كلفتموهم فأعينوهم » وعن أبي مسعود الأنصارى قال : « كنت أضرب غلاماً لي فسمعت من خلقى صوتاً يقول : اعلم أبا مسعود : الله أقدر عليك منك عليه . فالتفت . فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يا رسول الله ، هو حر لوجه الله . فقال : أما لو لم تشعل لافتحتك النار » .

(١) يقال : إنه من قرطبة ، ذكره دوزى فقال : إنه كان قسيساً . ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد فهو يروى مثلاً : أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعد العزيز ابن موسى بن نصير ، ولا يجد في ذلك إثماً كما كان يفعل غيره من القيسيين ، ثم قال دوزى : إن كراهية ليزيدور للعرب إنما كانت لأنهم شعب غريب لا من أجل أعمالهم .

(٢) أغرته زوجته أن يلبس تاجاً قمار عليه العرب وقالوا إنه تنصر فقتلوه سنة ٩٨هـ .

ولم يكن بين القرب التي يتقرب بها المسلمون إلى الله أجل من إعتاق العبيد ، وكثيراً ما حض النبي على تحريرهم ، وقد جعل الإسلام إعتاقهم كفارة لبعض ما يُجترح من الذنوب .

سعد العبيد بدخول العرب ، وأصبحوا في رق المسلمين بمرتلة صغار الزراع ، فتركهم ساداتهم أحراراً يزرعون الأرض كما يشاءون ، على أن يؤدوا إليهم نصيباً من الغلة ، لأنهم كانوا مشغولين بالحروب ، ولأنهم كانوا بطبيعتهم يأنفون من أعمال الفلاحة ، أما عبيد المسيحيين الذين ظلوا يائسين من التخلص من الرق طول حياتهم : فقد مهد أمامهم اليوم طريق إلى الحرية من أسهل الطرق وأهونها . فليس عليهم إلا أن يذهبوا إلى أقرب محاسب أو قاض ، وينطقوا أمامه بالشهادتين ، فيصبحوا أحراراً . فإن الحرية تتبع الإسلام : فليس عجباً إذاً أن نجد العبيد الأسبانيين مسرعين إلى إعلان دينهم الجديد ، ليتخلصوا من ربة العبودية . ولم يبذل التساوسة في الماضي إلا جهداً ضئيلاً لغرس المسيحية في قلوب هؤلاء الأرقاء . فقد كان لديهم من العمل والإشراف على ضيعاتهم ثم من العناية الدينية بالنبلاء . ما صرفهم عن الاهتمام بهؤلاء الجهلاء ، ثم إن الانتقال من مزيج من الوثنية والمسيحية ، إلى إدراك ضعيف للإسلام . لم يكن صدمة شديدة للعقل المقلد . ولم يكن العبيد وحدهم هم الذين تسابقوا إلى الدين الجديد . فقد أسلم كثير من كبار الملاك والسراة . إما للفرار من الجزية . وإما للمحافظة على ضياعهم . وإما لأن نفوسهم مالت مخلصاً إلى الإسلام . وأحببت ما في التوحيد من جلال

ويسر . وكان هؤلاء الداخلون في الإسلام أو المتسلمون (١) ، سبباً لإثارة القلاقل في الدولة كما سيتلى عليك بعد ، فإن إسلامهم وإن تضمن مساواتهم بالمسلمين ، لم يصل بهم إلى التمتع بحقوق المسلمين وميزاتهم كاملة ، فقد حيل بينهم وبين مناصب الدولة . ونظر إليهم نظرة اشتباه وحذر كما ينظر إلى من يبيع نفسه رخيصة يريد عرض الحياة الدنيا . وقد زالت هذه الفروق في النهاية ، ولكن بعد أن أحدثت نزاعاً خطيراً ، وثورات متعاقبة .

كان فتح العرب للأندلس في جملة نعمة ورخاء على الأندلسيين المحكومين . لأنه أبطل ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة من الضياع الواسعة . وحوّذا ملكيات صغيرة . ثم رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسطى . واقتصر منها على الجزية على غير المسلمين ، والحراج على المسلمين وسواهم . ثم حث على تحرير العبيد والرفق بهم . وإصلاح أحوالهم فأصبحوا زراعاً مستقلين في خدمة ساداتهم المسلمين .

وكان الفتح على النقيض من ذلك شراً وبلاء على الحاكمين ، فليس هناك أبعد شططاً من أن تتخيل أن العرب الذين انتشروا بهذه السرعة ، فوق نصف العالم المتمددين . كانوا متحدين على أي معنى مقبول من معاني الاتحاد . فإن ذلك لم يكن صحيحاً ، وقد بذل محمد جهده ، وكذا بكل ما أوتي من حكمة وحزم وشخصية مهيبة عجيبة . ليحافظ جهد المستطيع على صورة للوحدة العربية . لأن العرب كانوا شعباً وقبائل . وكان بين هذه القبائل حروبٌ وتراتٍ دامية استمرت طويلاً ، وكان للثُغرة القبلية

(١) تسلم : دخل في الإسلام . ويقال كان كافراً قسماً ، ومؤلفو تاريخ الأندلس يسمون من دخل في الإسلام : إسلامياً .

التي لم تنطفئ شعلتها بعد الإسلام ، أكبر سلطان على نفوسهم ،
ولو بقيت دولة الإسلام في حدود بلاد العرب ولم تتجاوزها ، ما بقي شك
في سرعة انتفاضها وزوالها ، لكثرة ما كان يقع بين القبائل من التنافس
والتحاسد . وقد تبع وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) خروج عام من
القبائل . والحق أن الإسلام لم تثبت أركانه . ولم يصبح دين الدنيا ، إلا
حينما سلح نفسه وأصبح ديناً محارباً . فنجنا من الانتكاس بتوالي
انتصاراته لأن العرب إذ ذاك ألقوا إلى حين تحاسدهم المدمر القاتل جانباً ،
ليتعاونوا في اقتناص الغنائم . على أنه من المحقق أن حماسهم للفتوح كان
يؤججه عنصر قوى من التعصب للدين . والرغبة في نشره . فقد حاربوا
لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله ، وحاربوا لأن مشوبة الشهداء وكثوف
السعادة والنعيم . كانت تنتظر من يقتلون في سبيل الله . غير أننا لا نستطيع
أن ننكر أن ثروة القياصرة والأكاسرة ، والأراضي الحصبة . والمدن العامرة
في الممالك المجاورة - كانت عاملاً كبيراً في تحمس المسلمين لنشر الإسلام .
وحينما استقر لهم الملك وهدأت موجة الفتوح . عادت إليهم الشحنة ،
وتحركت فيهم عقارب الحسد والغيرة والتفريق ، التي كانت استلها جلبة
الحروب وغنائم الفاتحين . فانطلقت بعد احتباسها منذرة بالشر والدمار ،
فإن روح العنصرية القبلية انتشر في كل جزء من أجزاء المملكة التي
أخضعوها ، وتأثر به الخلفاء بدمشق . فكان تعيين الأمراء في الولايات
يتبع هذه النزعة القبلية ، وكان اختلاف القبائل وتعصبها بالأندلس داعية
لكثير من القوضى واضطراب الأمن والنظام ، في أثناء الخمسين سنة

الأولى من حكم العرب ، حينما كان حاكم إفريقية أو الخليفة نفسه يعين أمير الأندلس ، فكان هؤلاء الأمراء يبقون فى مناصبهم أو يعزلون أو يقتلون تبعاً لميول بعض العشائر والقبائل ، الذين كانوا يعارضون مرة فى أن يكون الأمير مدنياً ، ومرة فى أن يكون قيسياً ، وثالثة فى أن يكون يمنياً ، واستمرت هذه النعرة تقذف سمومها طول مدة حكم العرب بالأندلس .

يضاف إلى ذلك . أن الأندلس كان بها إلى جانب العشائر العربية المختلفة ، حزب آخر عظيم الخطر يجب أن يحسب له حساب ، فإن طارقاً لم يتم له فتح الجزيرة إلا بجيش جمهرته من البربر ، لذلك أصبح هؤلاء عنصراً عظيم الشأن فى الحياة الجديدة ، ولم تكن أمة البربر ضعيفة خائرة كالأسبان الذين اصطبغوا بصبغة الرومان ، ولكنهم كانوا ممثلين حياة وعزماً وإقداماً . وحينما غزا العرب بلادهم . قاومهم عديد من قبائلهم الباسلة فى معاقلهم الجبلية ، وفى السهول الممتدة من مصر إلى المحيط الإطلنطى ، مقاومة عنيدة كانت أشد عنفاً من مقاومة الفرس وجنود رومة المبرزين . وكانوا يشبهون العرب فى كثير من الوجوه : فكان لهم قبائل كما هؤلاء ، وكانت ميولهم السياسية ديمقراطية كالعرب . غير أنهم كانوا يحملون الأسر الشريفة إجلالاً ذهب بخطر الديمقراطية بين قوم جاهلين ، وكانت صفاتهم الحرية عريية فى أكثر مظاهرها ، واستمر القتال بين هذين الفريقين من الرعاة المنتجعين سبعين سنة . حتى إذا تغلب عليهم العرب فى النهاية كان هذا الفوز عن رضا من البربر أكثر من أن يكون هزيمة محققة . فسمح البربر للأمير العربى أن يجعل دار حكمه قريبة من الساحل ، ولكنهم

حتموا إبقاء حكومتهم القبلية ، للفصل في شؤونهم كما كانت ، وطلبوا أن يكونوا إخواناً لا خولا ولا عبيداً للفتحين . واستمر هذا النظام الأجوف قائماً مدة من الزمن . وتسابق البربر إلى الإسلام ، وتحمسوا له حماسة تفوق تحمس العرب أنفسهم ، وبعد قليل أصبحت بلادهم عشاً للمذاهب الدينية المبتدعة . التي بدلت بالأصول الإسلامية الفطرية عناصر وهمية مثيرة للعواطف . يدسها أصحاب العقول البعيدة الخيال في كل دين ، ووجد المبتدعون بعد أن طردوا من حظيرة الدين الحق ، في عقول السذج من البربر أرضاً خصبة لإثراء مذاهبهم . وقدماً عرف البربر بسرعة قبولهم لما يلقي عليهم من المذاهب الدينية . وبشدة تأثرهم بها وتحمسهم لها ، ذلك التأثير الذي ذهب بهم أفواجا إلى اعتناق الإسلام . والذي مكن طارقاً واثني عشر ألفاً منهم من فتح الأندلس . وقد استغل هذه السذاجة في حركته السياسية الدينية زعيم المرابطين . الذي قدم إلى المغرب ليث في نفوس القوم نفوذاً أقوى من نفوذ رؤساء قبائلهم . ويخضعهم بسطوة فوق سطوة حاكمهم . ولم يكن يحتاج هذا الزعيم إلى أكثر من كرامات زائفة . ليسوق قطيعاً من المصدقين الدهشين إلى خضيرته .

وتحقق أحد حكام العرب من رواج هذا الدجل بين قبائل البربر . حين رآهم يخضعون لامرأة تدعى الولاية . وتؤيد دعواها بالأعيب من الشعوذة ، فأخذ يذرب نفسه على مثل هذه الأعيب حتى برع في أساليب الحواة . فقال من ضاعة القوم واستسلامهم فوق ما كان يتغنى . ومثل هؤلاء يتبعون كل صائح . ويستمعون لكل داع . ويسرعون خفافاً

إلى الثورات العنيفة التي يشعلها زعيمهم بكلمة واحدة . وكان البربر سبباً لكل التطورات التي حدثت في شمال إفريقية ، فإنهم أقاموا دولة الفاطميين ، ثم لحقوا بجيوش المرابطين فسارت متصرة الأعلام حتى ملكت بلاد البربر وأسبانيا . ثم أسقطوا المرابطين وأحلوا محلهم الموحيدين .

وشرع البربر في الأندلس منذ حكم العرب يناصرون الحكام العداء ، وحدث أن أحد هؤلاء بالغ في إرضاء ميوله بالتمتع والإغراق في النعيم ، مرهقاً في سبيل ذلك رعيته . فأغضب ذلك العلماء والفقهاء . فآثاروا البربر عليه ، فما كانت إلا لحظة حتى هب للسلاح جميع سكان نصف الساحل الغربي لبحر الروم . وحتى دهمي العرب بالأندلس بهزيمة نكراء ، وأقبل من الشام ثلاثون ألفاً من الجنود لاستعادة الولايات التي احتلها البربر ، فحيل بين معظم هؤلاء ومن انضم إليهم من العرب بإفريقية والذهاب إلى الأندلس . وأعمل فيهم البربر السيف ذبحاً وتقتيلاً . وفرت فلهم إلى سبته بأرواحهم ، فكان يهددهم في كل لحظة عدوان من الجوع والقتل .

وتأثر بربر الأندلس بوثيق اتصافهم بإخوانهم في الساحل الإفريقي بهذه الثورة . التي قامت بإفريقية سنة ٧٤١ م (١٢٤ هـ) وكان يتغلغل في نفوسهم حسد قديم للعرب . لأنهم نالوا نصيب الأسد من غنائم أسبانيا التي لم تدن قطوفها إلا بقسي البربر وروماحهم . ورأوا أن العرب الذين لم يدخلوا البلاد إلا وقت اجتناء ثمرات الفتح اختصوا أنفسهم بكل الولايات الحصينة الباسمة من شبه الجزيرة . وتركوا لهم أبغض الأجزاء إلى النفس : من سهول استرامادور العُشر ، وجبال ليون الثلجية . فأقاموا بها

مرغمين في جو قارس لا يحتمله من عايش في حر إفريقية . ثم إنهم رأوا أنفسهم في وضع يجعلهم دائماً حامية دفاع بين حقائقهم العرب ونصارى الشمال .

تأثر البربر بكل هذا . وقام « مونس » البربري — أحد قواد طارق الذي تزوج بنت يوديس دوق أقيتانية — فأشعل نار الثورة لما أصاب إخوانه بإفريقية من الظلم . وبعد أن فاز بربر إفريقية بمصائبهم . هبت ثورة عامة في الولايات الشمالية بأسبانيا . وحمل السلاح بربر غاليسية . وماردة . وقورية . وتقدموا لتهجم على صليضة . وقرطبة . والجزيرة الخضراء . وصمموا على أن يبحروا منها إلى إفريقية للاتصال بأبناء وطنهم .

وكان الموقف شديد الخطر عصياً . وجد فيه عبد الملك بن قُطْن القهري^(١) أمير الأندلس نفسه أمام مشكلة تكاد تستعصي على الحل . لأنه كان قد أبي أن يمد يد المساعدة لجنود الشام بسبته ، فأصبح الآن أمام أمرين ، أحدهما مروخيرهما شر : إما أن يخضع للبربر العصاة . وإما أن يستجدي معونة جنود الشام . الذين رفض معاونتهم . والذين قد يكونون إذا أذن لهم بتزول الأندلس . أشد بلاء وشرّاً من دؤلاء الذين جاءوا لطردهم . ولكنه صمم آخر الأمر على إرسال سفن لنقل جنود الشام ، بعد أن أخذ عليهم عهداً أن يعودوا من حيث أتوا بعد التغلب على البربر .

(١) ولي الأندلس سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م ، ثم عزل عنها ذمياً وقتل وصلب

سنة ١٢٣ هـ ٧٤١ م .

وبعد أن قوى جيش العرب بهذا المدد ، كر على البربر ، فاستأصل شأفتهم ، ثم تعقبهم في كل مكان وبين معاقلهم الجبلية ، كما يتعقب الصائد الوحوش الضارية ، حتى شفى نفسه بنيل الثأر منهم .

غير أن الخطر الذي أراد عبد الملك أن يتوقاه ظهر وأبدى ناجذيه ، فقد أبى جنود الشام أن يستبدلوا بالمروج الحضر والحدائق الفيح بالأندلس ، صحراء إفريقية القاحلة ، حيث تنوشهم رماح البربر المتغلبين ، فتحلوا عبد الملك وقتلوه ، واختاروا للأندلس أميراً منهم (١) ، وكان من نتائج ذلك : أن شب بين العرب القدماء والجنود الداخلين صراع عنيف طويل المدى ، كثرت فيه المذابح ، وعم الدمار ، ولم ينته هذا الصراع إلا بعد أن أرسل الخليفة بدمشق أميراً (٢) قديراً فرق بين القبائل المتطاحنة بإعطاء كل من الفريقين مدناً تبعد عن مدن الآخر ، ثم بنى أكثر زعماء الفريقين عناداً وشغباً : فقتل المصريون الذين كانوا يجند الشام مرسية وسموها مصر ، ونزل الفلسطينيون شذونة ، وحل أهل الأردن بمالقة ، وأقام الدمشقيون بغرناطة ، واستقر أهل قنسرين ببيان . وبهذا الوضع زال سبب من أسباب النزاع الحزبي بالأندلس ، ولكن الروح القبلية لم تضعف سيطرتها بعد ، وبقيت الثورات تتغلب على الحكومات ، وتستبد بها ، واستمرت الحال على هذا ، حتى نزل الأندلس حاكم من

(١) هو بلج بن بشر الذي قتله عبد الرحمن بن علقمة سنة ١٢٤ هـ ٧٤٢ م بعد أن حكم أحد عشر شهراً .

(٢) هو أبو الخطار حسام ، قدم الأندلس سنة ١٢٥ هـ ٧٤٣ م من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية .

طابع جديد ، سلاحه الجلال والمهابة ، يحمل بين جنبيه عزة الخلفاء
 الأمويين ، وتجرى في عروقه دماؤهم . قدم إلى الأندلس ليحمل صوب الخان
 الحكم في مملكة مضطربة ، منحلة الأواصر ، وليجمع في حقبة من الزمن
 كل القبائل والعشائر تحت لواء أمير قرطبة هذا الشاب : هو
 الأمير الجديد الذي جاء شريفاً لقتاله فأب بالحيية هذا الشاب :
 هو عبد الرحمن الأموي !!



الإشباب الداخل

استمر الخلفاء يحكمون القسم الأعظم من المملكة الإسلامية ستة قرون ، وكان هذا الحكم في أول الأمر قويا واسع السلطة . فكان الخليفة يعين أمراء الولايات ويعزلهم إن شاء ومتى شاء . من أسبانيا إلى حدود الهند . ولكن المملكة وقد امتدت رقعتها كانت أوسع من أن تجتمع أمداً طويلاً حول محور واحد . لذلك أخذ عدد من الأمراء في الفينة بعد الفينة . يعمل مستقلاً مع إظهار الولاء الأكيد للخليفة ، ومنحه كل ما يجب من تشريف وتبجيل . إلا الطاعة . ودار الزمن دوراته . ففقد الخلفاء هذا التشريف وذلك التبجيل . ونبتت سلالات من الأمراء انتحلت مذاهب دينية مبتدعة ، فجحدت سلطة الخليفة الدينية وعدته وعدت أبناءه من الغاصبين . ثم جاء زمن كانت سلطة الخلفاء الزمنية فيه أشبه بسلطة البابا برومة . في الضعف والخور ، حتى إن حراسهم المرتزقين الذين استأجروهم لحمايتهم من أعدائهم ، كانوا يحبسونهم أحياناً في قصورهم . وقد وقع شيء من ذلك بعد نحو ثلاثمائة سنة من ابتداء الخلافة . أما فيما بعد ذلك ، فكان الخلفاء رمزاً قليل القيمة ، يلعب بهم كبار أمراء المملكة كيف شاعوا ، وكانوا لا ينالون شيئاً من الحفاوة إلا يوم توليتهم . ثم محاً المغول في القرن الثالث عشر الخلافة بآسيا . ولم يعد للمسلمين اليوم خليفة بالمعنى الصحيح ،

على الرغم من تمسك سلطان تركيا بهذا اللقب (١).

وكانت الأندلس أول ولاية نفضت عنها سلطة الخليفة . وإحدى نفهم هذا يجب أن نذكر أن الخلفاء لم يتبع بعضهم بعضاً في سلاطة متصلة الوراثة . فبعد الخلفاء الراشدين : « أبى بكر . وعمر . وعثمان . وعلى » الذين نالوا الخلافة بقليل أو كثير من رغبة الأمة واختيارها — نصب أهل الشام معاوية خليفة بدمشق . فكان من نسله الخلفاء الأمويون . وكان عددهم : أربعة عشر حكوا من سنة ٦٦١ م (٤١ هـ) إلى سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) ثم أسقط انسحاق دولتهم . فكان أول العباسيين . المنسويين إلى جددهم العباس : عم النبي (صلى الله عليه وسلم) . ونقل العباسيون مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد . واستمرت خلافتهم حتى أسقطها المغول سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) .

وكان عبد الرحمن الداخل من الأسرة الأموية المغلوبة ، التي طاردها العباسيون واستأصلوا شأفة أبنائها . وتبعوهم في كل نواحي الأرض يذبحوهم بلا رحمة ولا هوادة . ففر عبد الرحمن (٢) كما فر غيره ، ولكنه كان سعيد الطالع . إذ وصل إلى شواطئ القرات سالماً بعد جهد وأين ، وبينما كان ذات يوم جالساً في خيمته يرقب ابنه الصغير وهو يلعب في فنائها . جرى إليه الصبي خائفاً مذعوراً ، فخرج عبد الرحمن ليتعرف سبب خوفه . فرأى القرية في اضطراب . ورأى العلم العباسي الأسود

(١) المؤلف يكتب حوالى سنة ١٨٨٨ م ١٣٠٥ هـ

(٢) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ولد سنة ١١٣ هـ بدير حنا من أعمال دمشق .

يرفرف في الأفق ، فاجتذب ابنه في عجلة وفر من القرية ، ووصل إلى النهر فقفز بنفسه ومن معه فيه . واقترب الأعداء إلى شاطئ النهر وصاحوا بهم : أن لا بأس عليكم فلن يصيبكم منا أذى ، فصدقهم أخ له صغير كان معه — وكان قد أجهده السباحة — فذهب إليهم فاحتزوا رأسه في التو والحين ، ولكن عبد الرحمن طفق يجاهد حاملاً ابنه ووراءه خادمه بدر ، حتى وصل إلى الشاطئ الآخر ، فلما وضعت أقدامهم على اليابسة أخذوا يسرون ليلاً ونهاراً ، حتى بلغوا إفريقية حيث تبعه بقية أهله هناك ، وحيث وجد ذلك الناجي الوحيد من الأمراء الأمويين وقتاً للتفكير فيما يكون في غده .

كانت سنة إحدى وعشرين سنة ، وكان كبير الأمل طموحاً ، وكان يتحلى إلى سداد الرأي بامتداد إقامة ، والوسامة ، والقوة والشجاعة ، ويضيف بعض مؤرخي العرب إلى هذه الصفات ما لا نحب أن يتصف به بطلنا ، كالعور ، والحشم^(١) . وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ، ويرون فيه علامات لذلك^(٢) ، وهو الآن على الرغم مما أصاب قومه من الهلاك ، قوى العزيمة غير مستكين . وقد اتجه نظره إلى إفريقية أولاً ، لأنه رأى أن قوة العباسيين لم تدع له فرصة في الشرق^(٣) ، فلما بلغها بقي

(١) الحشم : فقدان حاسة الشم .

(٢) في فتح الطيب : دخل عبد الرحمن يوماً على جده هشام وعنده أخوه مسلمة ، وكان عبد الرحمن صبيّاً فأمر هشام أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : دعه يا أمير المؤمنين هذا صاحب بني أمية ووزرهم عند زوال ملكهم فاستوص به خيراً .

(٣) ولأن أخواله كانوا من بزايرة طرابلس .

سنين هائماً على سواحل البربر ، تحقق في خلالها أنه لا يستطيع التغلب على أمير إفريقية^(١) ، وأن ثوار البربر في المغرب لن يتخلوا عن الاستقلال بالحديد الذي نالوه ، ليحظوا بالشرف الأجوف بتولية أحد الأمويين عليهم . عند ذلك حول نظره إلى الأندلس ؛ حيث كان الصراع الدائم بين القبائل والعشائر المتنافسة جديراً بأن يفتح باباً لعبرى مثله ، يؤيده النسب الأموي وتزكيه الهمة العالية ، لذلك أرسل خادمه إلى زعماء حزب الشام بأسبانيا ، وكان بينهم كثير من موالى الأمويين الذين يوجب عليهم الشرف العربى نصر من يتم إلى ساداتهم الأولين ، ورأى بلر من هؤلاء الزعماء رغبة في استقبال الأمير الشاب ، بعد أن فاضوا القبائل المعادية من اليمن فوعدت بنصرته ، عندئذ عاد بلر إلى إفريقية .

وكان عبد الرحمن يصل على سيف البحر ، حينما رأى السفينة التى تحمل خير الأخبار مقبلة إليه ، وكان يميل إلى الأخذ بالقال كجميع المشاركة الذين طبعوا على التفاؤل والتطير . واتفق أن أول رسول أندلسى مع بلر كان اسمه أبا غالب تماماً . فلما عرف عبد الرحمن اسمه صاح : « تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته » ثم نزل إلى السفينة فأبحرت به إلى أسبانيا فى سبتمبر سنة ٧٥٥ م (١٣٨ هـ) وكان دخول هذا الناجى الفذ من بين السلالة الأموية الأندلس ، أشبه بصفحة من قصة عجيبة ، وهو يشبه وصول الشاب الذى ادعى ملك انجلترا إلى أسكتلندة سنة ١٧٤٥ م .

(١) هو عبد الرحمن بن حبيب القى فر من الأندلس بعد دخول ابن الخطار، ووصل الى المغرب وانتزع لنفسه إمارة به ، وهو القى قتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك لا دخلا إفريقية .

وانتشر خبر دخوله الأندلس انتشار النار في الهشيم ، فتراحم عليه المناصرون القدماء للدولة الأموية يقدمون الطاعة ، ووضع أبناء موالى الأمويين أنفسهم تحت أمره . وتأثرت قبائل اليمن التي لم تكن تشعر بانعطاف نحو الأمير الشاب ، بحماسة أنصاره ، فانتقلت إليها العدوى ، وعقدت الحناصر على البر بوعدها . وتوالت على نصرته .

ورأى أمير الأندلس معظم جنوده وقد انصرف عنه ، فاضطر إلى انتظار جيش جديد ، على أن الأمطار في هذا الفصل من السنة جعلت القتال مستحيلاً . فترك ذلك لعبد الرحمن متسعاً من الزمن يجمع فيه جنوده ، ويدبر أمره .

بدأ الصدام شديداً في ربيع السنة التالية ، واستقبل عبد الرحمن بحماسة وترحاب ، في أرشونة وإشبيلية ، فأعد جيشه للهجوم على قرطبة ، وزحف الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهري لوقف تقدمه ، ولكن الوادي الكبير كان فياضاً بماء المطر ، فتسابق الجيشان على كلا شاطئيه ، أيهما يكون أسبق وصولاً إلى قرطبة (١) ، ولكن عبد الرحمن خدع يوسف بحيلة لا تليق بالأبطال ، فطلب منه أن يتركه يجتاز النهر بعد أن هبط ماؤه ليعقد معه صلحاً ، فلما وصل إلى الشاطئ الآخر انقض على جيش يوسف بعد أن وثق الأمير بوعده ، فتغلب عليه ودخل قرطبة ظافراً . وكان له من الهبة والشهامة والنخوة ، ما منع الجند من النهب والتخريب .

وحمل نساء الأمير المهزوم وأسرته إلى مأمنا ، ولم تمض السنة إلا وهو

(١) كان يوسف بالشاطئ الأيمن التي هم عليه قرطبة .

مسيطر على جميع ما احتازه المسلمون من أرض أسبانيا . وبهذا الإقدام النادر . وبهمة عبد الرحمن . مُقدر للدولة الأموية بقرطبة أن تستمر في الحكم نحو ثلاثة قرون .

ولم يثبت أمير قرطبة الجديدي فوق عرشه بغير جهاد أو نصب ، فإن الذي أجلسه على العرش وذل سبيله إليه . لم يكن إلا حزباً صغيراً من الأحزاب الكثيرة التي اقتصمت المملكة فيما بينها . غير أن عبد الرحمن كان أكثر استعداداً وأوسع حيلة من سواه . للاحتفاظ بملكه بين هذه العناصر المضطربة الشاغبة . فإنه كان سريعاً عند الخطب . قوى العزيمة غير متحرج إذا صمم . شديد البطش . لا يرضى إلا ولا ذمة . سياسياً داهية ، أعد لكل مفاجأة عدتها . وكثيراً ما دهمته الحوادث فرأت فيه بطلا هماماً .

ولم يستقر بعرشه طويلاً حتى اجتاز العلاء بن مغيث من إفريقية ليرفع العلم العباسي بأسبانيا . ولم يترك برجاله في ولاية باجة . حتى اتخذ له مناصرين من بين الساخطين المستعدين دائماً للانضمام إلى من يدعوهم لغنم جديد . فحاصر عبد الرحمن شهرين في قرمونة . وكان هذا الحصار شديد الخطر . لأن كل يوم يمر فيه كان يحمل إلى الأعداء مدداً جديداً . ولكن عبد الرحمن كان عبقرية . فما كاد يسمع أن الأعداء خففوا بعض التخفيف من مراقبتهم وحذرهم . حتى جمع سبعمائة من أشجع أصحابه . ثم أوقد ناراً عظيمة وصاح فيهم : « إنا الآن بين حالين : فإما إلى نصر مؤزر وإما إلى موت محقق » ثم ألقى بقراب سيفه في اللهب . وتأثر رجاله . فألقوا بقرابهم في النار معه . معلنين أنهم لن يضعوا سيوفهم في أعنادها

حتى يفك حصارهم ويصبحوا أحراراً ، ثم انطلقوا خلف قائدهم ؛ وانقضوا على محاصريهم بالأسنان والأظافر ، فمزق الجيش العباسي وذهب بدداً (١) .
 - وأمر عبد الرحمن في إحدى نوبات قسوته التي شوهت من سيرته ، أن توضع رموس قوادهم في جوالق ، وأن يعلق بكل أذن صك يرقم عليه اسم صاحبه . وأن يبعث بهذا الجوالق مع أحد الحجاج ليوصله إلى الخليفة المنصور نفسه . وذهب الحاج وبلغ حضرة المنصور وسلم إليه الجوالق (٢) . فلما رأى الخليفة ما به اشتد غضبه . واحتدم وجهه بالغيظ ، ولكنه لم يستطع إلا أن يقول : « الحمد لله أن كان يفصل بيني وبين هذا الرجل بحر » وعلى الرغم من شدة ألم المنصور لفوز أمير قرطبة . لم يجد بداً من أن يطرى مهارته وشجاعته . حتى إنه سمى عبد الرحمن : صقر قريش . وكان يقول : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه . فالشأن في أمر قريش الأحوذى الفذ في جميع شئونه . وعدمه لأهله ونشبه . وتسليه عن جميع ذلك يبعد مرقى همته . ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه في بلحج المهالك لابتداء مجده . فاقتمح جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع . عصبية الجند . ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته . واستمال قلوب رعيته بسياسته . حتى انقاد له عصيهم . وذل له أيهم . فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قضيته . قاهراً لأعدائه . حامياً لدماره مانعاً لحوزته . خالطاً الرغبة إليه

(١) لقي عبد الرحمن الملاء بالتقرب من إشبيلية وهزم جيشه وقبض عليه وقتله .

(٢) في فتح الطيب : وأخذ بالجوالق تاجراً من ثقاته وأمره أن يضعه بمكة أيام

الموسم قتل ، ووافق أن حج أبو جعفر هذا العام فوضعه على باب سرادقه .

بالرهبة منه إن ذلك هو الفتى كل الفتى ، لا يكذب مادحه .

وتوالت بعد هزيمة العباسيين انتصارات للأمير الحديد ، فإنه أغرى أهل طليطلة الذين امتنعوا عليه طويلاً ، بأن يعقدوا معه صلحاً ، وأن يبعثوا إليه برؤسائهم . وما كاد يصل إليه هؤلاء الرؤساء . حتى صلبهم جميعاً . وكان رئيس اليمانية شديد الخطر . فمنحه عبد الرحمن الأمان . ثم استهواه إلى قصره . وحاول أن يقتله بنفسه فلم يستطع . لأن الرجل كان قوياً شديداً الأسر . فدعا إليه بحرسه فقتلوه^(١) . وبعد ذلك بقليل ثار البربر في الشمال ثورة جاححة . فقتل عبد الرحمن عشر سنين في كبح جماحهم وتذليل شماسهم . وكانت نار الغضب لم تخمد بعد في قلوب اليمانية لقتل رؤسهم . فهبوا للتأر . واغتنموا غيبة الأمير في الشمال ، وكانوا يجهلون نشاط الرجل ودهاءه ومكره . فإنه بعد أن أطفأ ثورة البربر في الشمال وأذلم بيث الفتنة بينهم . أخذ يعمل للتفريق بين اليمانية . فخدع البربر الذين كانوا قوام جيشهم . ومناهم الأمانى . فتركوا القتال عند اشتداده . فانقض بجيوشه على انمينين فاستأصلهم . وقتل منهم ثلاثين ألفاً . دفنوا جميعاً في قبر عظيم بنى الناس يزورونه مدة من الزمان . ثم تلت هذه المعركة المعاهدة المنذرة بالخطر . التى عقدها شرلمان مع ثلاثة من زعماء العرب الساخطين . والتى كادت تدمر الصرح الذى بناه عبد الرحمن بعد

(١) هو أبو الصباح اليحصي وكان قد ولاه إشبيلية ، وحقد عليه عبد الرحمن ما بلغه عنه يوم هزيمة يوسف الفهرى أنه قال : يا معشر يمن . هل لكم إلى فتعين في يوم ؟ ! فقد فرغنا من يوسف والصميل فلتقتل هنا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا . وقتل عبد الرحمن أيضاً الصميل بن حاتم سيد الحضيرة .

جهد وآلام . ولكن هذه المعاهدة لم تتم ، وانحل عقدها في معارك مرقسطة ، ورونسفال ، من غير أن يضرب فيها الرجل الذي اجتمعوا لسحقه ضربة واحدة .

ومنذ ذلك الحين أخذ الأمير ينعم فيما يشبه السلم بثمرات جهاده وانتصاره ، فقد أخضع بعزيمته الفولاذية كل العناصر المعادية له بأسبانيا ، وأسقط كل زعيم صلف أصيد جرؤ على أن يستل لحربه سيفاً ، وذبح قواد البربر . وأثبت غير منازع أنه سيد الموقف . ولكن ظلما قاسياً ناكثاً للعهد كظلم عبد الرحمن ، لا بد أن يجر وراءه عقابه وآلامه ، فإن الظالم قد يستطيع إخضاع قومه ولكنه لن يستطيع أن يفوز بإخلاصهم ، والملك الذي ينال بالسيف لا يبقى إلا بالسيف ، فقد نفر الناس من الأمير الأموي بعد أن تجرعوا مرارة حكمه ، وأبى الأماناء من رجال الدولة أن يدخلوا في خدمة رجل خداع فتاك مثله ، وانصرف عنه أنصاره الأولون الذين آزره ورحبوا بمقدمه ، حيناً رأوا ظلمه صارخاً . وقسوته مهتوكة الأستار ، ودبر له المكاييد مرة بعد أخرى أهل الأقربون ، الذين احتموا بقصره من العباسيين . لما ظهر لهم من عسفه الذي لا يطاق ، ففقدوا في سبيل ذلك رعوسهم^(١) .

نبذ الناس عبد الرحمن فبقى وحيداً محزوناً . هجره أصدقاؤه ، ويش

(١) قتل عبد الرحمن من أقاربه عبد السلام بن يزيد بن هشام ، وابني أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية والمغيرة بن الوليد بن معاوية ، وتبقى أخاه الوليد وخادمه بدرأ الذي ذل له الطريق إلى الأندلس .

منه أعداؤه فصبوا عليه لعناتهم . ونصب له الحبائل أهله وخدامه .
وقد تكون حروبه الطويلة للقبائل قد أفسدت طبيعته العربية السمحة ،
وقد يكون قد فطر هكذا على أخلاق شرسة لا تلين . فهو الآن لا يستطيع
أن يندمج كعادته في زحام شوارع قرطبة . وإذا مر بهذه الشوارع فلنما يمر
راكباً محاطاً بحراس أقوياء من الغرباء ، مشتبهاً في كل شيء . ومتهما كل
إنسان ، تتابيه أفكار مظلمة . وترعجه ذكريات الدماء . فكان له
أربعون ألف حارس من مرتزقة البربر . يحمونه من أعدائه الذين سخطهم
تحت قدميه . وكان إخلاص هؤلاء الحراس المأجورين لمولاهم يعادل
بغضهم لجميع الأهلين . الذين أذلهم سيدهم وألصق آناهم بالتراب .

وقد نظم عبد الرحمن في وحدته هذه قصيدة يناجي فيها نخلة نقلها من
أرض أجداده وغرسها بالأندلس ، لأنه كان يقول الشعر . وهو في أبياته
يحنو على النخلة في منفاها ويقول :

تبدت لنا بين الرُصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى في التغرب والنوى وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمتأى مثلى

أدرك الغرض الذى سعى إليه فى ميعه طموحه . فأخضع العرب والبربر .
وأعاد إلى الملك عدلاً ونظاماً ، ولكنه كسب كل هذا فخر قلوب رعيته .
فوارحمتا لذلك الفتى الوسيم الذى دخل الأندلس بطلا مقداما ففاز
بطاعة أهلها وإخلاصهم ، ثم وارحمتا له وهو يدلف إلى قبره بعد اثنتين
وثلاثين سنة ، بغيضاً جباراً ، يحمى عرشه الملطخ بالدماء بسيف المرتزقة ،

الذين يبيعون إخلاصهم بالذهب . لقد حكم أسبانيا بالسيف . وعلى خلفائه أن يجرؤوا على هذا السنن .

وقد رأى أكبر مؤرخ للأندلس : « أنه كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلاً أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبى العرب والبربر . وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف . لأن كلا الفريقين لم يعتد الحكم المنظم » .

ومهما يكن من شيء فإن استمرار ظلم كهذا يخلق جوا من الحزن واليأس على الرغم من بهجة الانتصارات التى تشع فى جوانبه .

وقد أعطانا ابن حيان — وهو مؤرخ قديم للأندلس — صورة لأمير قرطبة فقال :

« كان عبد الرحمن راجع الحلم . واسع العلم . ثاقب الفهم . كثير الحزم . نافذ العزم . بريئاً من العجز . سريع النهضة . متصل الحركة . لا يخلد إلى راحة . ولا يسكن إلى دعة . ولا يكل الأمور إلى غيره . ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه . شجاعاً مقداماً . بعيد الغور . شديد الحدة . قليل الطمأنينة بليغاً مفوهاً . شاعراً محسناً . سمحاً سخياً . طلق اللسان . وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره ، وكان قد أعطى هبة من وليه وعدوه . وكان يحضر الجناز ويصلى عليها . ويصلى بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد . ويخطب على المنبر . ويعود المرضى . ويكثر معاشرته الناس والمشي بينهم » .

هذا هو بلا شك عبد الرحمن الشاب . قبل أن تجعله المقاومة والدسائس

قاسياً جافياً كثير الفرع والشكوك . وللقوة دائماً طرق مروعة في عقاب أصحابها .

وكلما مات ملك جبار تساءل الناس : من يخلفه ؟ والجواب العام في مثل تلك الحال هو : ثورة وفوضى . إن العرش الذي يثبت على رؤوس الحراب لا ينتقل في سهولة من الأب إلى الولد . ومع هذا لم تسقط دولة عبد الرحمن بموت مؤسسها المستبد . وكان من المتوقع أن تثور القبائل المناجزة التي كبح جماحها بمشقة وجهد . بعد أن أطلقت من عقابها بموته . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . لأن الرعب الذي غرسه في قلوبهم كان شديداً . فلم يستطيعوا أن يتخلصوا من دوله . أولأنهم رأوا في ولي عهدهم أميراً محبوباً يتحلى بصفات تضاد صفات أبيه . فقد كان هشام الذي تولى الملك بعده سنة ٧٨٨ م - ١٧٢ هـ . وهو في الثلاثين من عمره - مثالا لجميع الفضائل . وزاده ميلا إلى عمل الخير وبذل العناية في الإصلاح . ما تكهن له به أحد المنجمين من أن ما بقى من عمره لا يزيد على ثمانى سنوات ، لذلك تفرغ الأمير في هذه المدة القصيرة للاستعداد للدار الأخرى . وكان قصره في أيام نشأته الأولى يمجج بالعلماء والشعراء والحكماء . فأثرت فيه هذه النشأة . والولد كما يقولون أبو الوالد . وكان له من أعمال التقوى والصلاح ما لا يحصر عدا . ورأى في حماه الغاضبون والمضطهدون معقلا وملاذا . وكان يرسل من يثق به من الوعاظ والدعاة إلى جميع أجزاء مملكته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وعين بالمدن عسكاً لمنع الشجار وارتكاب الجرائم . ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين

الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد ، وكان يعود المرضى . وكثيراً ما كان يخرج في الليالي العاصفة وهو يحمل الطعام للمريض من الزهاد . حتى إذا بلغ داره جلس بجانب فراشه يراعيه ويرعاه ، ثم هو مع كل هذا لم يكن جباناً ولا زُميلاً . بل كان يقود جيشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال . كما يفعل العربى الصميم . ولقبه الناس بالشفيق . وبالعادل . لسهولة خليفته . ولكنه كان إذا جد الجدد . وهددت ملكه مؤامرات أعمامه . ثابت العزم قاسياً لا يلين . وزاد في عدد حرسه من المماليك ، فكان يقف منهم على شاطئ النهر ألف فارس لحراسة قصره ليلاً ونهاراً ، وكان بارعاً في الصيد . شديد التحرج من الشبهات : سمع بعد أن أعاد بناء قنطرة قرطبة الباقية إلى اليوم : أن الناس يهيمسون بأنه إنما أقام هذا البناء العظيم ليسهل عليه الوصول إلى الصيد . فأقسم ألا يعبر القنطرة مرة أخرى . وقد بر في قسمه . وقبل أن تمر ثمانى السنوات . اختاره الله إلى جواره تقياً نقياً^(١).

وإذا نبت الشر من الخير . فإن أعمال هذا الملك الخيرة كانت أكبر حافز على إثارة عامل جديد للثورة والعصيان بالأندلس . ونشأ هذا الخطر الجديد من السلطة التى وضعت فى أيدي الفقهاء والعلماء . وقد سميناهم بقساوسة الإسلام — وإن لم يكن هذا الاسم صحيحاً — لأن الإسلام لا يعرف هذه الطائفة بالمعنى الدقيق الذى تريده المسيحية الكاثوليكية . فليس المسلمون الذين يؤدون الصلاة فى المساجد . ويخطبون الناس يوم

(١) توفى سنة ١٨٠ هـ ..

الجمعة إلا قوماً عاديين ، يؤخذون من متاجرهم أو غيرها من الأعمال ، ويطلب إليهم في أى وقت أن يؤموا المصلين ، فالدين الإسلامى لا يفرق بين رجل الدين وغيره . على أن بالإسلام شيئاً يقرب قليلاً أو كثيراً مما يتقصد من معنى الكهنوت ، فإن بالممالك الإسلامية دائماً قوماً تجردوا للدين وخصصوا حياتهم به ، قد يكونون دراويش لهم مذهب دينى خاص ، أو طلاب شريعة وفقه ، أو أتباعاً لإمام مشهور يتحمسون لمذهبه ويزودون دونه . وقد يكونون من حفظة القرآن الكريم أو شيوخاً يلقنون الناس العلم ، نجد هذه الطائفة فى كل أقطار الإسلام . وهى طائفة يخشى جانبها فى كل مملكة ، فطالما أظهر شيوخ الأزهر بالقاهرة وطائفة الصوفية (١) بالقسطنطينية والمولوية فى كثير من مدن الشرق - ما للحماسة الدينية من الشأن فى أوقات الاضطراب . واليوم أخذت تظهر هذه النعرة بالأندلس خطيرة منكرة بالسوء .

وتأجج أول عصيان بعد موت عبد الرحمن من حيث لا يرتقب . لم يحدث من المسيحيين ، ولم يحدث من قبائل العرب وعشائر البربر ، وإنما حدث من أبناء الإسلام المخلصين . . . حدث من فقهاء قرطبة . وكان معظم هؤلاء الفقهاء من المسلمين أو أبنائهم ، وقد ذكرنا آنفاً أن الأسبانيين أسلموا برغبة وحماسة فأصبحوا كشأن كل داخل فى دين جديد أكثر تعصباً من المسلمين أنفسهم ، وكان عبد الرحمن أبعد نظراً

(١) أصل الكلمة بالتركية سوخته ومعناها : المحترق ، وتطلق ، على المتصوف المحترق من وجده وشوقه الى ثواب الآخرة .

وأكثر علماً بالحياة من أن يسمح لهؤلاء الفقهاء - وبخاصة الأسبانيون منهم ، بنفوذ له وزن أوقية . ولكن التقى هشاماً لم ير الخطر الذي كان يخشاه أبوه ، ولورآه ما عده خطراً ، فكان يميل إلى وضع ثقته في رجال الدين المحافظين عليه . المتبعين طريقه ، الذين لم يرفى أعمالهم بادرة ميل إلى الدنيا أوجب للظهور ، وكان على رأس الفقهاء في هذا الحين رجل عبقرى المواهب وافر العقل . كان تلميذاً لأحد أئمة المدينة المنورة^(١) ، وقد تملك نفسه من الحماسة الدينية والطموح السياسى مزيج طالما جر الممالك إلى الخراب . هذا الشيخ هو يحيى بن يحيى الليثي^(٢) الذى رأى في إخلاص هشام وتقواه فرصة لرفع الفقهاء بقرطبة إلى قمة من القوة والنفوذ ، لو علم بها عبد الرحمن الداهية لتفرز في قبره . وكانت الأمور تسير سيراً حسناً ما نالت هذه الطائفة رغباتها . غير أنه في سنة ٧٩٦م (١٨٠ هـ) بعد أن انتقل هشام إلى رحمة ربه ، طرأ على قصر الخلافة تغير عظيم . لم يكن الأمير الجديد « الحكم » قليل الاهتمام بالدين أو خليعاً مستهتراً . ولكنه كان مرحاً يحب الحياة ويتمتع بها كلما أقبلت عليه ، ليس به صفة من صفات الزهد والتقشف ، وكانت هذه الأخلاق وأشباهاها بغیضة إلى المترمتين ، فانطلقوا يتحدثون بمثالب الأمير في دعر وإشفاق ويدعون له بالمغفرة والتوبة ، ثم تجاوزوا الحد فسيوه في وجهه وصبوا عليه اللعنات . ولا يشوا من إصلاحه تأمروا على عزله ، وإجلاس

(١) هو الإمام مالك بن أنس .

(٢) يقال إن أصله من بربر مصودة ، رحل إلى الإمام مالك وأخذ عنه العلم ،

وانتهت إليه الرئاسة في الفقه والحديث بالأندلس ، مات سنة ٢٢٤ هـ .

آخر من أسرته مكانه . ولكن المؤامرة خابت . وكان جزاء المتآمرين أن صلب الأمراء الذين اشتركوا في المؤامرة وبعض الفقهاء المتعصبين . وقد كان يكون مثل هذا كافياً . لولا أن الفقهاء عادوا إلى الثورة ، فعاد الأمير إلى إطفائها باستئصال مشعلها . ولكن القرطبيين لم يراعوا بعد كل هذا . وبقيت مراحل الثورة تغلي في قلوبهم . ولم يراعهم ما سمعوه مما أصاب زعماء طليطلة الذين أظهروا العصيان كعادتهم ، والذين استدرجهم ولي العهد بالحيلة والخديعة . حتى إذا قبض عليهم أفناهم ذبحاً وتقتيلاً .

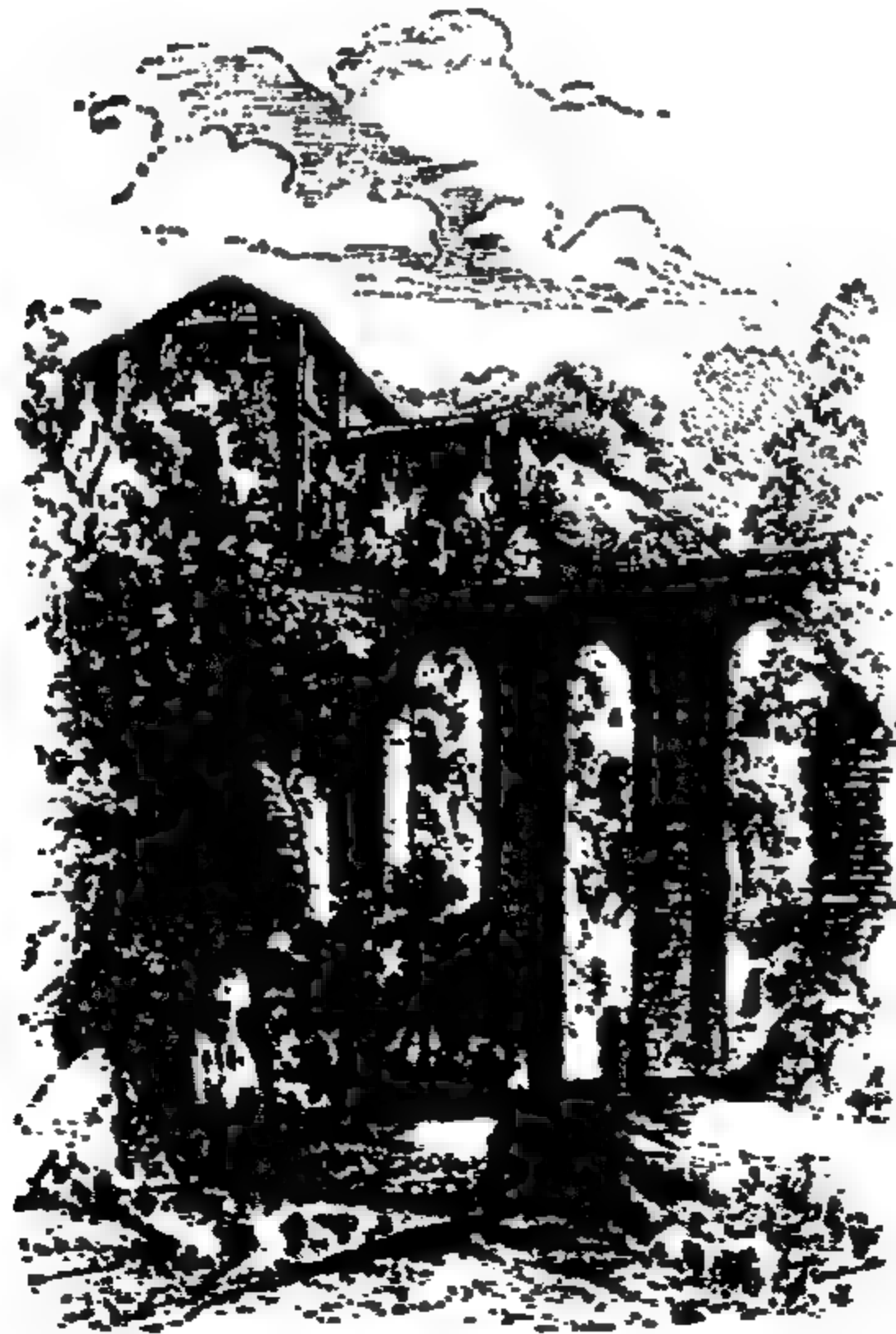
بقيت ذكرى يوم الخندق « الذي سميت به مذبحة طليطلة » كاجحة جماع المتعصبين والمشاعيين في قرطبة سبع سنين . ولما وصلت ذكرى ذلك الخندق الخفيف الذي قذف فيه يبحث زعماء طليطلة . شرعت الفتنة تطل برءوسها في قصبة الأندلس . ولم يزد بغض الأهلين للأمير لأنه أبي أن يلبس الحشن من الثياب . وأبي أن يتراعى بالزهد والتقوى أمام أمته . بل كان يتجه هذا البغض أكثر ما يتجه إلى ممالك الأمير الذين كانوا يدعون « بالخرم » سمو بذلك لأنهم كانوا من الزوج وأشباههم الذين كانوا لا يستطيعون التكلم بالعربية . وكان هؤلاء الزوج لا يجرؤون على السير في شوارع المدينة إلا جماعات ، لشدة كراهية الناس لهم وتحفزهم لإيذائهم . وإذا خرج جندي وحده كان عرضة للضرب أو القتل ؛ .

وحدث يوماً أن ضرب أحد هؤلاء الجنود بعض العامة فثارت ثورتهم جميعاً ، وهجموا بقلب رجل واحد على القصر ، يقودهم آلاف من الفقهاء الذين كانوا يسكنون الربض الجنوبي لقرطبة ، وصاح الشريينهم وطاشت

عقولهم ، وصمموا على أن يقتحموا القصر على الرغم من حصونه وحراسه ، فأطل الحكم من إحدى النوافذ ، فرأى بحراً زاخراً من الوجوه ، وأبصر والدهش يملأ نفسه شدة مكافحة العامة لهجمات فرسانه ، ولكنه لم يفقد هدوءه في هذه الساعة المحفوفة بالمخاطر ، وتلك ميزة العطاء ، وشنشة النسب الكريم . فعاد إلى بهوه ، وأمر خادمه الخاص أن يحضر له قارورة الغالية ، وأخذ في تودة وثبات يضمن رأسه ولحيته ، ولم يستطع فتاه « يزنّت » أن يكتم عجبه من فعل سيده وهو يسمع تهشيم الشعب المفترس للأبواب ، فقال : أهذا وقت الغالية يا مولاي ؟ . ولكن الحكم قاضيه قائلاً : اسكت أيها الغر . كيف تتصور أن يتعرف العصاة رأسى بين بقية الرعوس إذا لم يتميز بريحه العطرة ؟ . ثم نادى قواده وشرع في اتخاذ الوسائل للدفاع . وكانت هذه الوسائل غاية في السهولة وقوة الأثر : فقد أرسل ابن عم له مع بعض الفرسان من طريق خلفية إلى الربض ، فأشعل فيه النار ، فلما رآها المشاغبون غادروا القصر ، وأسرعوا في دعر وفزع لإنقاذ زوجاتهم وأطفالهم من اللهب ، فانقض الحكم وحراسه على مؤخرتهم ، ووقع العصاة بين قوتين فحطوا تحطياً ، وجال بينهم « الخرس » يقتلون بالملئات ، ولا يستجيبون إلى توسلاتهم وصياحهم المؤلم بطلب الرحمة ، وانتهت الثورة بمذبحة عامة ، ونجى الحكم بهذه الضربة القاصمة قصره وسلالته .

وكان الأمير كريماً ، فقبض يده عن الإيذاء بعد انتصاره ، ولم يجاوز به الحد ، واكتفى بهدم دور العصاة بالربض وتفتيمهم ، فرحل بعضهم إلى

الإسكندرية وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً غير النساء والأطفال ، وبعد أن أقاموا بها قليلاً أبحروا منها إلى إقريطش (كريت) ورحل ثمانية آلاف إلى (فاس) وكانت جمهرة هؤلاء المنفيين من أبناء الأسبانيين المسلمين ، الذين كانوا يرحبون بكل فرصة يظهرون فيها بغضهم لحكم العرب ، وترك الفقهاء وهم أس العصيان والثورة بلا عقاب ، إما لأن كثيراً منهم من أصل عربي ، وإما لمتزلتهم الدينية . وقد جر أحد زعمائهم إلى القصر جراً ، فصارح الحكم في حدة غضبه وتعصبه بأنه يبغضه للأمير إنما يطيع أمر الله . فأجابه الحكم جوابه المأثور إذ قال : إن الذي أمرك - كما تزعم - ببغضى أمرنى بالعفو عنك . اذهب فى رعاية الله .



النصارى الشُّهداء

مات الحكم في سنة ٨٢٢ م - ٢٠٧ هـ . بعد أن قضى في الحكم ستاً وعشرين سنة ، ترك وراءها الملك هادئاً بعض الهدوء لابنه عبد الرحمن الأوسط . فقد أخضع المتسلمون في قرطبة بالسيف ثم نفوا ، وتلقى المترمتون من الفقهاء درساً لا ينسى ، ولم يبق إلا إطفاء الاضطراب الدائم على التخوم المسيحية . وورث عبد الرحمن الأوسط ميل أبيه إلى التمتع باللذات والاستقامة إلى النعيم ، ولكنه لم يرث منه قوة الخلق التي تحوط هذا التمتع وتلك الاستقامة من أن تكون ضعفاً^(١) ، فقد أغرق في اللهو ، وحول قرطبة إلى بغداد ثانية ، وأخذ يحاكي إسراف هارون الرشيد الذي كان قد انتقل من عهد قريب من عالم الدنيا ، ومن مشاهد لوه ومسراته ، إلى عالم نأمل أن يكون خيراً له وأبقى^(٢) .

بنى عبد الرحمن القصور ، وغرس الحدائق ، وجعل مدينته بالمساجد والقناطر ، وأولع بالشعر كغيره من ملوك الإسلام المثقفين ، وكان يرى أن شعره لا يقل في منزلته عن شعر المجيدين ، وإن زعم بعض المؤرخين أن

(١) في أخبار مجموعة : وكان الأمير الحكم شجاعاً حازماً مظفراً في حروبه ، أطفأ نيران الفتى بالأندلس وكسر قرن النفاق ، ثم روى أخباراً تدل على شدته وحزمه في توطيد دعائم الملك .

(٢) مات الرشيد بطوس سنة ١٩٣ هـ (٨٠٨ م) .

كثيراً منه كان من أقلام غيره . وكان الأمير نقي الذوق . لين الخلق . سهل القياد . ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة . وهم : مغن . وفقه . وامرأة . وعبد أسود . وكان أشد هؤلاء تسلطاً عليه الفقيه يحيى بن يحيى اللبثي . وهو ذو نفسه الذي أثار الفقهاء على أبيه الحكم . ولكنه أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والكلمة التي لا ترد لدى الأمير الجديد . وكانت للأميرة « طروب » وعبد « نصر » سلطة نافذة في شئون الملك . أما « زرياب »^(١) المغني فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن في إنهاض الفنون والثقافة . وأبى أن يزج بنفسه في أمور الدولة التي قد تكون سيئة المغبة .

كان فارسياً . وكان تلميذاً لإسحاق الموضلي المغني المقدم ببغداد . . فحدث ذات يوم لسوء طالع . أن فاق أستاذه في غناء صوت بحضرة الرشيد . فحق عليه إسحاق . وخيره بين الموت والنفي . فاختار النفي ورحل إلى الأندلس . فأحسن عبد الرحمن استقباله وبالع في إكرامه والإغداق عليه وقرر له راتباً ضخماً . ووهب له الدور . وأدر عليه الأرزاق . ومنحه الكثير من الميزات والهدايا . حتى بلغ الذروة في الجاه والثروة . وزاد إعجاب الملك بمواهبه . حتى إنه كان يجلسه إلى جانبه ويؤاكله وينصت ساعات إلى غنائه . وإلى ما يقص عليه من أخبار الأولين . ومن الحكم والأمثال التي وعها حافظته من قراءاته الكثيرة .

وكان يحفظ في الغناء أكثر من ألف صوت ويقول : إن الجحش تلقنه

(١) دخل الأندلس سنة (٨٢٠٦) .

إياها ، وهو الذى أضاف إلى العود وترّاً خامساً ، وكان فى ضربه العود منقطع النظير ، يوشك من يستمع لضربه مرة ، أن يأبى الإنصات إلى سواه ، وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه ، فكان يأمر من يريد تعلم الغناء أن يجلس ويغنى بأعلى صوته ، فإن كان ضعيف الصوت أمره أن يعقد حزاماً حول خصره ليزيد فى قوة صوته ، فإذا كان الص الأضراس لا يقدر أن يفتح فاه واسعاً ، أو كانت عادته أن يزم أسنانه عند النطق ، أمره أن يضع فى فمه قطعة خشب عدة ليال حتى ينفرج فكاه ، فإن استطاع بعد ذلك أن يصيح بكلمة : آه . بأندى ما يكون من الصوت ، وأن يستمر صوته بمثابة واحدة فى العلو ، قبل أن يعلمه ويمرنه ، وإلا أمره أن يذهب إلى حال سبيله . وبذ زرياب الناس جميعاً فى تهذيبه وفكاهته وحسن محاضرتة ، فأصبح أشهر رجل بالآندلس ، وتحكم فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها « بيتر ونيس »^(١) و « برومل »^(٢) . من ذلك أنه أبطل عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقاً إلى الحاجبين والصدغين ، وأدخل بالآندلس بقلة الهليون (أسباراجس) وزاد فى الأطعمة لونا كانوا يسمونه بالنقايا ، وهو يصنع بماء الكزبرة مع السنبوسق والكباب ، ولونا آخر سموه ثقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرناب فى ماء كثرت به التوابل والأفاويه ، وأبدل بالأكواب المعدنية

(١) كاتب قصص روماني اشتهرت كتابته بالتيكيت والسخرية المستورة ، وقد أعجب به نيرون ووصله بمحاشيته .

(٢) هو جورج براين ، انجليزى اشتهر بابتداع الأزياء ولد سنة ١٧٧٨ ومات

الأكواب الزجاجية ، وابتدع النوم على أسرة من الجلد ، وابتكر أن تكون أسمطة الطعام من جلد كذلك ، إلى كثير من وسائل الرفاهية والنعيم ، ثم إنه أرشد الناس إلى التأنيق في تغيير الملابس بحيث يتزل غلظها على التدريج ، من أصفق الملابس في زمهرير الشتاء ، إلى أخفها في هجير الصيف . وكانوا يغيرون ملابسهم مرة عند الشتاء وأخرى عند الصيف . وقصارى القول : إن هذا الأبيقورى^(١) المرح لم يبتدع شيئاً إلا رآه الأندلسيون ضروريا جميلا .

وبينما كان القصور ورجاله منهمكين في تذوق ألوان جديدة من الطعام ، متأنقين في قص شعرهم . كان فريق من أهل قرطبة يفكر وينهك فيما هو أعظم وأبعد أثرا . لأن الخطر في هذا الحين لم يدهم الدولة من خارج حدودها . فإن عبد الرحمن الأوسط - على علاته - لم تعوزه الشجاعة التي تدفعه إلى خوض معامع القتال . فكثيرا ما قاد الجيوش إلى نصارى الشمال الذين كانوا بزعامة أويس الحميل الخلق والخلق لا يفتأون يغيرون على الحدود . وكثيرا ما حلق النصر حول رايته^(٢) . على أن هذه المناوشات لم يكن لها الآن من الشأن والخطر ما يهز ركن الدولة الوطيد . فإن الاضطراب في عهود الدولة الأولى لم ينجئ إلا منها نفسها ، وقد جاءت الزعازع في هذه الآونة من عدد قليل من النصارى بقرطبة التبت

(١) نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة اليونان ومذهبه : أن خير ما في الحياة التمتع بالحياة.

(٢) في أخبار مجموعة : أنه غزا ماردة سبعة أعوام ولاء ، فلما اشتد عليها الحصار

في العام السابع وسمع صراخ النساء وعويل الأطفال أمر برفع الحصار عنها لإبقاء على الولدان ومن لا ذنب له ، ولم ينتقل إلا محلة حتى أتته رسلهم بطاعتهم والإلقاء إليه بأيديهم .

نفوسهم غيرة وتعصباً لدينهم . أما جمهرة النصارى بالأندلس فلم يصابوا بشيء من هذه الغيرة العنيفة ، لأنهم رأوا أنهم يعاملون خير معاملة . وأن المسلمين قد تركوهم أحراراً فيما يعبدون . وأن الحكام لا يتدخلون في شيء من عقائدهم . وأنهم يتجرون كما أرادوا ، ويجمعون الثروة حيثما وجدوها ، وأنهم يعيشون كما يعيش إخوانهم المسلمون . فما الذي بقي لهم من أمانهم ؟ لا شيء . اللهم إلا إذا كانوا يتطلعون إلى استرجاع ملكهم . وشيء من هذا يعد الآن من المستحيلات . ففنعوا بالأمور كما هي . واجتهدوا أن يستفيدوا من سماحة حكامهم ولينهم .

كان هذا الميل عاما بين نصارى الأندلس ، وإن ظهر هنا وهناك روح طموح متحمس أغاظه هذا الخنوع لحكم المسلمين . وطافت بخيال أصحابه أطراف من قوتهم الماضية وعلو شأن الكنيسة . ولم يستطع القساوسة أن يكبحوا جماح بغضهم للمسلمين الذين سلبوهم عزهم وسلطانهم ، وأبدلوا بالنصرانية ديناً جديداً . ومن العجب أن تسامح المسلمين كان يزيك في سحق النفوس المتعصبة . فلقد كان أصحاب هذه النفوس يؤثرون أن يعذبوا وأن يضطهدوا كما اضطهد القديسون من قبل . وكانوا يشوفون إلى الاستشهاد تشوف الظمان إلى الماء الفرات . وينقمون من المسلمين أنهم لم « يعذبوهم في سبيل دعوتهم الحق » حتى يضمنوا لأنفسهم الفوز في جنات النعيم . وكان أشد ما يكره هؤلاء المتشددون المترمتون ، ما شغف به العرب من التمتع بلذات الحياة ، والإغراق في اللهو والسرور ، والعيش في ظلال الرفه والنعيم ، فكان تمتعهم بالحياة وزينتها ، وحجم

للغناء والموسيقى . ولولوعهم بالعلوم من أكبر ما يثير بغض هؤلاء الزهاد وحقدهم . فإن حياة المؤمن الحق عندهم ، يجب أن تكون سوط عذاب ، وصوفاً متصلاً ، وتوبة وبكاء ، وتطهيراً بالآلام ، وإماتة للجسد في سبيل إحياء الروح . واكتفى هؤلاء أول الأمر بإظهار جانب الزهادة المسيحية والتخرج بين الأهلين ، ولكن الأيام دارت دورتها ، ونشأ في المسيحية جيل جديد . فإذا تحمس مفاجئ عميق الغور يأخذ مكان التهاون القديم . وإذا حمى حب الموت والاستشهاد في سبيل المسيحية تظهر في كل مكان .

وكان من المحزن المستدر للرحمة حقاً أن ترى رجالاً يقدفون بأرواحهم وأرواح غيرهم في سبيل حلم كاذب ، فإن هذا الانتحار الديني لم يكن أكثر تعقلاً أو أدخلاً في باب الدين ، مما كان يقاسيه قساوسة « بال » الذين كانوا يقطعون أجسامهم بالسكاكين ، أو مما كان يفعله زهاد الهنود . الذين كانوا يدخلون أظفارهم في راحهم ثم يتركونها لتنمو فيها . وجنون الشهداء في سبيل أشرف وأعلى من سبيل هؤلاء ، لن يجعلهم أقل منهم جنونا . . . إن المسيحية لا تعلم دعائها أن يطوحوا بحياتهم هدراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل . على أن نصارى الأندلس لم يضطهدوا . ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل ، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها ، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر مما يعرف نصارى الأندلس أنفسهم ، وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة

والتسليم ، لأن قدسية المسيح ، وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل ، من أظهر مبادئ الإسلام . وكل ما في الأمر أن المسلمين كانوا يؤثرون دينهم . فلم يكن للنصارى من عذري في الظهور بمظهر المضطهدين المستذلين ، بعد أن ترك لهم المسلمون دينهم . وفي الحق إننا لا نجد سببا معقولا لتهافت النصارى على الموت ، ما دام المسلمون قد سمحوا لهم بإقامة شعائرهم ، وأجازوا لهم أن يعظوا وأن يعلموا من غير عائق أو حائل .

ليس هناك من علة مشروعة لبحث هؤلاء عن حتفهم بظلفهم ، إلا إذا أرادوا أن يتنكبوا عمداً طريق الإنجيل ، وأن ينبذوا جانباً تعاليم المسيح الذي يقول : « أحبوا أعداءكم . اعملوا الخير لمن يبغضكم . واستغفروا لمن يظلمونكم أو يضطهدونكم » . إنهم لم يظلموا ولم يضطهدوا ، ولم يمس المسلمون جمهرة النصارى بسوء . نعم إن بعض العامة كان يسخر أحيانا من القساوسة ، ولكن طبقات المسلمين الأخرى لم تشترك في شيء من هذا . مع كل هذا التسامح وهذا العطف واللين ، أبى هؤلاء النصارى المساكين أن يحبوا أعداءهم ، وتجاوزوا جادة الصواب في سبهم ولعنهم ، وإثارة غضبهم ، لا لشيء إلا لحملهم على قتلهم ليموتوا شهداء في سبيل الدين .

ومن الأحكام المعروفة في بلاد المسلمين : أن يعاقب من يسب النبي أو دينه بالقتل . . . نعم إنه حكم شديد قاس ، ولكن الدنيا شهدت من القوانين ما لا يقل عنه قسوة وشدة ، فقد كان الناس يحرقون بين صبيحات

السرور في اسمثفيلد وأكسفورد في عصور تلي هذا العصر الذي نكتب فيه (١).
 ليس من المسيحية أن تثير عمداً عراكاً دينياً أو تسب ديناً غير دينك ،
 وليس استشهاداً بل انتحاراً أن تتعدى مختاراً حدود شريعة يجر تعديها
 إلى الموت . إن الرحمة التي تثير نفوسنا لشهداء قرطبة ، هي بعينها الرحمة
 التي تخالطنا لمن أصيبوا بالحباط (الهيستريا) لأن من قتل منهم كان
 في الحقيقة شهيداً لمرض نفسي ، وحال هذا تستدعي من الرحمة ما يستدعيه
 موت المستشهد في سبيل الدين .

كان يولوجيوس الروح المثيرة لهذه الانتحارات : وهو قسيس ينتمي
 إلى أسرة عريقة بقرطبة ، اشتهر بحماسة الدينية ، فقد قضى سنوات
 في الصوم والصلوات والإنابة وتعذيب النفس ، حتى وصل إلى حال من
 الذهول ، دفعته في سبيل إخلاصه لدينه إلى الجحرة والتهور ، وعزف به
 الزهد عن الميل إلى الحياة الدنيا ، فلم يفكر يوماً في نفسه ، ولم يطمح إلى
 مأرب دنيوى ، بل كانت كل آمانيه ومقاصده أن يصب اللعنات على دين
 المسلمين ، وأن يوقظ روح التضحية السامية بين النصارى . وأعانه على
 الوصول إلى غايته شاب غنى بقرطبة يدعى « الفارو » ثم عدد قليل من
 متحمسى القساوسة والرهبان والنساء والمسيحيين ، وكان بين من أعجبوا
 بهذا القسيس الشاب المخلص ، فتاة على غاية من الجمال تدعى « فلورا »
 كان أبوها مسلماً وأمها نصرانية ، فنشأتها سرّاً على النصرانية ، وبقيت

(١) كثر إحراق الأشخاص لمذهبهم الديني بالمنجذرة بعد دخول البروتستنتية أيام
 هنرى الثامن وابنه إدوارد وابنته ماري .

فلورا عدة سنين مسلمة في ظاهر أحوالها . ولكنها فرت بعد ذلك من دار أخيها ، وكان أبوها قد فارق الحياة . والتجأت إلى النصارى متأثرة بروح التضحية والتعصب التي أثارها يولوجيوس في سامعيه . وبما سمعت من بعض فقرات في الكتاب المقدس هاجت شعورها مثل : « إن الذى يمحذنى أمام الناس سأججده أمام أبى فى السماء » . ولما افتقدتها أخوها المسلم ، بحث عنها فى كل مكان فلم يُجد بحته شيئاً ، فاتهم القساوسة فقذف كثير منهم فى السجن لتأمرهم على اختطافها . ولما لم ترد فلورا أن يؤذى أحد فى سبيلها ، عادت إلى دارها وأعلنت نصرانيتها فى صراحة وجرأة . وبذل أخوها أشد الوسائل وأعنفها لقصرها على العودة إلى الإسلام فلم يفلح ، حتى إذا يئس فى النهاية ساقها إلى القاضى متهماً إياها بالردة ، ومن المقرر أن الإسلام يعد ابن المسلم مسلماً وإن كانت أمه نصرانية ، ويعاقب على الردة بالقتل ، ولا يزال هذا الحكم قائماً إلى اليوم بتركيا ، وإن تغافل الحكام عن تنفيذه من أربعين سنة .

ولن ينتظر من عرب الأندلس الذين سبثوا عهد الترك بألف سنة أن يكونوا أكثر تسامحاً من الترك نحو المرتدين ، ومع هذا أظهر القاضى الذى حضرت أمامه فلورا بعض الشفقة على الفتاة التعسة . فلم يحكم بقتلها كما يوجب الدين ، ولم يحكم بسجنها ، ولكنه أمر بها فضربت ضرباً شديداً ، وطلب من أخيها أن يأخذها إلى داره . ويلقنها تعاليم الإسلام ، ولكنها فرت ثانية والتجأت إلى بعض أصدقائها ، وهناك قابلت أول مرة يولوجيوس ، الذى أكن لهذه الفتاة الحملة البائسة المخلصة حبا طاهراً

حناناً يشبه حب الملائكة . فإن سمو نفسها وورعها وشجاعته التي لا تغلب جعلتها قديسة في عينيه . حتى إنه بعد ست سنوات من هذه المقابلة لم ينس ما تركته في نفسه من الأثر حينما كتب إليها :

« لقد تفضلت أيتها الأخت القديسة أن تريني عنقك وقد مزقته الشياطين . وقد قص الظلمة من حوله تلك الحصل الجميلة . التي كانت تتدلى فوقه كأسلاك الذهب فعلت ذلك لأنك عددتني أباً روحانياً . واعتقدت أن نفسي كنتفسك صافية طاهرة . وقد وضعت يدي برفق على هذه الجروح . ووددت أن أبرئها بشفتي لو استطعت

وحينما فارقتك كنت كن يمشي في حلم . واستمرت زفراتي وتأوهاتى » نقلت فلورا مع أخت لها تماثلها في الرأي والتعصب . إلى مكان خفي أمين . فلم يرها يولوجيوس فترة من الزمن .

وفي هذه الأثناء كان تعصب النصارى بقرطبة قد نضجت ثمرته . فقد أغرم قسيس مختبل ذو برفكيوس بسب الإسلام . فأخذ وشتق في عيد الفطر حينما كان المسلمون رجالاً ونساء يحتفلون بهذا اليوم . وينعمون فيه بكل ما يبعث الابتهاج والسرور . وقد زاد شتق هذا القسيس في مرح الحشود التي زحمت الشوارع أوركبت القوارب في النهر . أولعبت بالسهل الفسيح خارج المدينة .

مات هذا القسيس المسكين شجاعاً . مرسل آخر أنفاسه بسب النبي ودينه . محاطاً بزحام عظيم من المسلمين الساخرين الشامتين . وجاء أسقف قرطبة ووراءه جيش من القساوسة والمخلصين . فحمل جثته ودفنها مع آثار

القديس اسيسكلوس من شهداء ديوكليتيان ، وكان برفكيوس واعظاً
بكنيستته ، ثم خلع عليه لقب القديس ، وفي مساء ذلك اليوم غرق مسلمان
فعد ذلك غضباً من الله لقتل برفكيوس ، ومات نصر العبد الأسود في
أثناء السنة وكان مشرفاً على تنفيذ الإعدام ، فزعم المسيحيون في شماته
بأن برفكيوس هو الذي قضى عليه . وأن موته كان انتقاماً آخر . وطلب
بعد ذلك بقليل راهب يدعى إسحاق مقابلة القاضي . بحجة أنه يريد
الدخول في الإسلام فأذن له . وما كاد القاضي ينتهي من شرح مبادئ
الإسلام وأصوله . حتى انبرى له ذلك الذي جاء ليتسلم . وأخذ يصب
على الإسلام أقذر الشتائم والسباب . فلم يكن عجباً من القاضي - وقد
أخذته الدهشة - أن صفعه على قفاه ثم قال : أتعلم أن ديننا يأمر بقتل كل
من يجرؤ على أن يقول ما قلت ؟ . فأجاب الراهب : نعم أعلم ذلك .
فاحكم على بالقتل فإنني أتشوق إليه . لأنني أعلم أن الله يقول : « ما أسعد
الذين يضطهدون في سبيل الحق . إن هؤلاء مملكة السماء » . حزن القاضي
للرجل . وألح على الأمير أن يتجاهل ذنبه فلم يفلح . وقطع رأس إسحاق
فأصبح قديساً . وكان المسيحيون عامة ينسبون إليه كثيراً من الخوارق .
ويدعون أن هذه الخوارق لم تظهر منذ طفولته فحسب . بل ظهرت من
قبل أن يولد ..

ثم ظهر بعد ذلك سانشو (شانجه) . أحد حراس الأمير . وكان تلميذاً
ليولوجيوس فسب محمداً وفقد رأسه . وفي يوم الأحد التالي أسرع ستة
من الرهبان إلى مجلس القاضي وصاحوا : إن رأينا كراى أخوتنا القديسين

إسحاق وسانشو فاقتلنا . ثم أخذوا يسبون محمداً ويصرخون بالقاضى :
انتقم لسيدك محمد ، وعاملنا بكل ما لديك من وحشية ، فقطعت رؤوسهم .
وتقدم يوم القصاص من هؤلاء ثلاثة من القساوسة أو الرهبان أصيبوا بحمى
الانتحار فقدموا أعناقهم إلى الجلاد مغتبطين ، وهكذا قتل أحد عشر
رجلا فى أقل من شهرين فى صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) .

أخذت الدهشة جمهور المسيحيين من تعصب إخوانهم الطائش ، إذ لم
يكن يعرف عن الأسبانيين شىء من هذا التحمس حتى هذا الحين ، فقد
مستهم المسيحية مساً خفيفاً ، حتى إن الكثير منهم هرعوا إلى الإسلام
راغبين راضين ، فامترج الدينان وعاش الفريقان فى خلطة وصداقة
وحسن معاملة ، وأخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ويصدفون
عن آدابها ، فتعلموا العربية واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها كما يكتب
العرب أنفسهم ، وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال إذ يقول : « إن
النصارى يولعون بقصائد الشعر العربى وقصصه ، ويهجرون الكتاب
المقدس وآثار القديسين ، وما يوجب الحزن والأسى ، أن الجيل الناشئ
لا يعرف غير العربية ، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف ، وينشئ لها
الحزائن ، ويرأها جذيرة بالإعجاب ، فى حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب
مسيحى » ، ثم يقول : « لقد نسي النصارى لغتهم ، ومن العسير أن نجد
واحداً منهم فى كل ألف يكتب حرفاً لاتينياً كتابة سائغة ، وهم مع هذا
يستطيعون أن ينظموا شعراً عربياً رائعاً » . وفى الحق إن النصارى وحدوا
فى قصص العربية وشعرها متعة ألفتهم عما كتبه آباء الكنيسة ، وكانوا

يتدربون إلى الاستعراب ويقربون من العرب شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحوا أعظم مدنية وأتم صقلاً وأكثر تهاوياً بالفروق الدينية ، وكانوا يشكرون للعرب رفقهم بهم وحسن معاملتهم إياهم ، إلى أن صدمهم العداء الفجائي الذي أظهره إخوانهم المتعصبون . فحاولوا جهدهم صد تلك العاصفة الهوجاء قبل هبوبها . وأخذوا يصارحون إخوانهم بعقم ما يعملون ، ويجادلونهم ويذكرونهم بسماحة المسلمين ولينهم . وينبهونهم على ما جاء في الكتاب المقدس من الدعوة إلى الرفق والسلام . فإن من آياته : « لا يدخل الشتامون العتايون مملكة السماء » ويحدثونهم بأن المسلمين لا يأبهون لمن يقتل من المسيحيين لأنهم يرون أن دينهم لو كان حقاً لانتقم الله لشهادته .

كان هذا رأى جمهور المسيحيين الذين لم تسيطر عليهم وساوس التعصب . والذين لم يروا في الدنيا خيراً من أن يحسنوا إلى جيرانهم ، وأن يؤدوا صلواتهم في هدوء وسلام . وهؤلاء حاولوا جهد المستميت أن يردوا من جماع المتعصبين فلم يفلحوا . وخافوا مغبة الأمر . لأنهم أدركوا أن استمرار الطعن في الإسلام وما يتبعه من عقاب متوال ، سيؤدي حتماً إلى اضطهاد حقيقى للمسيحيين . ولكن يولوجيوس الذى نصب نفسه للرد على كل ما اعترضوا به عليه مستدلين بنصوص الكتاب المقدس ، وكتاب حياة القديسين - كان يتمنى هذه العاقبة . وكان أمثاله من المتعصبين لا يرغبون في شيء رغبتهم في انتشار اضطهاد المسلمين للتصاري وتأجيج ناره . غير أن سلطات الكنيسة أبت أن تسمح باستمرار روح العصيان من غير ردع . وكانت في ذلك متأثرة بالفريق المعتدل وبسماحة

الحكم العربي . فاجتمع الأساقفة في مجلس يرأسه أسقف إشبيلية . وأصدروا قراراً خطيراً . لم يوجهوا فيه نقداً لحوادث الاستشهاد السابقة : لأن الكنيسة دونت أسماء أصحابها في سجل الشهداء . ولكنهم أمروا أن يمنع كل شغب من هذا القبيل . وذاع هذا القرار بين الناس . وكان من أثره أن ألقى المتعصبون في غيابات السجون .

وفي هذا الحين . التقى يولوجيوس بفلورا مرة ثانية : ذلك أنها بينما كانت تصلى في الكنيسة بقنوت وخشية . إذ رأت إلى جانبها زميلة متعصبة : هي ماري أخت إسحاق الراهب . الذي لقي حتفه في طليعة الشهداء . فأخبرتها ماري بشدة زغبتها في اللحاق بأخيها بمملكة السماء . وعزمت فلورا أن ترافقها في هذه الرحلة . فذهبتا إلى القاضي . وبذلكا ما في وسعهما لإثارة غضبه بالإكثار من سب محمد ودينه . وكانتا فتاتين جميلتين . تدينان في ورع وإخلاص بالدين الذي يدعو إلى « السلام في الأرض وبذل الخير والمحبة للناس » وقد وقفنا أمام القاضي وشفاههما تقذف بالحقد والسباب ونعت دينه بأنه من عمل الشيطان . ولكنهما لم تثيرا غضب هذا القاضي الكريم بالسهولة التي ظنتاهما . فقد مجت نفسه هذا الجنون الحباطي . وكثيراً ما تصام حينما كان الناس يحاولون قذف أنفسهم إلى الموت . فأشفق على هاتين الفتاتين . وتمنى لو كانتا أقل طيشاً وجنوناً . وحاول أن يقنعهما بالرجوع عن رأيهما . أو أن يتجاهل إقداعهما ولكن الفتاتين أصرتا على التمسك بما زعمتا من بطولة وتضحية . فاضطر إلى إلقائهما في السجن .

وقد أثرت مدة السجن الطويلة في الفتاتين أشد تأثير ، فأوشكت أن تخفف من غلوائهما وأن ترحزحهما عن حماسهما القتالة ، لولا اتصالهما بيولوجيوس الذى قواههما وقضى عليهما .

ولقد كان عمله هذا أشق عمل في الحياة ، ذلك أنه كان يستحث إلى خشبة الجلاد المرأة التى أحبها وسكنت سويداء قلبه ، لأنه — على الرغم من كل شعور طبيعى أو إنسانى — راض نفسه على إثارة التعصب والنفخ في نار الاستشهاد ، وانغمس في هذا العمل المضنى المؤلم دون أن يهن أو يضعف ، لاعتقاده أنه السبيل الحق لنصرة الدين . حتى إنه كتب مقالا رائعا لفلورا يقنعها فيه بجلال الاستشهاد وجماله الروحى ، وما كانت فلورا في حاجة إلى إقناع أو تحريض . واستمر ليله ونهاره يقرأ ويكتب ، ليطرد من قلبه الشعور بالرحمة والحب اللذين كانا يهددان عزيمته بالتردد والخور ، ولكنها كانت أثبت من الجبال .

وثبتت فلورا ومارى على عزمهما فلم تتحولا عنه ، على الرغم مما بذله القاضى من جهود لإقناذهما ، فحكم عليهما بالموت ، وقبل أن يحكم عليهما قابل يولوجيوس فلورا آخر مرة ، وقد كتب عن هذا اللقاء فخوراً بهذا الفوز الروحى : « لقد صورتها ملكا كريماً ، وقد أحاطت بها هالة قدسية ، وأشع وجهها بالسعادة والفوز ، كأنما كانت تحس بمباهج جنات النعيم ، ولقد حاولت حينما سمعت الكلمات التى تحدت من فيها العذب ، أن أثبت إيمانها ، فأريتها التاج الذى أعد لالمشهادها . لقد عبدتها وجثوت أمام هذا الملك السماوى ، ثم رجوتها أن تذكرنى في صلواتها ، وحينما بعث

حديثها في نفسى قوة واعتزاماً عدت إلى سجنى الموحش .
 قتلت فلورا وصاحبها في الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ٨٥١ م
 (٢٣٧ هـ) وكتب يولوجيوس بعد موتها قصيدة تفيض بالسرور والبهجة ،
 تمجيداً لهذا الحادث الذى ظنه انتصاراً عظيماً للكنيسة .
 بعد ذلك بقليل أطلق سراح يولوجيوس وغيره من القساوسة ، وفي
 السنة التالية مات عبد الرحمن الأوسط وخلفه ابنه محمد ، وكان قاسياً
 جامد العاطفة موصوفاً بالأثرة ، مصادراً لوزرائه ، فأبغضه الناس عامة ،
 ونعوا عليه جشعه وفسولته ، ولم يحبه إلا الفقهاء لأنهم توسموا أنه سيبطش
 بالمسيحيين الذين سخرروا من المسلمين ومن دينهم . وكان هذا التوسم
 صادقاً ، فقد هدمت الكنائس ، واتخذت وسائل عنيفة للاضطهاد ،
 فأسلم كثير من النصارى بعد الأفواج التى دخلت فى الإسلام ،
 حينما قرر مجلس الأساقفة استنكاره حوادث الانتحار الذى دعى
 استشهاداً .

واغتنب يولوجيوس والفارو بهذه الشدة ، وزعما أنها دعت كثيراً من
 المسلمين إلى العودة إلى المسيحية ، وتغيرت تلك السياسة الحكيمة
 الشفيقة ، سياسة عبد الرحمن الأوسط ووزرائه ، التى كانت تغمض العين
 عن نزوة المسيحيين وطيشهم ، وتلتها سياسة قاسية عسوف ، فلم يكن
 عجباً أن يفر المسيحيون بأنفسهم إلى الإسلام .

ولكن كل هذا لم يطفىء جذوة المتعصين ، فقد زادها الاضطهاد
 اشتعالاً ، وامتد شررها إلى خارج قرطبة ، ورسمت طليطلة يولوجيوس

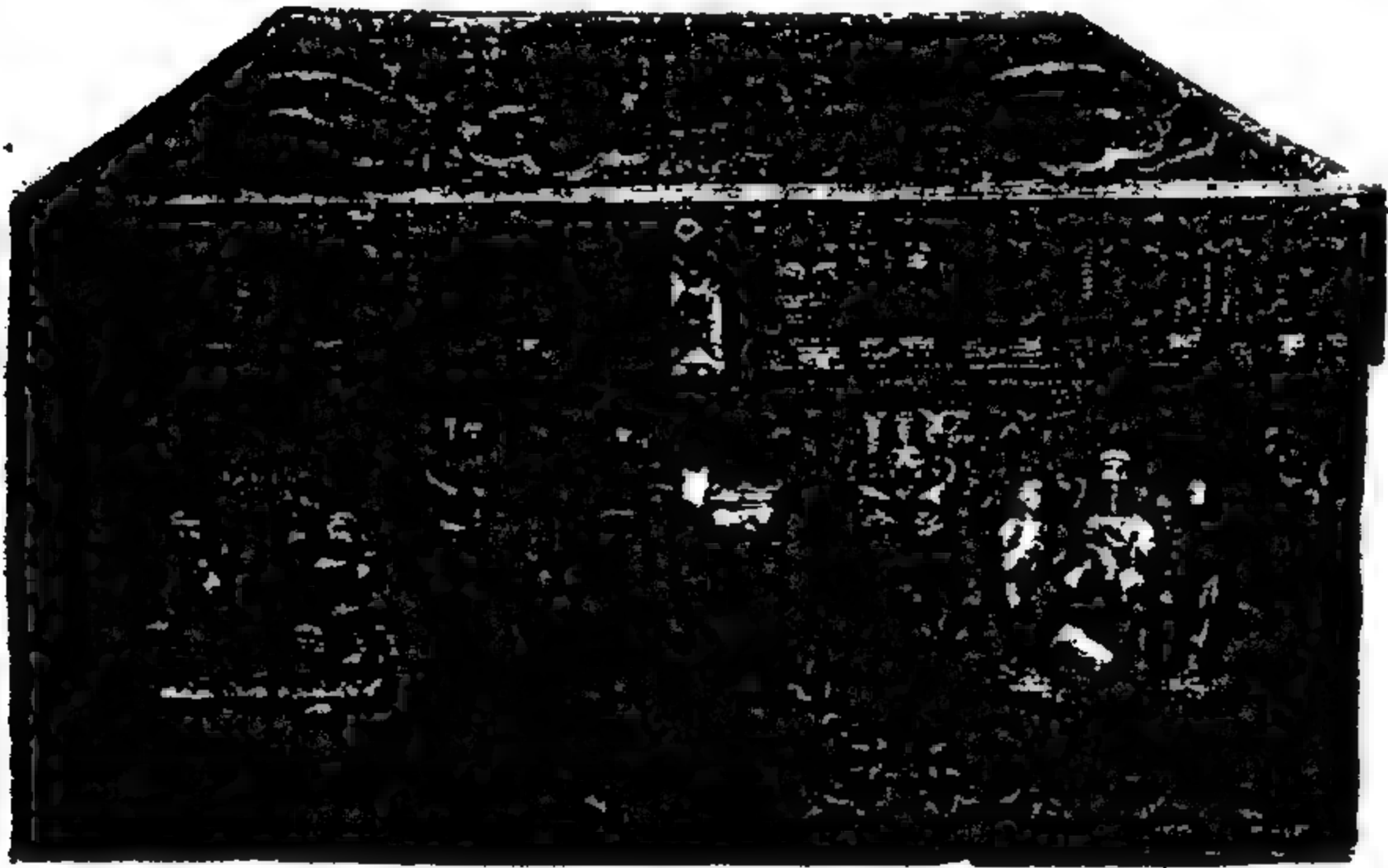
أسقفاً لها ، وحينما أبى الأمير الموافقة على هذا القرار ، ترك مكان الأسقفية خالياً حتى تسنح الفرصة ليولوجيوس بشغله .

وقدم على قرطبة راهبان فرنسيان ، ليستجديا شيئاً من آثار الشهداء ، ثم عادا بتحفية مملوءة بعظامهم لتعرض في باريس . ولكن عاصفة أخرى كانت موشكة الهبوب على المعتصمين ، فقد هجرت فتاة أخرى أبويها لتلحق بيولوجيوس . فأحضرت هي وأستاذها أمام القاضي ، وكانت تهمة يولوجيوس : إغواء الفتاة على الارتداد ، فعوقب بالجلد بالسياط ، ولم يكن هذا القسيس الضعيف الناحل ممن يتحملون السياط . . . إنه كان شديد الخشوع لله متقبلاً في سبيله كل تضحية ، راغباً أن يلتقى في نصرته دينه كل ضروب العذاب ، ولكنه لم يحتمل أن يسوطه المسلمون ، فصاح أمام القاضي : عجل بسيفك أيها القاضي ، وابعث بروحي إلى ربها . وإياك أن تظن أن ألتى يجسدى إلى سياطك . ثم أخذ يقذف الإسلام بسيل من الشتائم والسباب .

وهنا تخرج القاضي وأبى أن يحمل تبعة قتل زعيم مثله . فأمر بعرضه على مجلس الدولة ، وفي هذا المجلس أخذ بعض الأعضاء يحاجّته ويهدئ من ثورته . ويعجب كيف أن رجلاً عاقلاً مثقفاً مثله يقذف برأسه طواعية ، بين أنياب الموت . ثم قال له : لو فعل هذا رجل أبله أو مجنون ما أثار عجبى . ولكن صدوره من مثل يولوجيوس هو العجب كله ثم همس في أذنه قائلاً :

« أنصت إلى . . . إني أرجوك أن تخضع مرة للضرورة ، وأن ترجع

عما قلته أمام القاضي . قلها كلمة واحدة . تجد نفسك حراً طليقاً »
ولكن هذا النصيح جاء بعد أوانه . نعم إن يولوجيوس كان يؤثر تخريب
الشهداء وإثارتهم على أن يخط لهم المثال بنفسه . ولكنه رأى أنه لا يستطيع
الآن التقهقر موفور الكرامة . وأنه يجب أن يصابر ويثابر إلى النهاية .
وحينما أبى أن يتراجع . حكم بقتله . فمات شجاعاً مخلصاً . في الحادى
والعشرين من مارس سنة ٨٥٩ م (٢٤٤ هـ) . وحين فقد المسيحيون
زعيمهم . سرى اليأس إلى قلوبهم . ولم تعد نسمع لهم ضجيجاً مرة
أخرى .



الخليفة العظيم

قد يشعر القارئ بشيء من خيبة الأمل . حين يرى أننا قد بلغنا هذا القدر من الكتاب ولم نسرد له إلا قليلا من أعمال البطولة وأحاديث الحروب . وأنا بدل أن نقص عليه سير الأبطال ، طغى بنا القلم إلى الإسهاب في اضطراب حركات الأجناس ، وثورات الأديان . نعم إننا بدأنا بداءة تستثير العاطفة وتحبس الأنفاس ، بذكر طارق وجنده من البربر ، الذين لم تكن فتوحهم اللامعة من أساطير الخيال ، ولم تكن في صحة حوادثها أقل من تاريخ القرن التاسع عشر . وقفينا على ذلك بذكر الموقعة الكبرى الفاصلة ، موقعة طلوشة (تولوز) وهي حقا من الوقائع المؤثرة وإن أعوزها كثير من الإسهاب التاريخي . ثم ألمنا بموقعة العرب مع الإفرنج ، وبمعركة رونسيفال التي أبعد وصفها في الخيال ، وغشاها غمام من خطرات الأوهام ، ومر على هذه المعركة مائة عام ، فوصلنا إلى مقتل يولوجيوس ، وإلى خمود حركة الاستشهاد الدينية .

ولم نكن في غضون هذا القرن نقرأ في تاريخ الأندلس إلا صراعا عنيفا ، بين العشائر والمذاهب الدينية المختلفة ، التي تمثل الشعب الأسباني . ومهما يكن من شيء ، فإن أعمال البطولة نادرة دائما ، وكثيرا ما تكون من خلق الشعراء ، فإن عقولم الروحانية كثيرا ما تلبس بعض حوادث

الحرب العادية أثوابا من البطولة لا تدركها الأفهام ، في حين أن الصراع بين قبيل وآخر . أو مذهب وآخر . هو كل ما شهدته الدنيا منذ وجد الإنسان . فمن الحق إذاً ألا تنساق مع أنفسنا في اعتقاد أن تاريخ الحركات العظيمة خال من الروعة . لأنه خال مما يسحر النفس من أعمال البطولة الفردية . فقد كان لكثير من المغمورين من الرجال والنساء في غضون عصر الاستشهاد الديني . إخلاص وجهاد وبطولة تفوق أعمال الفرسان في ساحة القتال . لأنه من السهل أن تكون شجاعاً في معركة تغلي فيها الدماء . أما أن تبصر نذراً ذاك . وتحتمل السجن الطويل المدى . وتنتظر بشجاعة وجلد يوم الإعدام . وأنت ثابت القلب رابط الجأش - فشيء فوق طاقة كثير من الناس .

أخطأ شهداء المسيحيين في رأيهم جادة الصواب . وقذفوا بأرواحهم في غير مقذف . ولكن شجاعتهم مع هذا كانت جديرة بالإعجاب . كما كانت عقوبتهم جديرة بالرحمة .

كانت فلورا بطلة حقاً . كما لو وضحت بحياتها في سبيل تحقيق بالتضحية . وخلق يولوجيوس من طينة الأبطال . على الرغم من تعصبه وتزمته ، وكم في كل هذه الثورات السياسية والدينية التي مرت بنا من أعمال تجلى فيها الإخلاص والثبات والعزم والاحتمال . وهذه - وإن فرت من عين المؤرخ - لا تقل عن أعمال البطولة اللامعة في ميادين القتال .

إن أشق واجبات الإنسان لا يظهر غالباً إلا في صغار حوادث البطولة . وإن في المعارك والتحام الجيوش فرصاً لا تعد لتكوين الأبطال .

ويسهل جدا أن ترى البطولة واضحة في شخص . من أن تراها في شعب أو مدينة . وها نحن أولاء بصدد حياة رجل . يعد بين قليل ممن قربوا من المثل الأعلى في عظمة الملك وقوة السلطان .

إن الملك العظيم أثر الحاجة الملحة والخطب العظيم . فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسها . وازدحت أيامها بالكوارث . ورف غراب الدمار بجناحيه في الأفق — جاء الملك العظيم لينقذ قومه من بين براثن الخطر ، وليعيد إليهم الرفاهية والهدوء والأمن . وليحكم مملكة كتب لها أن تنهض بهمة ومساعيه إلى القوة والسعادة . بعد الضعف والانتكاس . وقد كانت الحاجة بالأندلس إلى مثل هذا الملك شديدة في طليعة القرن العاشر . فقد تلت ثورة المسيحية التي اشتعلت بقرطبة ثورات . وانتشر العصيان في ولايات الأندلس . وتناوب عرش المملكة أمراء لا خير فيهم . ولا غناء : عندهم^(١) . وقضى على السياسة النشيطة العاملة التي قام بها المنذر . الذي خلف أباه في سنة ٨٨٦ م (٢٧٣ هـ) بقتله في سنة ٨٨٨ م (٢٧٥ هـ) وجاء بعده أخوه عبدالله . الذي دبر مقتله ، فكان أضعف من أن يقف على قدميه في وجه الخطر الذي كاد يذهب بملكه ، لأنه كان متقلبا مضطربا ، وكان يناوب بين الشدة والاستخذاء فلم ينجح في كليهما ، وكان حقيرا قاسيا شريرا ، فأجمع الناس لأول مرة على كراهيته ونبذ طاعته ، ولم تمض ثلاث سنوات من حكمه ، حتى كان القسم الأعظم من الأندلس

(١) مات عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ هـ وخلفه ابنه محمد وكان له غزوات موفقة في شمال أسبانيا ، ثم مات في سنة ٢٧٣ هـ وخلفه ابنه المنذر ولم تطل مدته ، إذ أقام بالملك نحو سنتين ومات سنة ٢٧٥ هـ وولى بعده أخوه عبدالله بن محمد .

مستقلا : فإن الأحزاب المختلفة التقت على معارضته . واهتبل كل نبيل أوزعيم من العرب : أو البربر . أو الأسبان . فرصة ضعفه وسوء حكمه : وما أصبحت فيه الأندلس من الفوضى الطخياء الشاملة - فاختص نفسه بقسم من المملكة . وقام يتحدى الأمير من وراء حصونه .

وكان عظماء العرب من أبناء الفاتحين قليل العدد . فلم يمنعهم ضعفهم . ولم تقعد بهم قوتهم . عن أن يقبلوا للأمير ظهر الحزن . فاستولوا على بعض إمارات منها إشبيلية . التي أصبحت منافساً مخيفاً لقرطبة . أما في المدائن الأخرى وحيث كان العرب أضعف من أن يقاوموا الأمير . فإنهم خضعوا له خضوعاً صورياً . واستقل حاكما لورقة . وسرقسطة . استقلالاً حقيقياً . ولم يبق للأمير من يستنصر به إلا الجنود المرتزقة الذين أخضعوا له أهل قرطبة إخضاعاً ظاهرياً . بحيث إذا جاوز المرء قرطبة لم يجد عربياً واحداً يرجى منه أن ينصر الأمير أو يدافع عن الدولة الأموية .

وكان البربر أكثر عدداً من العرب . وأشبه بهم في السخط والعصيان . فخلعوا ربة الطاعة للأمير . وعادوا إلى نظام القبائل . واستقلوا بالولايات الغربية مثل : استرامادور . وجنوب البرتغال . واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في الأندلس نفسها كمدينة جيان . وكانت أسرة ذى النون البربرية تتألف من أبيهم موسى وهو شرير كبير ولص بغيض . ثم من أولاده الثلاثة الذين أشبهوه في قوته وقسوته^(١) فدهمت هذه الأسرة الأندلس كلها بالسيف والنار . وعاثت بالفساد في جميع نواحيها تحرق وتنهب . وتقتل أينما سارت .

(١) هم يحيى وفتح ومطارف .

وكان الأسبان المسلمون الذين صقلتهم مدنية العرب بغض الصقل :
أقل وحشية من البربر وإن لم يقلوا عنهم في بغض الحكومة ، فاستولوا على
ولاية الجرف في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة ، وملكوا
عدداً عديداً من المدن والولايات المستقلة بالأندلس ، وفي الحق إن معظم
المدن العظيمة كانت في ثورة مقنعة أو سافرة : فقد اتجد حكام العرب ،
وزعماء البربر والأسبان المسلمين ، على معارضة الأمير والاستهانة بأمره ،
وكان ابن حفصون أكثر هؤلاء قوة وأشد مراساً ، وهو مسيحي (١) أثار
سكان الجبال بغرناطة ، وأقام في حصانة معقله ببشر « بوباسترو »
يحكم ويشرع للبلاد حوله ، وطالما جرد الأمير عليه جيوشاً فأبت بالخذلان
والهزيمة ، ثم التجأ الأمير آخر الأمر إلى مصالحته وملايته ، ولكن
ابن حفصون كان في هذه الناحية أوسع منه حيلة وأشد مكرأ (٢) ، وكانت
مرسية مستقلة يحكمها أمير مسلم ، حكماً رفيقاً حازماً ، فأحبته رعيته ، ولم
يفغل مع ولوعه بالشعر والأدب عن تحصين مملكته بجيش عظيم ، عدته
خمسة آلاف فارس ، وكانت طليطلة كعادتها ثائرة صاخبة ، ولم يعق
نصارى الشمال عن الاستيلاء عليها واسترداد ملكهم المسلوب ، إلا ما شجر
بينهم من خلاف وانقسام .

(١) يقال إنه كان مسلماً وارتد إلى المسيحية حوالي سنة ٩٠٠ م وسمى نفسه صويل .
(٢) في أخبار مجموعة : وهلبكت الجبايات باشتداد شوكة الثوار بكل ناحية ،
وانبسطت خيل ابن حفصون على مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها دافع ، وبلغ الأمر
أن تقدم فارس فاقتم قطرة قرطبة ودفع رمحاً فأصاب الصورة التي على القنطرة ،
ونعذى هذا البلاء خمسا وعشرين سنة .

هكذا كانت حال الأندلس ، وهذا ما آل إليه أمرها . فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبثة الأواصر ، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضباع منها بالولايات التي تكوّن دولة قوية ، وصارت أعجز من أن تقف في وجه فاتح قوى عزوم .

وكانت تلتهم أحياناً أشعة من النور في ظلام هذه الفوضى القائمة . فقد ذكرنا آنفاً : أن حاكم مرسية كان أديباً مثقفاً . كما كان يشتهر حاكم قسطلونة بإغداقه على الشعراء ورجال الفنون . وكان يعيش في قصر فوق أعمدة من الرخام . غطيت حيطانه بزخارف من المرمر والذهب . واشتمل على كل ما تشتهى النفس من النعيم .

أما ابن حجاج حاكم إشبيلية : فانه اضطر الأمير إلى مصالحته ومصادقته وحمل أعباء الحكم كريماً نبيلاً . وأخذ رعيته بالرفق . فرفرف فوقها علم السلام والطمأنينة . وعاقب المجرمين بعدل وصرامة . وأقام مراسم الملك في جلال وعظمة ، وبلغ حرسه خمسمائة فارس ، وكان رداؤه الملكي من الحرير المنسوج بخيوط الذهب والفضة . كتب عليه اسمه وألقابه بالذهب الخالص . وذاعت شهرته فراسله الملوك من وراء البحر وبعثوا إليه بهداياهم . وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة ، وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد ، وكانت جاريته « قمر » البغدادية شاعرة رائعة الحسن . بديعة الصوت : فصيحة اللسان ، مرهفة الحس ، وهي التي تقول فيه :

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود إبراهيم
أنى حلت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم

وقد اجتذب إلى قصره الشعراء . فأمه جميعهم . حتى شعراء قرطبة الذين وثقوا من كرمه وتكريمه . وأعرض مرة عن شاعر وأنبه . لأنه أراد أن يسره بهجاء منافسيه من أشرف قرطبة . وكان من قوله له : لقد كذبتك نفسك يا هذا إن ظننت أن رجلاً مثلي يهش لسماع هذا الهجاء اللئيم .

ولكن كل هذه الأشعة اللامعة من الحياة الأدبية والثقافية . لم تخفف إلا قليلاً من اضطراب الفوضى العامة . التي شملت ربوع الأندلس . وصيرتها فريسة للكوارث التي منها ضعف حكومة قرطبة . وخروج كثير من حكام الأقاليم عن الطاعة . وانتشار عصابات اللصوص وقطاع الطرق بالبلاد . حتى صارت المملكة إلى حال تستترف الدمع من الشئون . وأصبحت قرطبة نفسها — وقد توالى عليها غارات ابن حفصون ورجاء عصابته — في حزن مقعد مقيم . وكانت — وإن لم تحاصر بالفعل — تقاسى ما هو شر من الغزو وأشد من الحصار . ويقول مؤرخو العرب :

« كانت حال قرطبة تشبه حال ثغر تعرض لهجمات الأعداء : فكثيراً ما فرغ سكانها من نومهم في جوف الليل لصياح الزراع على شاطئ النهر . وقد وثب عليهم لصوص الطرق يغمدون سيوفهم في رقابهم » .

وكتب بعض من حضر هذا العهد يقول : « لقد أصيبت المملكة بانحلال شامل . فقد تلت المصائب المضائب فهي لا تنقطع . واستمر النهب والسرقات . وجرت زوجاتنا وأولادنا قسراً إلى الأسر والعبودية » .

وعمت الشكاية من تهاون الأمير وضعفه وضعته . وتذمر الجنود لمنع إعطياتهم . وضنت الولايات بإرسال حاصلاتها . وخلت خزائن الدولة

من المال فأصبحت قفراً ياباً . وكل ما استطاع الأمير أن يقترضه من المال رشا به بعض العرب الذين كانوا يراءونه ويصطنعون له الإخلاص ، وأظهر خلاء الأسواق من الأقوات ما أصاب التجارة من الضرر الفادح والبنوار . وأصبح ثمن الخبز فوق متناول الخيال . وعاد الناس — وقد ملكهم اليأس — لا يفكرون إلا في يومهم ؟ أما الفقهاء والمتزمتون : فقد عدوا ذلك من سخط السماء . وأن ابن حفصون لم يكن إلا آلة لنقمة الله وغضبه . ثم أخذوا ينشرون بين الناس تكهينات مفعجة محزنة . وكم صاحوا يقولون : « ويل لك يا قرطبة . . . ويل لك يا بؤرة الفساد ونذير الزوال . . . يا موطن الفجائع والاضمحلال . لقد أصبحت بلا صديق أو حليف . ستحل مصيبتك حينما يصل إلى أبوابك القائد الكبير الأنف . الدميم اتوجه . الذي يحرسه المسلمون من أمامه والكافرون من خلفه . فإن في وصول ابن حفصون إلى أسوارك القضاء المبرم والقضاء المحتوم ! ! »

وحينما ازدادت الأمور حلكة وظلاماً . سطع شعاع من الأمل لنبائسين من سكان قرطبة . فإن الأمير عبدالله الذي تملكه اليأس كما تملك رعيته . حاول أول مرة أن يعزم على عمل سياسى جريء . وأن يخرج من المأزق الذى وضع فيه نفسه . فنهض بما عزم^(١) على الرغم من تشييط أتباعه له وكثرة عدد الأعداء المحيطين به من كل جانب . ولكنه بعد قليل عمل خيراً من كل هذا . عمل ما كان يجب أن يعمل لأمتة من زمن بعيد . . . ذلك أنه مات في الخامس عشر من أكتوبر سنة ٩١٢ م

(١) حارب ابن حفصون في سنة ٨٩١ م (٥٢٧٨هـ) بالقرب من قرطبة وانتصر عليه .

(٣٠٠ هـ) بعد أن بلغ الثامنة والستين ، وبعد أن قضى في الحكم أربعة وعشرين عاماً كلها حزن وشقاء ، فقد رأى بعينه من تدهور سلطان الأمويين - وكان تدهوراً سريعاً مفاجئاً - ما يصعب علاجه على المصلحين ، ولكن الله قدر لحكم خليفته أن يرى أيضاً لهذا السلطان بعثاً سريعاً مفاجئاً . كاملاً شاملاً .

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر حفيداً لعبد الله . وقد ولى الحكم في الحادية والعشرين من عمره . وكان يظن أن يزاحمه عمه وأقاربه على الإمارة وهو في هذه السن . وفي هذا الوقت العصيب . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، واستقيلت الأمة ولايته بصيحات الاستبشار والرضا من كل ناحية .

وكان الخليفة الجديد محبوباً من الشعب ورجال القصر . تضافرت وسامة طلعه . وحسن سمته . وكرم أخلاقه . وقوة إدراكه . على أن تجعل منه خليفة تعشقه الجماهير . وأحسن القرطبيون - وهم البقية الباقية من رعيته - بتجدد الأمل فيهم وهم يرقبون بواكير أعماله .

ولم يحاول عبد الرحمن إخفاء مراميه ومآربه . فقد هجر سياسة جده إلى غير عودة . وكان تناوحها بين الضعف والقوة سبباً في دمار البلاد ، وأعلن مكانها في صراحة : أنه لن يسمح بأي غضبان في أي جزء من أجزاء المملكة الأموية . ثم دعا الساخطين ورؤساء القبائل إلى الخضوع لسلطانه بعد أن أرسلها كلمة صريحة بأنه لن يترك جزءاً من مملكته يتحكم فيه العصاة ، وكان في برنامج من الجراءة ما ينعش آمال أكثر المتفائلين ،

وإن خاف كثير منهم من أن هذا البرنامج قد يؤلب العصاة في جميع أنحاء المملكة ، ويجمعهم عصبة واحدة لسحق هذا الأمير الشاب العنيد ، ولكن عبد الرحمن كان يعرف أخلاق أهل مملكته . فلم يكن في جرأته عابثاً أو منهوياً .

لقد مضى جيل منذ أن رفع ابن حفصون وأشياعه علم الثورة . واعتقد أكثر الناس أن فيما نالهم من أوزارها ما يكفي . وفوق الذي يكفي . وبردت تلك النار التي كانت تتأجج في قلوب الأسبان المسلمين والمسيحيين ، وتدفعهم إلى الكفاح في سبيل الاستقلال . وأمثال هذه البدوات لن تعيش إلا إذا بلغت غاية الفوز عند أول اشتعالها . لقد كان الزعماء الآن بين ملحد لا يعود . وشيخ لا يرجى . فهدأت الروح الثائرة في نفوس أتباعهم ، وأخذ الناس يسائلون أنفسهم عما حصوا عليه من جراء ثوراتهم ؟ إنهم لم يطهروا الأندلس من الكفار . ولكنهم على النقيض أسلموها إلى أكثر من الكفار شراً : إلى زعماء اللصوص والمجرمين المخاطرين . فقد منيت المملكة في جميع جهاتها بعصابات من اللصوص أتلفت الزرع والكروم ، وتركت الأراضي وراءها قفراً ياباً . وأحس الناس أن كل شيء كيفما كان ، خير من تحكم هذه العصابات . وأن الأمير لن ينقل الأمور إلى أسوأ مما هي عليه . لذلك اتجهوا إليه ينظرون إلى ما يستطيع عمله لإصلاح هذه الحال .

وكان من أثر كل هذا . أن الخليفة حينما هب يقود جيوشه لمحاربة الولايات الخارجة عليه . رأى أن أكثرها أقرب إلى الخضوع من العصيان ، وزاد في حماسة جنوده أن رثوا أميرهم الشاب الشجاع في مقدمتهم ، وهو شيء لم يعهدوه من عبد الله جده . فساروا ورائه معجبين مستميتين . وأخذت المدن بالأندلس تفتح للأمير أبوابها واحدة إثر واحدة : فسلمت الولايات التي في جنوب قرطبة أولا . ثم ألفت إشبيلية بقيادها . وأجبر البربر في الغرب على الطاعة . وأسرع أمير الجرف بإرسال الإتاوة . ثم تقدم الأمير لقتال النصاري بمقاطعة رية (ريو) حيث يسكن منذ ثلاثين عاماً رعايا ابن حفصون الشجعان في معقلهم الجبلية . وكان عبد الرحمن أعرف الناس بأن مثل هذه المعقل لن ينال بظفر سريع . لذلك خطا خطوات متتدة . حتى أخضعها لسلطانه . فسلم إليه معقل بعد معقل . بعد ما رأى أعداؤه ما بهرهم من عدله وشرفه . وأنه قد حافظ على معاهدته مع النصاري أكرم بحافظة . وأنه أظهر غاية الحلم والصفح لكل من سلموا إليه . ولكن ابن حفصون بقي في معقله متحدياً مغالباً كعادته . غير أنه كان قد شاخ فأدركته المنية . وأصبح استيلاء الخليفة على حصن « بيشتر » أمراً هيناً موكولاً إلى الزمان .

وحينما وقف الأمير على مشارف هذا الحصن المنيع بعد استيلائه عليه . ونظر من بعده الشاهق إلى القمم الشديدة الانحدار التي تحيط به . ثار وجدانه . وغمرته عواطفه . فسجد لله شكراً على هذا الفتح المبين . وبقى مدة إقامته بالحصن صائماً . وشمل أعداءه بالصفح والغفران .

ثم ألقت مرسية بالقياد . وخضعت للخليفة . أما طليطلة فبقيت على تحديها وعصيانها . ورفضت في كبرياء وغرور ما عرضه عليها عبد الرحمن من الهدنة . وانتظرت الحصار بصبر وجلد . ولم يخطر ببال أهل المدينة أنهم مُنوا بأمر يخالف طابعه من عرفوهم من القواد الضعفاء . الذين طالما أبوا بالعار والخيبة أمام حصونها المنيعه .

هجم الخليفة على طليطلة . ووقف بجيشه لحصارها ثم أراد أن يفهم من لم يكن يفهم أن هذا الحصار لم يكن محض تهديد . فأمر أن تبنى مدينة صغيرة فوق الجبل المقابل لها سماها . « الفتح » وربض ينتظر عواقب الحصار . فلما اشتد الجوع بالسكان سلمت المدينة ودخلها عبد الرحمن ، فكانت آخر مدينة دانت له بالطاعة في المملكة التي ورثها من سميح عبد الرحمن الداخل . والتي بلغت الآن في سنة ٩٣٠ م (٣١٨ هـ) غاية امتدادها . وقد اقتضته إعادة ما ضيعه أسلافه من المملكة ثمانية عشر عاما . غير أنه فاز بما أراد وأتمه . وعادت سلطته قوية الدعائم بين العرب والبربر والأسبان والمسلمين والمسلمين . ومن هذا الحين أبى أن ينخص أى حزب من رعيته بميزة أو يرفعه فوق غيره . وشدد الضغط على زعماء العرب . فابتهج الأسبان بإذلالهم ، وأصبح الملك اليوم خالصاً للخليفة وحده . فحكم مستقل الرأي مستبداً . وقابلت الأمة استبداده بسرور وغبطة بعد عدة سنوات قضتها في الاضطراب والفوضى ، وبعد أن استراح الناس من العصابات التي كانت تغير على زروعهم وكرومهم .

وإذا كان الخليفة مستبد السلطان ، فإنه لم يتجاوز الحد في استبداده
الذى أعاد الناس إلى حياة الأمن والثروة ، وأطلق عقابهم لينالوا من الغنى
ورغد العيش ما يشتهون ، على النحو الذى يشتهون .



الحرب المقدسة

كان مذهب عبد الرحمن الناصر في نظام الحكم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة ، وأن يختار لتصرف أمور الدولة رجالاً من صنائعه ، الذين رفعهم بعد ضعة ، وأعزهم بعد مهانة^(١) ، وحرص قبل كل شيء على أن يجرد زعماء العرب الذين لعبوا بالأمراء قبله من كل قوة ، فكان رؤساء دولته من المحدثين في النعمة . الذين لم يرفعهم نسب ولم تنهض بهم في المجد سابقة ، فتوثقت عراهم بسيدهم . كما يتشبث الضعيف بالقوى . إذ لولاه لداستهم الأسر العربية بالأقدام . ثم إنه حاط ملكه بجيش عظيم جرار ، انتقى قواده من خيار رجال حرسه من الصقالبة ، وأضاف إليهم رجالاً من الفرنجة ، وغاليسية . ولومبارديا . وغير هؤلاء من أجناس شتى ، وكان تجار الأغر يق والبندقية يجلبون هؤلاء الأرقاء ويبيعونهم صفاراً للخليفة ، ليهذبهم وينشئهم في الإسلام ، وكثير منهم من أصبح كامل الثقافة شديد الإخلاص لمولاه ، وهم يشبهون من نواح كثيرة مماليك خلفاء صلاح الدين بمصر ، الذين اختاروهم لحراستهم ، والذين بلغوا في النهاية ذروة المجد ، فكانوا سلاطين لمصر والشام ، نعم يشبهونهم فيما كان لهم من

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة : وأغاظ الأحرار بأقامة الأندال كجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه .

عبيد ينصرونهم . وفي أن الخليفة أقطعهم ضياعاً يقوم على زراعتها الحول والعبيد . وفي أنهم كانوا دائماً يستجيبون لدعوة سيدهم إذا دعاهم للحرب ، فيقبلون مسرعين على رأس أتباعهم وعبيدهم . ثم يشبهونهم في أنهم وصلوا بعد حين من الدهر إلى قمة السيطرة والنفوذ . فاغتنموا فرصة ذبول الدولة وتدهورها بعد موت عبد الرحمن الناصر وخليفته . وأسسوا لأنفسهم دولة . فكان لهم بذلك سهم بين السهام . ويد بين الأيدي التي قضت على حكم الإسلام بالأندلس .

استطاع الأمير مستعيناً بالصقالبة أن يطهر البلاد من عصابات السوء . وأن يسلم منها روح التمرد . ثم أن يشعل حرباً ضروساً على نصارى الشمال ويعود مظفراً منصوراً . فقد كانت مملكة الإسلام في أيامه مهددة بخطر أشد من خطر الفوضى والثورات . ذلك أنها كانت محصورة بين مملكتين متحديتين شديديتي المراس . تتطلب كلتاها شدة اليقظة والحذر : ففي الجنوب ربضت مملكة الفاطميين في شمال إفريقية متمنة متوثبة . وكان من الطبيعي أن يذكر حكام الساحل البربري أن العرب قبلهم جعلوا من إفريقية معبراً إلى أسبانيا . كما أن السياسة المتوارثة بين حكام البربر كانت توسوس إليهم دائماً أن يضموا — إذا استطاعوا — ولايات أسبانيا المشرقة إلى إفريقية .

ورأى الخليفة أنه لا يستطيع التخلص من الفاطميين أو تجنب شرورهم إلا بـث القن وإشعال نار الخلاف بين قبائل البربر ، فنجع في ذلك أيما نجاح ، وأخضع بدهائه قسماً كبيراً من ساحل البربر ، وتملك قلعة سبتة

الحصينة . ثم إنه خصص مقداراً كبيراً من دخل الدولة ببناء أسطول عظيم . نازع به الفاطميين سلطتهم في بحر الروم .

أما في الناحية المقابلة نحو الشمال : فكان على المسلمين أن يقابلوا عدواً هو أشد من الفاطميين كيداً . وأبعد خطراً . فقد نبئت نصارى أستورياس وتأثلت من حفة من الرجال زاد عددهم في هذه الأيام واشتد ساعدتهم . فاعتزوا بالكثرة والقوة . ونما في نفوسهم حافز قوي إلى استرجاع وطنهم المسلوب . وقصة ذلك : أنهم حينما اصطدموا بالمسلمين عند الفتح . فقدوا صوابهم . وطارت نفوسهم شعاعاً . وتمزقوا شذراً من مذعورين من هؤلاء الشياطين . فالتجئوا إلى جبال أستورياس وأقاموا بها . فكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التي نزلوها شفيح ذاد المسلمين عنهم . ولم يجتمع حول زعيمهم « بلاي » في كهف « دونجا » إلا ثلاثون رجلاً وعشر نساء . فلم ير العرب أن مثل هذه الطغمة القليلة من الفارين تستحق المطاردة والاقتناص ، فتركوهم وشأنهم يقيمون في مغاور هذا الكهف الذي لا ينال إلا من شعب ضيق لا يرقى إليه إلا بسبعين درجة . ودارت الأيام وتعاقبت الأعوام . وهم يتكاثرون ويتناسلون ، حتى استطاعوا بعد حين أن يؤلفوا في معقلهم الحصين جيشاً تاماً .

ووصف ابن حبان المؤرخ نشأة هذه الدولة المسيحية في حزن وأسى فقال :

« وفي ولاية عنيسة بن سحيم الكلبي^(١) ، قام بحليقية علع خيث

(١) ولي الأندلس في صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢١م) واستشهد في شعبان

سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥م) .

يدعى : بلاى فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه . ومن وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى من أرضهم ؛ والحماية عن حريمهم ، وكانوا لا يطمعون فى ذلك . وقيل : إنه لم يبق بأرض جليقية قرية لم تفتح إلا الصخرة التى لاذ بها هذا العليج . ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشرين سنة . وما لهم عيش إلا من عسل النحل فى جباح (خلايا) معهم فى خروق الصخرة . وما زالوا ممتنعين إلى أن أعيا المسلمين أمرهم ، واحتقروهم . وقالوا : ثلاثون عليجاً ما عسى أن يجيء منهم ؟ . فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به . ويقول مؤرخ آخر : كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفثوا ، دفعة واحدة ، شرارة هذه الجذوة التى قدر لها أن تلتهم دولة الإسلام بالأندلس !

تقوت هذه العصاة الفارة شيئاً فشيئاً . وزاد فى بأسها وفود النصارى إليها من أقطار الشمال ، وحينما شعرت بالقوة ، واطمأنت إلى الثقة بنفسها ، خرج رجالها من معقلهم وأخذوا يناوشون البربر النازلين بحدود الأندلس ، حتى اضطر العرب فى النهاية إلى أن يزحفوا على كهف هؤلاء المغيرين البسلاء ليستأصلوهم . ولكنهم لم يظفروا بطائل ، فقد هزمهم المسيحيون فى هذه المحاولة وغنموا منهم مغانم كثيرة . وفى سنة ٧٥١ م (١٣٤ هـ) تزوج ألفونسو (الأذفونش) صاحب كانتابريه (التى لم يتفد إليها العرب) بابتة بلاى ، فوحد هذا الزواج كلمة المسيحية ، وهب ألفونسو فأثار الولايات الشمالية على العرب ، وشن يجنود من أهل غاليسية على المسلمين

حروبا متعاقبة دفعتهم إلى التقهقر نحو الجنوب ، واسترد من أيديهم مدن
 براجا . وبورتو (مدينة البرتغال) . واستروجة . وليون . وطمنكة ،
 وزمورة . وليدسمة . وسلادانة . وشقوبية . وآبله . وأوسما . وميراندة .
 وامتد الحد المسيحي إلى الجبال الكبرى . وأصبحت حصون الحد
 الإسلامي مدن : قلمرية . وقورية . وتالافيرة . وطيطة . ووادي
 الحجارة . وتُدلة (تيوديلة) . وبنبلونة .

والحقيقة أن ألفونسو استرد ولايات قشتالة . وليون . وأستورياس ،
 وغاليسية . غير أن هذه العصاة بعد أن ملكت ما ملكت . خلت إلى
 أنفسها فرأت أيديها صفراً من المال . ورأت أنه لم يكن لها من العبيد
 والحوار من يقومون ببناء القلاع . واستنبت الأرض في تلك البقاع الواسعة
 التي استرجعتها . فخطر ذا أن تركها للعرب . على أن تكون حدوداً
 بينهما غير ثابتة . وارتدت إلى المقاطعات حول خليج غسقونية حتى
 يحين الوقت الذي تسوَّغَ لها فيه كثرة العدد والمال احتلال بقاع أوسع .

وجاء القرن التاسع وأحس المسيحيون بما يحفزهم إلى استعادة البقاع
 التي تغلبوا عليها من قبل . فانتشروا بمقاطعة ليون . وابتنوا لصد أعدائهم
 قلاع : زمورة . وسان استيبان . وأوسما . وسيمنقاس . ثم تقدموا فضيقوا
 فسحة الحدود بينهم وبين العرب . حتى لقد كانت تتلاصق جيوش
 الفريقين في بعض المواطن . وحاول العرب في بداية القرن العاشر أشد
 محاولة أن يستردوا أراضيهم بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ،
 (٨)

ولكن المسيحيين هزموهم شر هزيمة . وتواثبوا على حدودهم بعد أن استعانوا برجال من طليطلة . وبعد أن شد أزرهم سانشو (شانجة) ملك نافار . (بنارة) الذي أصبح موثلاً المسيحية في الشمال .

وكانت حروب المسيحيين نقمة وسوط عذاب على أعدائهم . فقد كانوا جفأة أمتين . وكانت أخلاقهم على اتساق مع أمتهم . وما كان يتوقع من هؤلاء الجفأة المتوحشين إلا التعصب والقسوة . فانهم لم يؤمنوا مستجيراً . ولم يتركوا فاراً . ولم يبقوا على جريح . وهذا يذكرنا : والحزن ملء صدورنا . بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق . فكثيراً ما عفووا عن أعدائهم نبلاء متكرمين . بينما نرى اليوم رجال ليون وقشتالة العتاة يذبحون جميع رجال الحاميات . ويستأصلون مدناً مليئة بالقطان . حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم .

لم تمر سنتان من حكم عبد الرحمن الناصر . حتى زحف أردون الثالث صاحب ليون بجيوشه على العرب . وأثار حرباً شعواء بلغ بها أسوار ماردة . واشتد هلع أهل بطليوس لمقدمه . فأسرعوا إلى مصالحته بالمال لاتقاء شره . واشتد الخطر على المسلمين لقرب هاتين المدينتين من قرطبة . ولم يكن يحول بين جيوش أردون وبينها إلا شارات مورينا الشاهقة . فكان الموقف شديد الخرج على المسلمين . ولو أن الأمير كان جباناً لتلمس لنفسه الأعذار في نكوضه عن القتال . لأن ماردة لم تكن تعترف بعد بسلطانه . فأى شأن له إذا وثب النصارى على ولايات خارجة عليه ! ؟ .

ولكن شيئاً من هذا لم يكن من نحيضة عبد الرحمن ولا من خلقه ، فوثب في الحال وجمع جموعه وأرسل بعثاً إلى الشمال ، فشن غارات قاسية على مملكة المسيحيين ، وأرسل في السنة التالية سنة ٩١٧ م (٣٠٥ هـ) حملة أخرى لم يكن لها من التوفيق ما كان للأولى . فهزمها أردون أمام أسوار سان استيان . واستخلص من المسلمين كثيراً من الغنائم .

وحينما رأى القائد العربي المغوار^(١) طلائع الهزيمة ، قذف بنفسه بين الأعداء ومات وسيفه في يده . وكان من جبن ملك ليون ووحشيته . أن أمر بحز رأس هذا الجندى الشجاع وتسميره بباب القلعة إلى جانب رأس خنزير ! ثم أطفئ الانتصار جيوش ليون ونافار . فعاثوا في السنة التالية فيما حول طليطلة . وتغلب عليهم جنود قرطبة في أثناء ذلك في موقعتين . وفي هذا الحين عزم عبد الرحمن على أن يستكمل عدته . لأنه رأى أن التغلب على المسيحيين يتطلب جهداً أعظم وأمضى . فقاد في سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) الجيوش بنفسه . ومضى مسرعاً متسلحاً بمهارته وحسن رأيه ، فدهم أوسيا وسوى قلعتها بالأرض . ودمر سان استيان بعد أن فرت حاميتها . ثم اتجه إلى نافار ونازل سانشو (شانجة) فقرأ أمامه من الميدان مرتين . ثم جاءت النجدة من ليون إلى جيوش نافار . وكان المسيحيون في موقع طبيعي يمكنهم من العرب . ولكن الأمير نازلم في وادي القصب واستأصل جموعهم . وأثارت منعة حدود المسيحيين غضب المسلمين فوضعوا السيف والنار في حامية ميوز . ومن الحق أن نقرر آسفين أن العرب

(١) هو ابن أبي عبدة .

فى بعض هذه الوقائع حاكوا أعداءهم فى أعمال القسوة والعنف ، وبخاصة حينما كانت تضم جيوشهم عدداً من الإفريقيين الذين اشتهروا بالوحشية والشراسة ، ولكن عود المسيحيين كان صلبا لا يلين ، فلم تستطع الهزائم أن تفل من عزمهم ، أو تكسر من شوكتهم . ولن يفوق شىء عزم المسيحيين المغلوبين ، فقد كانوا على توحشهم يمتازون بشجاعة الرجال ، فكم حطمت جيوشهم مرة بعد مرة وهم ينهضون فى إثر كل هزيمة بقلب ثابت جديد . لذلك لم يمحض على كارثتهم فى موقعة وادى القصب إلا سنة واحدة ، حتى وثب أردون الذى كان يمثل روح المقاومة المسيحية ، وشن بجيوشه حرباً ضروسا على الحدود .

وفى سنة ٩٢٣ م (١٣١١ هـ) زحف سانشو ملك نافار واستحوذ على بعض القلاع القوية ، فأثار ذلك همّة الأمير ، فقاد جيوشه مرة أخرى نحو الشمال ، وقد تملكه فى هذه المرة عزم عابس . وأدركه غضب الأسود ديس عرينها . فانتهب وأحرق كل ما مر به من المدن والقرى ، وملا الرعب منه النفوس فأخذ الناس يجلون عن المدن كلما شعروا باقترابه ، وفتحت له قصبة بنبلونة أبوابها بعد أن فر أهلها ، ومزق جيش سانشو فتراجع منهزماً مدحوراً ، وقام المسلمون إلى كنيسة القصبة فهدموها ودمروا كثيراً من دورها ، وأصبحت نافار بمن فيها وما فيها تحت قدمى الأمير .

وفى هذا الوقت مات أردون ملك ليون ، وثار الفتنة بين أبنائه واشتعلت بينهم حرب أهلية أعطت الأمير متنفساً وفسحة للنظر فى شئون أخرى .

ولما عاد عبد الرحمن الناصر من هذه النصره ، اتخذ لنفسه لقباً جديداً
فقد كان حكام الأندلس قبله يلقبون بالأمرأء ، ولم يدع أحد من حكام
بنى أمية حقاً في الخلافة - على الرغم من إنكارهم خلافة العباسيين الذين
ثلوا عرشهم بالمشرق - لأنهم رأوا أن لقب الخليفة لا يستحقه إلا من
يحكم الحرمين . فقتلوا على كره منهم بأن يتركوا للعباسيين لقبهم غير
منازعين فيه . غير أنه حينما شاع في الأندلس أن الخلفاء العباسيين أصبحوا
وليس لهم شيء من النفوذ في خارج حدود بغداد ، وأنهم يعيشون بها
عيشة السجناء لتشتت أجزاء المملكة . ونشوء الأوطان المستقلة^(١) أسرع
عبد الرحمن فدعا بنفسه خليفة على المسلمين وسمى نفسه الناصر لدين الله^(٢) .
انتحل الخليفة هذا اللقب قبل موته بثلاثين سنة . ملكت بالحكمة
والعدالة والحزم ، وصنعت بحروب مستمرة كانت تشن كل عام على
المسيحيين ، فرفعت من قدره وجعلته جديراً بلقبه الناصر لدين الله .
ولكن الحروب الأهلية التي حدثت زمناً من قوة أهل ليون انطفأت
الآن وسكن غبارها ، وظهر من خلالها ملك مسيحي عسى بالمنصب ،
جدير بأن يكون خليفة لأردون العظيم ، فقد ولي الملك راميرو الثاني
(ردمير) في سنة ٩٣١ م (٣١٩ هـ) وبرزت فيه صفات القروسية بعزمه
الصارم على مقاومة جيوش الخليفة ، وبعد قليل عقدت في الشمال بين

(١) يضاف إلى ذلك ما كان من قتل المظفر لمولاه المقتدر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) .

(٢) وأرسل منشوراً بالخلافة إلى الولاة فيه : وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا
بأمر المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم
منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه ، وعلينا أن التامد على ترك الواجب لنا
من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه .

المسيحيين وأمير سرقسطة^(١) معاهدة شديدة الخطر سيئة المغبة . فأسرع عبد الرحمن إلى تمزيق هذه المعاهدة . وإخضاع سرقسطة في سنة ٩٣٧ م (٣٢٧ هـ) ثم زحف على نافار . ونشر الرعب والفرع أينما سار . حتى إن الملكة الوصية (طوطة) أسرعت إليه لتقديم خضوع المحكوم للحاكم ، ولكن راميرو لم يشترك في شيء من هذا الاستسلام . فلم شتات جيشه وتغلب على المسلمين وقهرهم في موقعة الخندق . وكانت كارثة على المسلمين فسقط منهم خمسون ألفاً في الميدان . ونجا الخليفة بنفسه وما كاد ينجو ، وفر بأقل من خمسين فارساً . وبقيت هذه السنة المشئومة عهداً طويلاً بالأندلس تسمى بسنة الخندق^(٢) .

ولو أن المسيحيين سايروا تغلبهم وجاروا تقدمهم . لحاز أن يكتب اليوم لأسبانيا تاريخ آخر . ولكنهم كشأنهم : شغلهم العداوة والبغضاء . ووقع التراع بين أمرائهم . فحمى ذلك الخليفة من شرهم . واقتصر فرصة تدابرهم للانتعاش من كارثته ولم شعث ما تفرق من جيشه . وأخذ الأهبة لهجوم جديد . فقد كانت الفتنة متأججة في قشتالة لمقاومة سيطرة أهل ليون . وكان حاكم قشتالة في هذا الحين فرناندو غونزاليز المشهور^(٣) الذي

(١) هو محمد بن هاشم التجيبي خلع الطاعة سنة ٩٣٤ م (٣٢٣ هـ) وانضم إلى راميرو وإلى ملك نافار وأثار جميع أهل الثغر على الخليفة فزحف الخليفة عليه وأخذ قلعة أيوب وحاصر سرقسطة إلى أن لاذ محمد بن هاشم يطلب العفو فعفا عنه .

(٢) قال المسعودي : كان عبد الرحمن في أكثر من مائة ألف من الجند . ويطل صاحب أخبار جموعة هذه الهزيمة بأن وجوه رجال الجيش تواطئوا على الانهزام كراهة في قائدهم غير العربي نجدة الصقلي ، وقال إن عبد الرحمن لم يحضر موقعة بعد هذه .

(٣) يسميه صاحب نفع الطيب : فردند قورمس قشتالية .

غنى بمدحه كثير من الشعراء . فإنه كان بطلا من أبطال أسبانيا . تروج بطلة خلصته مرتين من السجن . بعد أن ألقاه فيه بعض الحسدة من جيرانه أصحاب نافاروليون . وكانت حيلتها في خلاصه في المرة الثانية : أن ارتدت ثياب زوجها وعرضت نفسها للوقوع في أيدي السجانين . أما خلاصه في المرة الأولى : فكان قبل زواجها به حينما كان في طريقه ليخطبها من أيها غرسية ملك نافار . الذي قبض عليه أول ما رآه وألقاه في السجن .

وتقص علينا أنشودة أسبانية خبر خلاصه من محبسه فتقول :

« لقد حملوا بعيداً كونت قشتالة العظيم إلى نافار . ثم قيدوا رجله

إلى يديه قيداً مؤلماً . وطار بهم الفرح . وأولوا الولائم لاقتناصه . »

« حقاً إن سجن الملك غرسية يضم أشجع بطل بأسبانيا »

ثم يستمر الشاعر فيقص علينا أن فارساً نورماندياً كان ماراً بنافار :

« ثم جاء وهو يرجو أن يقارع العرب بسيفه في سبيل نصرة المسيح »

ثم يقول الشاعر : إن هذا الفارس أخبر بنت غرسية بأسر غونزاليز وعدد

لها ما في أسره من الضرر الذي يلحق بالمسيحيين بأسبانيا :

« إن أسره بهجة ومسرة لقلوب العرب . ولكنه لنا حزن أليم . . . »

« لقد فقدت فيه أسبانيا حارساً . كما فقدت فيه قشتالة زعيماً . »

« إن جيوش العرب تتدفق تدفق السيول في النهر . »

« لعنة الله على الأغلال المسيحية التي تغل يدي غونزاليز . »

ثم أخذ الفارس النورماندى يرجو الأميرة في تخليص السجين :

« لم تجب السيدة إلا قليلاً غير أنها في حنادس الليل . »

« وقد نام كل الخدم نهضت ، وانسابت من القصر . »

« ثم أغرت حارس السجن بحليها وذهبها . »

« فباع لها ذلك الحارس القفل سجينه . »

وهكذا أخرجت الأميرة الكونت من سجنه وفرا معاً إلى قشتالة . . .

وتعد هذه القصة في هذا الوقت الذي تفرخ حوادثه قديمة . لأن

غونزاليز كان قد تزوج بها منذ سنين . وصمم على أن تكون قشتالة مستقلة لا سيطرة عليها لليون .

وفي هذا الحين قبض عليه راميرو ولم ينج من سجنه إلا بعد أن تبين

لراميرو أن القشتالين لا يقبلون سواه حاكماً . وأنهم يؤثرون الخضوع لتمثال

زعيمهم على أن يدينوا بالطاعة إلى ملك ليون . لذلك أطلقه بعد أن أخذ

عليه المواثيق أن يبقى خاضعاً لمملكة ليون . وأن يزوج ابنته أردون

أحد أبناء راميرو . وقد فترت همة فرناندو بعد هذا الإذلال عن أن يقابل

العرب في صفوف ليون . وعزم على أن يترك الليونيين لينالوا نصيبهم من

الإذلال والمهانة . غير أن ذلك لم يكن في عهد راميرو الذي فاز بانتصار

على العرب في سنة ٩٥٠ م (٣٣٩ هـ) بالقرب من طليخة . ومات في

السنة التي تليها شامخ العز وافر المجد .

وبعد موته اتخذ غونزاليز لنفسه صناعة « عمل الملوك » فأخذ على

عائقه حماية سانشو (شانجة)^(١) من أخيه أردون الثالث . وحينما خلف

(١) يسميه صاحب نفع الطبيب « غرسية بن شانجة » ، وهو حفيد طوطة ، أما ابنها فاسمه سانشو .

سانشو أخاه في سنة ٩٥٧ م (٣٤٦ هـ) انقلب عليه غونزاليز وطرده من ليون . ووضع على العرش مكانه أردون الرابع . وكان كسيحاً ينبذ الناس بالأنيم . فالتجأ سانشو إلى جدته « طوطة » ملكة نافار . ولم يلبث إلا قليلاً حتى استنجدوا بخليفة قرطبة ليأخذ بتأصدهما في هذه الشدة^(١) وكان سانشو عظيم الضخامة والسمن . لا يكاد يستطيع المشي خطوات إلا مستنداً إلى شخصين . فعزم على أن يستشير الأطباء البارزين بقرطبة الذين طارت شهرتهم في جميع الأقطار . وبعثت الملكة « طوطة » رسلاً إلى عبد الرحمن في هذا الشأن . فعزم على أن يرسل إليه حسداً وهو طبيب يهودى بارع^(٢) . ولكنه اشترط لذلك شروطاً منها : تسليم عدد من القلاع . وحضور سانشو والملكة طوطة إلى قرطبة .

وقد صعب على الملكة أول الأمر أن تسافر إلى حاضرة المسلمين . لأن وجودها سيكون مظهراً من مظاهر قوة الخليفة وعظم سلطانه . ولكنها بعد كل هذا سافرت مع ابنها ملك نافار . وحفيدها المنى ملك ليون . فاستقبلهم عبد الرحمن باحتفال عظيم لما طبع عليه من الكرم والأدب الجهم ،

(١) في تفح الطيب : وكان غرسية بن شانجة استولى على جليقية بعد أبيه شانجة فرويله ثم انتفض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيله فردلند ومال إلى أردون ابن ردمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكنس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة وإعادة حافدها غرسية على ملكه ونصره من عدوه وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لهدومهم .

(٢) ابن إسحاق من أخبار اليهود متقدم في علم شريعتهم متمكن في صناعة الطب ، اتصل بالحكم بن عبد الرحمن ونال عنده الحظوة فساعده على جنب ما شاء من تأليف اليهود بالشرق .

ولم يتخلص سانشو سريعاً من سمه فحسب . بل عاد إلى الشمال مؤيداً بجيوش من الخليفة استرد بها في النهاية عرش ليون سنة ٩٤٠ م (٣٤٩ هـ) .

وفي السنة التالية مات الخليفة العظيم عن سبعين عاماً . بعد أن حكم نحو خمسين سنة أتم بها من وجوه الإصلاح وجلال الأعمال في الدولة ما يعجز الخيال عن تصويره : فإنه حين تولى الملك شاباً في الحادية والعشرين كانت المملكة فريسة لزعماء العصابات والمفسدين في الأرض . فاستقلت الولايات واختارت حكامها . وتحدت الأحزاب سلطة الأمراء وفرقت الدولة فرقاً . وعانت الفوضى وعم النهب البلاد .

ففي الجنوب كانت الدولة الفاطمية بإفريقية تهدد بابتلاع أسبانيا وضمها إلى ملكها . وفي الشمال أخذ أمراء النصارى أهبتهم لآزحف على مملكة أجدادهم . وطرد العرب من البلاد . فبين هذه الفوضى الجائحة ، ومظاهر هذا الدمار الشامل . ظهر عبد الرحمن فبدل بكل هذا الضعف قوة . وبكل هذا الفساد نظاماً وفوزاً مبنياً . وقبل أن يمر النصف الأول من سني حكمه أعاد السلم إلى نصابه . وثبت دعائم حكومة عادلة في طول المملكة الإسلامية وعرضها . وقضى على سلطة الأحزاب . ونشر نفوذه مهيباً مستقبداً بين جميع طبقات رعيته .

وفي النصف الثاني من حكمه حاط مملكته بالقوة والمهابة . فأردب أعداءه في الخارج ، وأزاح الإفريقيين العتاة عنه بعيداً . وأنشأ حامية بسبته تقف في وجودهم . وقاسمهم السيطرة على البحر مقاسمة النظير للنظير . وفي الشمال عصفت بالقوة النامية لنصارى ليون وقشتالة ونافار ،

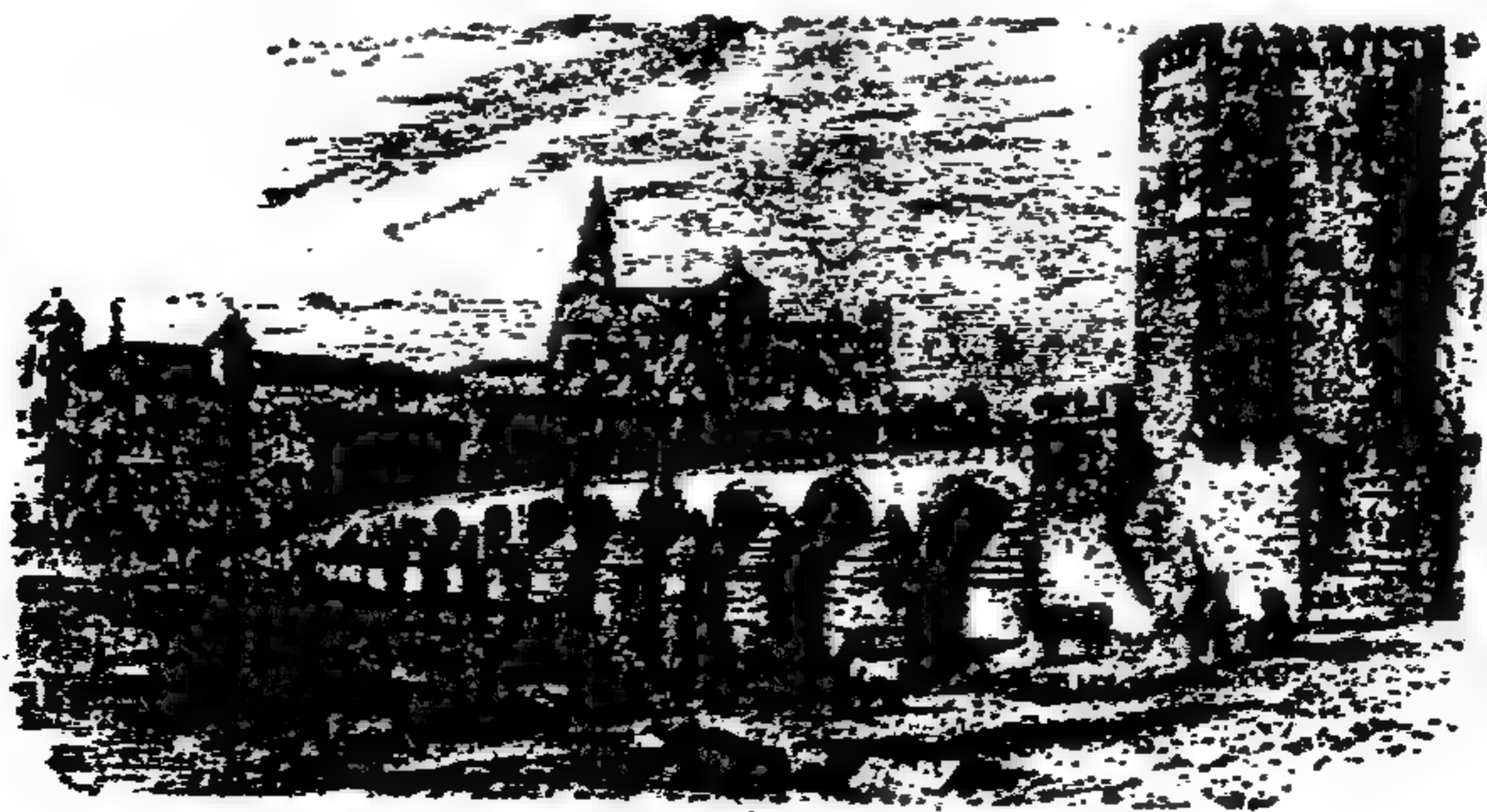
وكانت له اليد العليا عليهم . حتى إنهم كثيراً ما قدموا عليه لحمل مشكلاتهم واسترداد حقوقهم^(١).

نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها . ولم يكتف بإنقاذها من الدمار . بل خلق منها دولة عزيزة الجانب . ولم تكن قرطبة في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه في عهد الناصر . ولم تكن الأندلس قبل أيامه في تلك الحال من الحصب والإمراع والإنتاج وتوالي الخيرات . التي نماها ووصل بها إلى الكمال كد أهلها ومهارتهم في الصناعة . ولم يكن الحكم الأندلسي في يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى . ولم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت في أيام عبد الرحمن . فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد . وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل في أوربا وإفريقية . وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا . وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلاً واحداً عانده كل شيء فقهره . ووقف في طريقه كل شيء فحطمه . بعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار . ولم تصل البلاد إلى كل هذا . إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته . ويلوّن مؤرخو العرب صورة هذا الرجل الهام بألوان لا تكاد تتفق

(١) يقول ابن حبان ، إن ملك الناصر كان في غاية الضخامة ورضة الشأن ، وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادته ومتاحفته بغير الخائن ، ولم تبقى أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجية والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية .

مع ما كان له من سياسة عنيفة مهيمنة ، على أنهم كانوا أمناء في وصفه
« بأنه كان أرحم من حكم مملكة في الأرض ، وأكثر الملوك علماً ، وبأن
أحاديث حلمه وكرمه وعدله سارت في الناس مثلاً شروداً . وبأنه لم
يفقه أحد ممن سبقوه في الشجاعة والغيرة على الدين ، وبأنه كان محباً للعلم
مكرماً لأهله معاشراً لهم » .

ويتناقل الناس قصصاً كثيرة في صرامته في الحق وبعده عن المجاملة
فيه ، ويحدثنا ابن خلدون عن هذا الخليفة العظيم فيقول : « وجد بخط
الناصر رحمه الله : أن أيام السرور التي صفت له دون تكدير كانت يوم
كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا .
وعُدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً . فاعجب أيها العاقل لهذه
الدنيا وعدم صفائها . وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها . هذا الخليفة الناصر
حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها
خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام . ولم تصف له إلا أربعة
عشر يوماً ! فسبحان ذي العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو . . . »



حاضرة الحِلافة

يقول أحد مؤرخي العرب : « إن قرطبة عروس الأندلس ، بها من الجمال والزينة ما يهر العين ويسر النفس . فأمرؤها المتعاقبون تاج مجدها . وقلادتها نظمت من درر استخرجها شعراؤها من بحر اللغة الخضم . وحلتها أعلام الآداب والعلوم . وأهداب حلتها أصحاب الفنون والصناعات » .

وهكذا يصور المؤرخ الشرقى مدينته المحبوبة بما شاء من خيال الشرق البعيد .

ولقد كانت قرطبة أيام الخليفة العظيم حاضرة جديدة بالتمخر والإعجاب ، وإذا استثنينا بيزنطة فلن نجد في أوروبا مدينة تساميا في جمال أبنيتها ، أو في حياتها الرخية المترفة ، أو فيها تزخر به من أنواع العلوم وفنون الآداب .

إن الموجز الذى نحن بصدد نقله عن مؤرخى العرب فى وصف قرطبة ، وما كانت فيه من نهضة وازدهار ومجد ، إنما يعود زمنه إلى القرن العاشر ، وإذا لحظنا أن أسلافنا السكسون فى هذا العهد كانوا يسكنون الأكواخ ويفترشون القضايل ، وأن لغتنا لم تكن تكونت بعد ، وأن القراءة والكتابة كانتا محصورتين فى عدد قليل من الرهبان - عرفنا ما كان

للغرب من مدنية عجيبة . وحضارة منقطعة النظير . وتظهر المقابلة جليلة غربية بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن . إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حمأة من الجهل وخشونة الأخلاق . وأنها لم يكن بها شيء من آثار المدنية إلا ما بقى للامبراطورية الرومانية من أطراف في القسطنطينية . وبعض أجزاء إيطاليا .

ويقول مؤرخ عربي آخر : « إن قرطبة مدينة حصينة . تحيط بها أسوار من الحجر ضخمة شاهقة . وهي جميلة الشوارع . وكانت في الزمن القديم مقر سلاطين الكمار . وكانت دورهم داخل سورها المحيط بها . ويشتهر سكانها بالركة والظرف وكرم الخلق وحدة الذكاء . ولهم الذوق الكامل في مآكلهم . وملابسهم . وانتقاء خيولهم . وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر . إذ كانت مركز الكرماء وميدان العلماء والشعراء . ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب . ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتاب . ولم تبرح ساحتها مجر عوال ومجرى سوابق . ومحط معال وحى حقائق . وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، والزور من الأسد » .

وهذا المديح الشرقى عرضة للمبالغة والإغراق ، ولكن قرطبة كانت جديرة بكل ما ينثر عليها من الإطراء والثناء ، ولن تستطيع إذا رأيته الآن . أن تدرك ما كان لها من جمال رائع أيام الخليفة العظيم ، فإن شوارعها الضيقة ، ودورها المبيضة بالحص ، لا ترسم إلا صورة ضئيلة لما كان لها من العظمة واستبحار العمران ، فقد تهدم « القصر » واتخذ الأسبان

أطلاله بعد العز السامق نجباً للمجرمين . ولا تزال القنطرة ماثلة فوق الوادى الكبير إلى اليوم . كما لا يزال المسجد الجامع الذى بناه أول الأمويين عجباً من العجب . ومصدر دهشة للسائحين . ومن المحقق أنه كان أجمل روعة أيام عبد الرحمن الناصر أو بعدها بقليل . حينما زاد الوزير الأعظم (المنصور بن أبى عامر) فى بنائه .

واختلف المؤرخون فى مقدار اتساع رقعة المدينة . والأرجح أن طولها لا يقل عن عشرة أميال . وكانت شواطئ الوادى الكبير متألثة بالقصور المبنية بالرخام والمرمر . وبالمساجد والحدائق التى عنى فيها أشد عناية بالأزهار والأشجار النادرة . المجلوبة من الممالك الأخرى . وأدخل العرب بالأندلس نظامهم فى الرى الذى لم يصل الأسبانيون إلى مثله من قبل ولا من بعد (١) . ونقل أول أمراء الأمويين نخلة من الشام لتذكره بموطنه ، ونظم فيها قصيدة محزنة يندب فيها بعده عن أهله ودياره ، كما بعدت النخلة عن أهلها وديارها ، وقد غرسها فى حديقة حاكى بها حديقة جده هشام بدمشق ، التى كانت ملعب لهو فى أيام صباه . وأرسل رسلاً فى كل بقاع الأرض ليجلبوا إليه أندرما فى البلاد من الشجر والنبات والبذور ، وكان بستانيه غاية فى المهارة والذكاء ، فتمت هذه الأنواع

(١) يذكر البتانونى عناية العرب بالرى بمنطقة بلنسية فيقول : فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها ، وأجروا خلجانها وسيروا إليها الماء من جبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديعة ، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه ، ووصلوها إلى المنطقة المالية حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان ، وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية فى السنة .

الغريبة . واعتادت الإقليم . وانتقلت من حديقة القصر إلى كل بلاد
الأندلس . وعرف الرمان ونما وكثر بالأندلس . بعد أن جاء في هدية
لعبد الرحمن الداخل من دمشق ، فأخذت حبوبه واستنبتت بحديقته (١) .
« وكانت هذه الحديقة تروى بأنابيب من الرصاص . تصب الماء منها
تمائيل مختلفة الأشكال ، من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة . والنحاس
الممّوه ، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . فترسله إلى البحيرات
الهائلة ، والبرك البديعة . والصهاريج الغريبة » .

ويحدثنا المؤرخون بكثير من أعاجيب قصور الأمير عبد الرحمن ، وما
كان بها من الأبواب الفاخرة ، التي تفتح على الحدائق حولها أوعلى النهر ،
أو التي يمر منها الأمير إلى المسجد الجامع ، في طريق فرشت بالبسط الثمينة
ليؤدي صلاة الجمعة .

وكان بعض هذه القصور يسمى « بالزاهر » ، وبعضها « بالمعشوق » ،
وبعضها « بالمؤنس » . ورابع « بقصر التاج » وهكذا ، بينما احتفظ قصر
خامس باسم حاضرة الأمويين بالشرق وهو « دمشق » ، وكان يقوم على
أعمدة من الرخام ، وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبلغ غاية الروعة والجمال
حتى ليقول فيه بعض الشعراء (٢) :

(١) في الحلل الهندسية : بلا صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف
أهل الشام ، وكان في هذه التحف رمان فجعل جلساء الأمير يذكرون الشام
ويتأسفون عليها ، وكان فيهم رجل يسمى سفرا فأخذ من ذلك الرمان شيئاً لطف به
وغرسه حتى علق وتم وأثمر ، فهو اليوم بالأندلس الرمان السفري نسبة إلى
هذا الرجل (٢) هو ابن عمار

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى ولد المشم
 منظر رائق وماء نمير وثرى عاطر وقصر أشم
 بت فيه والليل والفجر عندى عنبر أشهب ومسك أحمر
 ولبعض بساتين قرطبة أسماء مغرية تدعو المرء إلى الاضطجاع بجانب
 جداولها المتدفقة . واجتمع بشذا أزهارها وأثمارها : « فنية الناءورة »
 توحى إليك بإحساس نحو الراحة والنعيم . منصتاً إلى صوت الماء وهو
 ينصب من الساقية إلى حياض البستان . « ومرج الخز » كان بلا شك
 بستاناً ساحر المنظر لأهل قرطبة . بأزهاره المختلفة الألوان . وكان جريان
 الوادي الكبير مصدر بهجة وسرور فخم . لأن الشرقيين لا يحبون شيئاً في
 الدنيا . أكثر من أن يروا منظرًا يسمعون فيه تمتعة الأنهار . وعرب أسبانيا
 شرقيون في كل شيء إلا في موقعهم الجغرافي .

وقد امتد بين شاطئ النهر جسر فخم به سبع عشرة قنطرة . وهو لا يزال
 ماثلاً إلى اليوم يشهد بمهارة العرب في علوم الهندسة . وكانت المدينة
 مزدهرة بالدور الفخمة . قيل إنه كان بها أكثر من خمسين ألف قصر
 للعظماء ورجال الدولة . وأكثر من مائة ألف بيت للعامة . ونحو سبعمائة
 مسجد . وتسعمائة حمام .

ونلحاحات شأن كبير في المدن الإسلامية . لأن النظافة عند المسلمين
 ليست من الإيمان فحسب . بل هي شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات
 عامة . ذلك في حين أن كان مسيحيو العصور الوسطى يتهنون عن النظافة
 ويعدونها من عمل الوثنيين . وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم ،
 (٩)

حتى إن راهبة دونت ببعض مذكراتها في صلف وعجب : أنها إلى سن الستين لم يمس الماء منها إلا أناملها . عند ما كانت تغمسها في ماء الكنيسة المقدس . نقول : بينما كانت القذارة من مميزات القداسة . كان المسلمون شديدي الحرص على النظافة . لا يحرّضون أن يقفوا لعبادة ربهم إلا إذا كانوا متطهرين . وجيئنا عادت أسبانيا إلى الحكم المسيحي . أمر فيليب الثاني زوج ماري ملكة إنجلترا بهدم كل الحمامات العامة . لأنها من آثار المسلمين !

وكان لا يزال للمسجد الجامع المنزلة الأولى بين مباني قرطبة الضخمة الجميلة . فقد أنشأه عبد الرحمن الداخل في سنة ٧٨٤ م (١٦٨ هـ) وأنفق في بنائه ثمانين ألف دينار . حصل عليها من غنائم القوط . ثم أتم هذا المسجد ابنه التقي هشام في سنة ٧٩٣ م (١٧٧ هـ) بما اغتنمه من حروب أربونة . وكان كل أمير بعده يضيف جمالا جديداً إلى هذا المسجد الذي يعد أبداع مثال في العالم للفن الإسلامي في أول عهوده . فن الأبرار من صفح السوارى والحيطان بالذهب . ومنهم من أضاف إليه مئذنة . ومنهم من زاد في رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلين . وكان عدد بواكيه (١) تسع عشرة من الشرق إلى الغرب . وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب . وبه واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر المانع . وثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية . وقد أجريت الفضة (٢) في حيطان محرابه المزين بالنسيفساء . وصب في سواريه الذهب الإبريز واللآزورد . أما

(١) كانوا يسمون الباكية بالبلاطة . (٢) في القري : الذهب .

المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب ، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة . رصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمر بمساهير من الذهب . وكان يصل الماء من الجبال إلى الينابيع التي أعدت لوضوء المصلين ، وكانت هذه الينابيع تقذف بمائها ليلاً ونهاراً . وبنيت دور إلى الجانب الغربي من المسجد لتزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل . وبالمسجد مئات من الثريات التي صنعت من نحاس أجراس الكنائس للإضاءة ليلاً . وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمسون رطلاً . كانت تشتعل ليلاً ونهاراً إلى جانبي الخطيب أو الواعظ في شهر رمضان . وكان بالمسجد ثلاثمائة خادم لإيقاد البخور من العنبر والعود . ولإعداد الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل . وقد بقي كثير من جمال هذا المسجد ماثلاً إلى الآن ، فإن السائحين يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغابة من السواري . فيروعهم فيها منظر لا يكاد ينتهي من كل جانب ، ولا تزال سواري الصوان اللامع والرخام المنحزق في مواضعها . ولا يزال الزجاج الفاخر الذي استحضره صناع ماهرون من بيزنطة يلمع لمعان الجواهر . ولا يزال اغراب بقبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب . ولا تزال أشجار البرتقال مورقة بصحن الجامع تسير امتداد السواري . فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وجماله . عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها . أيام الخليفة العظيم التي لن تعود .

وأشد بعداً في باب الغرابة مدينة الزهراء — وإن لم تكن أكثر من المسجد حسناً — بناها عبد الرحمن الناصر في أحد أرباض قرطبة لأن

إحدى زوجاته — وقد كان مشغولاً بها — تمت عليه أن يبنى لها مدينة باسمها . وكان الخليفة العظيم كغيره من ملوك المسلمين مولعاً بالبناء والتجديد فأجاب طلبتها ، وأنشأ مدينة في سفح الجبل المسمى بجبل العروس على بضعة أميال من قرطبة^(١) كان ينفق عليها كل سنة ثلث دخل المملكة^(٢) مدة خمس وعشرين سنة ، ثم استمر ابنه من بعده في الإنفاق عليها مدة عشرين سنة . وكان عدد العمال في كل يوم عشرة آلاف ، وكان جملة ما يبنى منها في كل يوم من الصخر المنجور المعدل ستة آلاف صخرة ، ويعمل في عمارتها في كل يوم نحو ثلاثة آلاف دابة ، وأقيم بها من السواري أربعة آلاف كان كثير منها هدية من إمبراطور القسطنطينية^(٣) أو من رومة . أوقراطجنة . أوسفاقس . أو غيرها ، إلى جانب ما كان يؤخذ من مقاطع طركونة والمرية .

وكان بالزهراء خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه ، وكان سقف بهو الخليفة بالزهراء وحيطانه من الرخام والذهب وبفوارته تمثال عجيب أهداه إليه ملك الروم . وبعث إليه معه بلرة نادرة ، وفي وسط البهو حوض مليء بالزئبق الزجاج . إلى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والآبنوس قد رصعت بالجوهر ، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب . ولاقت اهتزاز الزئبق . ملأت البهو بريق

(١) بديء في بنائها سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) .

(٢) كان دخل المملكة في عهد الناصر عشرين مليوناً من الدينار .

(٣) في نفع الطيب : أن ملك الروم أهدى إليه مائة وأربعين سارية .

يشبه لمعان البروق ، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدة (١).

ويجد مؤلفو العرب متعة في التحدث بعجائب الزهراء فيقول بعضهم :
« لقد يمتد بنا الحديث إذا اقتصرنا على عد ما بالزهراء من جمال وفن :
فهناك الجداول الداوقة ، والأمواد المتعرجة ، والبساتين الزاهرة ، والقصور
المنخمة لسكنى رجال الدولة ، وهناك صفوف الجند والخدم والعبيد من كل
بلد وملة ، وهم في ملابس الحرير بين إقبال وإدبار ، في شوارعها الفسيحة ،
ثم هناك ازدهام القضاة والفقهاء والشعراء وهم يمشون في وقار ورهبة في أبهاء
القصر الفخمة وأفنيته الكثيرة . »

وقد قدر عدد الفتيان من خدم القصر بخمسين وسبعائة وثلاثة عشر ألفاً .
يصرف لهم في كل يوم من اللحم نحو ثلاثة عشر ألف رطل . حاشا أنواع
الطير والحوت ، وقدر عدد نساء القصر من كل جنس وطبقة بما في ذلك
نساء الخليفة ووصيفاتهن . بأربع عشرة وثلاثمائة وستة آلاف . وكان
بالقصر من الخدم الصقالبة والخصيان خمسون وثلاثمائة وثلاثة آلاف ،
نخصيص بهم من اللحم أو الدجاج أو الطيور ثلاثة عشر ألف رطل . فمنهم
من كان يصرف له عشرة أرطال ، ومنهم من كان يصرف له أقل من ذلك
على حسب منازلهم . وكان يقذف لحيثان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف

(١) قال ابن حبان : وكان الناصر إذا أراد أن يفرغ أحداً من أهل مجلسه أو ما
إلى أحد صقالبه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمان البرق من النور ويأخذ
بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم .

رغيف في اليوم . غير ستة أقفزة من الحمص الأسود تنفع لها في كل يوم .

وعجائب هذا القصر دونت بإسهاب في كتب مؤرخي هذا العهد . وخطب بها الخطباء ونظمها الشعراء الذين استنفدوا كنوز البلاغة في أوصافهم « وقد أطبق كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبن مثله . في الإسلام البتة . وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة . من ملك وارد . أو رسول وافد . أو تاجر . أو جهيد — وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة — إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شيئا . بل لم يسمع . بل لم يكن يتوهم كون مثله . ولو لم يكن فيه إلا السطح المرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب . والقبة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الحمة وحسن المستشرف وبراعة الأثاث والفرش والسجف . ما بين مرمر مسنون وذهب مصون . وعمد كأنها أفرغت في القوالب . ونقوش كالرياض . وبرك عظيمة محكمة الصنعة . وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص . لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها — لكفاه بعض ذلك شرفاً ونبلاً . فسيحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة . لكي يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لأهل السعادة في دار المقامة . التي لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج إلى الرم . لا إله إلا هو المنفرد بالكرم » .

وقد استقبل الخليفة بقصر الزهراء ملكة نافار وسانشو (شانجه) في حفل عظيم . وبه جلس ليحيى رسل ملك الروم الذين بعثهم إلى

حضرته . وقعد للقائهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) في بهو المجلس الزاهر - قعوداً حسناً نبيلاً . وكان قد أمر كبار رجال الدولة وقواد الجيش . أن يعدوا لهذه المقابلة خير إعداد وأفخمه . وكان البهو في أكمل زينة . والعرش في وسطه يلتمع ذهبه ، وتتلأأ نفائس جواهره . ووقف إلى يساره أبناءه . فالوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً . ثم الحجاب من أهل الخدمة . وأبناء الوزراء والموالي ورجال خاصة القصر وغيرهم .

وقد فرش صحن الدار بعناق البسط وكراشم الدرانك . وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور . فوصل رسل ملك الروم حاثرين من بهجة الملك وفخامة السلطان . ثم تقدموا خطوات وقدموا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى . قسطنطين بن ليون . وهو في ورق سماوي للون كتب بالذهب بالخط الإغريقي .

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال . أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقعده وعظيم سلطانه . ويصفوا ما تهبأ من توطيد الخلافة في دولته .

وتقدم إلى الأمير الحكيم ابنه وولي عهده . بأعداد من يقوم بذلك من الخطباء . وقام خطيب وأخذ يحاول التكلم فهاه وبهره دول المقام وأبهة الخلافة . فلم يهتد إلى لفظة . وغشى عليه وسقط إلى الأرض . ثم قام آخر فحمد الله وأثنى عليه ثم انقطع به القول فوقف ساكناً مبهوتاً^(١) .

(١) يؤخذ من ابن خلدون أن الأمور بالكلام أولاً هو أبو علي القالي ، فلما ارتج عليه قام منذر بن سعيد فارتجل خطاباً ضافياً .

وقد بذل الخليفة جهده في بناء الزهراء وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها ،
وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث مرات
متواليات . وحينما ذهب إلى المسجد بعد ذلك . أنذره الخطيب بالعذاب
الآليم في نار الجحيم لتعطيل الجمع (١) .

وروثق قصور قرطبة وبساتينها — مع استهوائه القلوب — يغرينا
بجمال آخر لا يقل عن رونقها الظاهر . فقد كانت عقول أهل قرطبة
كقصورها في الحسن والروعة . فإن علماءها وأساتذتها جعلوا منها مركزاً
لثقافة الأوربية . فكان الطلبة يفدون إليها من جميع أنحاء أوروبا ليتلقوا
العلم عن جهابذتها الأعلام . حتى إن الراهبة « هروسويدا » وهي بعيدة
في ديرها السكسوني بجودرشيم — حينما أخبرت بشتق يولوجيوس لم تستطع
إلا أن تثني على قرطبة وتسميها . « ألمع مفخرة للدنيا » . وكان يدرس
بقرطبة كل فرع للعلوم البحتة . ونال الطب بكشف أطباء الأندلس
وجراحيا من النمو والازدهار نصيباً أعظم مما ناله قبلهم منذ أيام جالينوس .
وكان أبو الطيب خلف جراحاً ذائع الصيت في القرن الحادى عشر ،
وبعض عملياته الجراحية يطابق اليوم العمليات الحديثة . وجاء ابن زهر (٢)

(١) يروى أن منذر بن سعيد بدأ خطبته بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية
تعصون » (الآيات) ثم وصل ذلك بقوله : فتاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى وهي دار
القرار ومكان الجزاء .

(٢) هي أسرة اشتهرت بالبراعة في الطب والأدب ، أولها أبو مروان ابن زهر ،
نال حظوة كبيرة عند مجاهد ملك دانية فطار ذكره بالأندلس ، ثم ابنه أبو الملاء
بن زهر ، كانت له منزلة سامية في عهد المرابطين ، ثم عبد الملك ابنه ، اشتهر بالطب
في عهد الموحدين ، ثم ابنه الحفيد أبوبكر كان طبيباً أديباً ، ثم ابنه عبد الله .

بعده بقليل ، فكشف عن أساليب كثيرة في العلاج والجراحة .
 أما ابن البيطار^(١) العالم النباتي ، فإنه سافر إلى كل بقاع الشرق للبحث
 عن العقاقير الطبية ، وألف في ذلك كتاباً جامعاً . وكان الفيلسوف
 ابن رشد^(٢) الحلقة الأولى في السلسلة التي وصلت فلسفة قدامى اليونان
 بفلسفة أوروبا في العصور الوسطى . وكانت علوم الفلك ، والجغرافيا ،
 والكيمياء ، والتاريخ الطبيعي ، تدرس بمثابة وجد بقرطبة . أما الأدب
 العربي فإن أوروبا لم ترفى عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت
 في الأندلس . حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر . ويظن أن
 هذا الشعر هو الذي أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية
 وأغانيهم ، وهو الذي حاكاه شعراء « بروفانس » و « إيطاليا » .

ولم تكن تعد الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتاً ترتجل
 أو تختار من مآثور الشعر الرصين ، ويظهر أن العالم الإسلامي اتجه بروحانيته

(١) هو أبو عبد الله الملقب النباتي ، سافر إلى بلاد الأغرقة وأقصى بلاد الروم
 ولقى جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعائنه في مواضعه ، واجتمع
 أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات ، وكان لا يذكر دواء إلا عين
 في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس . وجعله الكامل بن أيوب رئيساً
 على العشابين بدمشق ، ثم خدم الملك الصالح أيوب بمصر ، ومات فجأة سنة ٦٤٦ هـ .
 (٢) هو أبو الوليد محمد بن أحمد رشد ، من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته ،
 ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ واتصل يعقوب بن عبد المؤمن ، وبرع في الفقه والطب
 والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية واستمر بها خمسا وعشرين سنة ، وكان الطبيب الخاص
 لأبي يعقوب يوسف ثم لولده المنصور ، وأتته به بعض خصومه بالزندقة فتق من المغرب إلى
 قرطبة ، ثم دعي ثانية إلى مراکش ، وأعظم آثار ابن رشد شرحه لفلسفة أرسطو .
 مات سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٥ م) .

إلى آلهة الفنون . فمن الخليفة في عرشه . إلى النوتى في سفينته ، كنت
تسمع النظم الفائق في مشاهد الأندلس وجمال مدنها ، ثم في روعة تحرير
الأنهار ، وسحر الليل الساجى ، وقد هدأت فيه النجوم ، ثم في نشوة الحب
والحمر ، ومجتمع الأنس . وقد اختلس الحب ساعة لقاء بفائنته التى
ترمى بقوس حاجبها القلوب (١).

وقد بلغت الأندلس الغاية فى الفنون فبناء مدينة كالزهراء . أو مسجد
كالمسجد الجامع . ما كان ليم على هذا الوضع الرائع إلا إذا بلغ العمال
قمة المهارة فى صناعاتهم . وكانت صناعة الحرير من الصناعات
الممتازة بالأندلس . فقد قيل إن عدد النساجين بلغ فى قرطبة وحدها
مائة وثلاثين ألفاً .

واشتهرت المرية بمنسوجاتها الحريرية وبسطها . ووصلت الفخارة فى
الإتقان حداً عجيباً . فقد انتهى الفن بالصناع بجزيرة ميورقة إلى أن
أبرزوا أواني فخارية تلمع ببريق معدنى . ومنها استعارت إيطاليا اسم
أوانيتها التى دُعيت بالميورقية . وكانت تصنع الأواني النحاسية والحديدية
والترجاجة المزججة والمذهبة بالمريه . ولا يزال لدينا بعض نماذج من
العاج المحفور وقد كتب عليها أسماء عظماء قرطبة .

نعم إن هذه الفنون نقلت من الشرق بغير شك . ولكن صناعات

(١) يظهر أن الشر كان طبيعة فى أهل الأندلس . قال ياقوت فى الكلام على
شلب : وسمعت ممن لا أحصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً أو يأتى
الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانة وسأله عن الشعر ، قرض من ساعته ما اقترحت
عليه فى أى معنى طلبت منه .

الأندلس كانوا تلاميذ نجباء لأساتذتهم من البيزنطيين . والفرس .
والمصريين . فوصلوا إلى درجة النبوغ في صناعة الحلى . وبقى من ذلك إلى
اليوم أثر عجيب من آثار ابن الخليفة العظيم . لا يزال يحفظه الأسبان
فوق المذبح الأعلى لكنيسة قرطبة : وهو علبة ملبسة بالفضة . مرصعة
بالدر . وقد كتب عليها بالعربية دعاء وتمجيد لأمير المؤمنين الحكيم
المستنصر بالله . وهو دعاء يعد غريباً فوق مذهب للمسيحية .

• وكانت الحلى ومقابض السيوف دقيقة الصنع بارة الفن . كما يدل على
ذلك سيف الأمير أبى عبدالله آخر أمراء غرناطة . واشتهر المسلمون دائماً
بصناعة المعادن حتى إن بعض الأشياء التافهة كالمفاتيح . كانت
حملة الصنعة فائقة الحلية . والثريا البديعة التى صنعت لمسجد أمير
غرناطة محمد الثالث التى لا تزال ماثلة بمجريط (مدريد) خير مثال
لتفوق العرب فى نقش البرنز وإتقان زخارفه .

ووصلت الأندلس إلى منزلة فى صناعة المخمرات لم تصلها إلا دمشق
والقاهرة . ولا تزال نقرأ فى كثير من أمكنة غرناطة تلك العبارة : « لا غالب
إلا الله » وهى شعار أمراءها ، وقد سبق أن تحدثنا عن الأبواب النحاسية
بقصور قرطبة ، وبعض هذه لا يزال باقياً إلى اليوم بكنائس أسبانيا .
وطالما سمع الناس عن سيوف طليطلة . ومهارة أهلها فى صناعة
الصلب ، وهذه الصناعة – وإن كانت فى أسبانيا قبل الفتح الإسلامى –
زادت تقدماً فى أيام الخلفاء والأمراء بقرطبة . واشتهرت المرية ، وإشبيلية ،
ومرسية ، وغرناطة بصنع اللروع وآلات الحرب .

وجاء بوصية الدون بدرو : « وأوصى أيضاً لابنى بسيفى القشتالى الذى
صنع باشيلية . ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجواهر » .
وقصارى القول : إن قرطبة كانت بحق « مفخرة للعالم » ، فى الفنون
والعلوم وأسباب المدنية جمعاء .



الحاجب العظيم

كبير الوزراء

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء الأمراء من بني أمية بالأندلس ، وكان ابنه الحكم دودة كتب ، ودود الكتب من الناس – وإن أفادوا جدا فيما اتجهوا إليه – قلما يكونون حكاماً عظماء ، فإن منصب الملك لا يهيئ لصاحبه أن يبلغ الذروة في العلم ، فقد يعرف الملك كل شيء تحت الشمس ، وقد يصرف فراغه كما كان يفعل ملوك قرطبة في الشعر والموسيقى ، غير أنه يجب ألا يدفن نفسه في خزائن كتبه ، أو أن يعنى بالمخطوطات أكثر من عنايته بالحروب ، أو أن يؤثر تجليد الكتب ورتقها على رتق مواطن الألم من رعيته . وكان الحكم في شدة انصرافه إلى الكتب كذلك .

إنه لم يكن ضعيف القلب أو غافلاً عن تبعاته الجسام ، ولكن انهماكه في الدرس سلبه الاهتمام بالغزو ، والتشوق إلى الظفر في الحرب ، فقد أغرق في إلقاء العنان لطبيعته الميالة إلى الاطلاع حتى تكونت له أذواق وميول فنية ، هي أثر الدراسات العلمية ونتيجتها .

ولم يضر طبعه الهادئ ومزاجه العلمي مملكته كثيراً ، فقد كان ابن الخليفة العظيم حقاً حينما كان يقود جيوشه لمحاربة نصارى ليون ، إذا نقضوا عهودهم ، وكان الرعب الذي غرسه أبوه في القلوب عظيماً ، والشعور

بقوة الخلافة شاملا . حتى إن أمراء نصارى الشمال ألقوا بزمام أمورهم إلى الحكم . وقدم أحدهم إلى قرطبة يتوسل إليه ويرجوه في إعادته إلى عرشه .

وتم الصلح بين النصارى والمسلمين . فاتسع الوقت للحكم . فعاد إلى جمع الكتب لخزائنه . وكان يرسل رسلا إلى كل بقاع الشرق ليلتأخوا له المخطوطات النادرة . ويعودوا بها إلى قرطبة . وكان رسله ينقبون عن الكتب العزيزة المنال عند وراقى القاهرة . ودمشق وبغداد . وإذا لم يستطع الحصول على كتاب بأى ثمن . أمر بنسخه . وكان يسمع أحيانا بكتاب لا يزال فى دماغ مؤلفه . فيرسل إليه بهدية ثمينة ويسأله أن يبعث بالنسخة الأولى إلى قرطبة . وقد جمع بهذه الوسائل ما لا يقل عن أربعمائة ألف كتاب . وذلك فى وقت لم تعرف فيه الطباعة . وحين كان الخطاطون يلاقون عنتا فى كتابة الكتب بالخط الواضح الجميل .

ولم يكتف الحكم بالحصول على هذه الكتب . ولكنه خالف جميع جماعى الكتب بقراءتها جميعا والتعليق عليها . وكان واسع العلم . حتى إن تعليقاته كانت تعد عند العلماء من أجل ما يكتب وأنفسه . وكان تدمير البربر لقسم عظيم من هذه الخزائن كارثة على الأدب العربى .

وكان مما يطمئن له الظن ، أن يترشح خلف الخليفة العظيم وينعم بما جناه له أبوه من ثمار النصر . ويمتع نفسه بالدراسة الهادئة ، بينما كان أعداؤه فى الخارج يرقبون غزوه لبلادهم من حين إلى حين . لأن العمل الذى أتمه عبد الرحمن الناصر لم يستطع تحليفة واحد أن ينقضه ، ولم يتنقض إلا بعد

أن تداوله خليفتان بعده . حينذاك هوى ذلك الملك الأثيل إلى الأرض مرة أخرى .

حكم الحكم المستنصر بالله أربع عشرة سنة^(١) . وحين مات كان ابنه هشام المؤيد في الثانية عشرة^(٢) حينما جلس على العرش . ولا يستطيع حادس أن يقدر ما كان يكون عليه هذا الخليفة الصغير . لولاقى ممن حوله حباً وإخلاصاً . والتاريخ يذكر له بعض المخايل التي كانت تبشر بالذكاء وحسن الرأي . وبأنه باستعداده جدير بأن يرسم خطوات جده^(٣) . ولكن حياة (الحكم) العلمية وتهاونه . سلبت ابنه ووليه أية فرصة لقوة السلطان . فإن الحكم حينما كان في شغل يجمع الكتب وتجليدها . كان عظماء القواد بمملكته يتدرجون في النفوذ ورفعة الشأن وغير ذلك من الأمور التي لو حدثت في أيام عبد الرحمن الناصر لوقف تيارها . وكان من آثار أعمال الحكم أيضاً أن أخذت زوجاته يفرضن نفوذهن على رجال الحكومة .

إن عبد الرحمن بنى مدينة لزوجته الزهراء . ولكنه كان يدهش جداً لو أنها جرئت على أن تقترح عليه اسم شخص يوليه رئاسة الشرطة . وحينما مات الحكم ، كان نفوذ نساء القصر عظيماً . وكانت (صبح) أم

(١) تزيد مدة حكم المستنصر عن ذلك ، فقد ولى الحكم سنة ٣٥٠ هـ ومات

سنة ٣٦٦ هـ .

(٢) في نفع الطيب : أنه كان في التاسعة من عمره .

(٣) كان أبو علي القالى مؤدب هشام المؤيد ، وقد وصفه بأنه كان في صباه في

عاية المذق والذكاء .

الخليفة هشام أعظم من بالمملكة سلطاناً . وكان من صنائعها شاب قدر له بعد حين أن يكون أبعد منها نفوذاً وشأناً . ذلك هو ابن أبي عامر الذي سندعوه من الآن بالمنصور . وهو اللقب الذي اتخذته لنفسه بعد أن أحرز انتصارات كثيرة على المسيحيين .

بدأ المنصور حياته طالباً مغموراً بجامعة قرطبة . وكان أبوه بها فقيهاً . ويرجع أصله إلى أسرة طيبة المنبت . وإن لم تكن ذات نفوذ . وقد عزفت نفس الشاب عن أن يحصر مطامحه في الوصول إلى المنزلة التي رضى بها أبوه لنفسه . وكان له وهو طالب آمال وأحلام وطموح ، حتى إنه همس في أذن بعض إخوانه من الطلبة بأنه سيكون في يوم حاكم الأندلس ، ثم جاوز الحد في أحلامه . فسأل بعض الطلبة عما يختارون من المناصب لو ألقيت إليه أزمة الحكم ووعدهم بتحقيقها . وقد صدق وعوده عند ما تحققت آماله (١) .

ونشأة المنصور مثال رائع لما يمكن أن يعمل الذكاء والشجاعة والأثرة . في مملكة إسلامية حيث كانت الطريق إلى المعالي ممهدة للعبريين كيفما كانت بدايتهم مؤسفة مشبقة . فقد كان المنصور في أول أمره يعيش من كتابة الرسائل لخدم القصر . وما زال يتدرج بلباقة حتى اتصل بكبير

(١) في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي : أن ابن أبي عامر كان جالسا مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم : ليتخير كل واحد منكم خطة أولية لها إذا أفضى إلى الأمر . فاختار أحدهم ولاية رية ، والثاني حبة السوق ، وطلب الثالث سائرا أن يطاق به قرطبة على حمار ووجهه إلى القنب ، فلما أفضى الأمر إلى المنصور بلغ كل واحد منهم أمنيته .

الحجاب ، الذى كانت له فى هذا القصر سلطة رئيس الوزراء ، فعين فى مناصب قليلة الشأن . اكتسب فيها بسحر أخلاقه ومهارته فى الملقحبة نساء القصر . وبخاصة السيدة « صبح » التى هامت به حبا ، ثم ما زال يرقى منزلة منزلة باظهار الخضوع للأميرات . وتقديم الهدايا النفيسة إليهن . وكان يشتريها أحيانا من مال الدولة . حتى وصل إلى المناصب الرفيعة . ولما بلغ الحادية والثلاثين كان يشغل عدة مناصب من بينها الإشراف على أملاك ولى العهد . وقضاء مدينة أو مدينتين . والنظر فى الزكاة والمواريث . وسحر المنصور كل من لقيه برفيع أدبه وتواضعه . وكريم عطائه . ورقة إحساسه . ومساعدته للبائسين . وبذلك تمكن من اجتذاب عدد عظيم من الناس بينهم كثير من كبار الدولة .

وحينما عظم نفوذ السيدة « صبح » بموت الحكم . وأصبحت أم الخليفة الصغير . وجد المنصور الفرصة التى كان يترقبها لتوسيع مدى سلطانه ، فعمل الاثنان معاً . واستطاعا إجلاس الطفل هشام على العرش بقتل من كان ينازعه فيه (١) . ثم تمكن المنصور من القضاء على مؤامرة رجال القصر الصقالبة الذين كانوا يأبون خلافة هشام .

وكان المصحفى (٢) الحاجب فى هذه الفترة رئيس الحكومة . فأعان

(١) لامات الحكم عزم جوذر وقائق رئيسا صقالبة القصر على صرف البيعة إلى المغيرة أخيه ، وأخبرا المصحفى بذلك فوافقهما فى الظاهر ، ثم جمع جنده وأرسل ابن أبى عامر لقتل المغيرة فقتله ، وأخذت البيعة هشام .

(٢) هو جعفر بن عثمان المصحفى .

المنصور على الصعود والترقى فى مناصب الحكم . وعمل المنصور فى جد وإخلاص على إنفاذ سياسته ، وزاد فى محبة الأمة لما ما تجردا له من كسر شوكة الصقالبة وتشتيت كثير منهم . لأنها كانت تبغض الجنود الغرباء . ولكن الوفاق بين الرجلين لم يكن طويل الأمد . فإن المنصور كان ينتظر أن يرى طريقه واضحة للتخلص من الحاجب . ويتحين الفرص للقضاء عليه من غير تردد أو خشية . لأنه كان يريد أن يصل إلى القمة . وأن تضيع شهرته وترتفع مكانته بين الناس .

وقد لاحت له لائحة فاقتنصها فى شجاعة وحزم . ذلك أن نصارى الشمال عادوا إلى الشغب والمغالاة بقوتهم . ولم يكن المصحفى جنديا . فتحير فى اختيار من يصد اعتداءهم . والمنصور القاضى لم يكن أمهر منه فى إدارة الحرب . ولكنه نبع من أسرة قوية النبعة . إذ كان أحد أسلافه من العرب الذين صحبوا طارقاً فى غزو أسبانيا . لذلك لم يتردد لحظة ولم يخجله شك فى كفايته حينما طلب أن يقود الجيش بنفسه . وكانت غارته على ليون موفقة . وكان إغداقه على الجنود عظيماً . حتى إنه حينما عاد إلى قرطبة لم يكن القائد المظفر فحسب . بل كان موضع محبة الجيش وإجلاله .

ثم جردت حملة أخرى على نصارى الشمال . وكانت القيادة فى الحقيقة لغالب قائد الجنود الغرباء . وكان شجاعاً بأسلاً اجتذبه المنصور إليه معتزاً بصداقته . فأعلن غالب فى صراحة وجرأة أنهم ما فازوا فى المعارك إلا

بعبقرية المنصور وذكائه . وبالف في وصف مواهبه وأغرق^(١) حتى اعتقد الناس جميعاً أن تحت رداء الفقيه القديم نبوغاً عسكرياً . وكان الأمر كذلك من غير شك .

وحيثما أحس المنصور بالقوة بعد هذه الانتصارات المتوالية . وبعد معاضدة غالب له واحتطابه في حبله - أقدم على عزل ابن المصحفي ، وكان رئيساً لشرطة قرطبة . وأحل نفسه مكانه . فأحسن القيام على الشرطة حتى إن المدينة لم ترف في عهودها عهداً استتب فيه النظام . وخضع الناس فيه لأمر الحاكم كما رأت في عهده . لأنه كان شديد العنف في الحق ، حتى إنه ضرب ابنه حتى مات حينما تعدى حدود الشرع : وما أشبهه بجيونييس بروتس^(٢) الذي كان لا يتجاوز عن صغيرة في تنفيذ القانون . وقد أعلت هذه السياسة من شأنه وزادت في محامده . لأنه بعد أن اكتسب قبل ذلك محبة الجيش والأمة . فاز برضا المتشددين في أحكام الشريعة . ونضجت الثمرة وأن له أن يضرب ضربة سياسية جديدة ، فأخذ في مهارة يلعب بغالب والمصحفي ويوقع ما بينهما . حتى اتسعت شقة الحلف بين القائد المحنك والمصحفي رئيس الوزراء . وكانت الضربة القاصمة أن

(١) في الحفل السنوية للأمير شبيب أرسلان : أن غالب بن عبد الرحمن كان من أشهر قواد بني أمية . فهو الذي رم حصون مدينة سالم سنة ٨٣٣٥ وهو الذي زحف على قشتالة وأوقع بأهلها سنة ٣٤٢ وفي إحدى غزواته بير المدوة استصعب القاضي محمد بن أبي عامر وانقضت بينهما مودة أكيدة .

(٢) روماني انتخب حاكماً للدولة حوالي سنة ٥٠٩ ق . م . وحين علم أن ولديه اشتركا في مؤامرة لقلب نظام الحكم ، حكم عليهما بالإعدام .

أغرى القائد على العدول عن تزويج ابنته بالمصحفي ، واتخذها زوجة له . وفي سنة ٩٧٨ م (٣٦٨ هـ) بعد وفاة الحكم بسنين رمى المنصور بآخر سهم في كنانته ، فاتهم المصحفي بالخيانة والسرقة وأثبت عليه ذلك بأدلة كثيرة ، وألقاه في السجن حيث بقى به خمس سنوات في أسوأ عيش وأذل مكانة ، ثم مات أشنع ميتة مسجى برداء ممزق للسجان ، ويقال : إن المنصور دس له السم . وهكذا كانت نهاية كل من جرؤ على أن يقف في طريق مطامع المنصور . فقد آل تعس الطالع بالمصحفي الحاجب إلى الفقر والعار ، بمكايد هذا الشاب المحدث ، الذي لم يقف خمول أصله في وجه عبقريته . بعد أن وصل الحاجب إلى قمة المجد والسلطان ، وجئت الآلاف من الراجين عند قدميه ، وحاول ملك ليون المعزول تقبيل يديه .

وفي اليوم الذي قبض فيه على المصحفي جلس المنصور في مكانه ، فوصل إلى ذروة القوة ، وأصبح في الحقيقة حاكماً للمملكة الإسلامية بالأندلس . وكانت تتألف حكومة الأندلس من الخليفة ووزرائه ، ولكن المنصور قصر الخليفة بالقصر ، وطوى الوزراء بآرائهم ومشوراتهم في شخصيته العاتية ، وكان يحكم المملكة كلها من قصره في أحد أرباض قرطبة^(١) . وأصدر الكتب والأوامر باسمه . ودعى له على المنابر ، وضربت باسمه السكة . ولبس الملابس المنسوجة بالذهب ، وقد نقش اسمه عليها شأن الخلفاء . وكيفما استوى له الأمر فإنه لم يكن بنجوة من كيد أعدائه ،

(١) بنى مدينة الزاهرة بطرف قرطبة على نهرها الأعظم سنة ٣٦٨ هـ وانتقل إليها سنة ٣٧٠ هـ .

فإن المطامح لها خطرهما ، ولا بد للمضطهدين الذين ديس عليهم بالأقدام أن يثوروا يوماً للأخذ بثأرهم . وهكذا كانت حال المنصور ، فإن أحد الصقالبه الذين طردهم من القصر حينما رفضوا تولية الخليفة الصغير حاول اغتياله فلم يفلح . فقبض عليه مع كثير من كبار الدولة المتآمرين معه ، وحبسوا ثم حكم عليهم بالموت فصلبوا^(١).

وأصبح المنصور الحاكم الأعلى بقرطبة . لأن الخليفة الشاب لم يبد أى اعتراض على الوصاية التى فرضت عليه . وكانت أمه « صبح » لا تزال صديقة حميمة للمنصور . ولم يكن فى المملكة من يزعم أنه يقارع المنصور أو يدانيه فى القوة إلا غالب أبوزوجته . . . نعم إن الجيش أعجب بالمنصور وعجب من جرأته على قيادة الجيوش دون أن يكون له سابقة فى الجندية . ولكنه عشق غالباً وفنى فى محبته . لأنه كان شجاعاً حقاً وجندياً بفطرته . وله من المهارة والتدابير فى الحرب ما لا يغلب . لذلك كان غالب منافساً مخيفاً للمنصور ، وكان يجب أن يزول من طريقه ، فاتخذ كبير الوزراء العدة لذلك بطريقته الناعمة . وعزيمته الهادئة .

وكلما حاول المنصور عملاً سار فيه بثبات لا يتزعزع . وإرادة من الحديد . ومن الأدلة الغريبة على أخلاقه : أنه كان مرة جالساً فى مجلس الوزراء وكان القوم يتحدثون فى بعض الشؤون العامة ، إذ اشم من بالمجلس رائحة لحم يشوى ، وظهر لهم بعد ذلك أن الرئيس كان أحضر كواء لكى ساقه بينما كان يناقش زملاءه فى هدوء وسكينة .

(١) كان عدد الصقالبه الذين نكبهم فى هذه الحادثة ثمانمائة أو يزيدون .

ومثل هذا الرجل لن يصعب عليه القضاء على أية عقبة . ولو كانت القائد غالباً . فقد دبر مكايده بعناية فنجحت جميعاً . وإذا رأى في وسائله من الشدة ما لا تستسيغه الأمة عمد إلى تدبير آخر فيه رضاؤها واستعادة محبتها . فحينما أطفأ المؤامرة التي قام بها عدد من كبار الدولة لاغتياله على النحو الذي سقناه آنفاً . وأحس أن له أعداء بين الفقهاء ورجال الدين . أسرع إلى مهادنتهم . فدعا إلى عقد اجتماع من زعماء الفقهاء . وطلب إليهم أن يكتبوا رقاً بأسماء كتب الفلسفة التي يرون فيها خطراً على الدين وخروجاً عليه . وشهرة مسلمي الأندلس بشدة التخرج في الدين معروفة . فطالبوا لى الفلاسفة منهم عتاً . لذلك عجل الفقهاء وقدموا إليه قائمة بالكتب المقضى عليها بالإعدام . فأسرع المنصور إلى إحراقها علناً في الميادين . والمنصور كان من غير شك واسع الأفق ، فسيح الصدر للفلسفة . ولكنه فاز بهذه الوسيلة السهلة بأن يدعى : حامى الإسلام . وبألا يأتربه الفقهاء مرة أخرى .

إن رجلاً مثله واسع الحيلة لن يعجز عن التخلص من غالب . فعمد أولاً إلى إحداث بعض الإصلاح في نظام الجيش . فحد من سلطة القواد وأحتلس هذه السلطة لنفسه . ووصل إلى هذا باجتلاب جنود كثيرة من إفريقية ونصارى الشمال . الذين ما كانوا يأنفون من بيع أنفسهم وسيوفهم لأى قائد مسلم . فأحبوا المنصور وأخلصوا له حينما رأوا سخاءه ، وتوالت لديهم الأدلة على نبوغه الحربى . وقد كان دائماً قاسياً : أمر مرة أن يقطع رأس جندى بالسيف الذى كان يحمله . لأنه لمح وميضه وقت أن

كان يجب أن يكون مغمداً . ولكنه كان في غير أمور النظام والتدريب
أباً لجنوده . ما داموا يحسنون القتال . ويفعلون ما يؤمرون .

وكان تأثيره في جنده لا يحد : كان مرة في خيمته فرأى جنوده يفرون
في دعر . والنصارى في أعقابهم . فرمى بنفسه من كرسيه وقذف بخوذته
بعيداً . وجلس فوق التراب . فقهرهم الجند ما أبداه قائدهم من أمارات
اليأس فعادوا أدراجهم . وهاجموا على النصارى فاستأصلوهم . وتبعوا
الفتارين إلى شوارع ليون .

ثم إن الجند لم يجدوا من يسوقهم إلى مغنم كثيرة كالمنصور . الذي
قادهم إلى النصر في أكثر من خمسين غزوة^(١) شها على أمراء الشمال .
لذلك ازداد تعلق الجيش به . ودوى نجم غالب وأنصاره من المقيمين بالحدود .
ثم مات غالب في إحدى المواقع . وظهر قائد آخر هو جعفر صاحب
المسيلة . الذي أزعج المنصور بشهرته العظيمة بين جنوده . فدعاه إلى بهو
الرياسة وسقاه الخمر حتى غلبه السكر . وحينما عاد إلى داره قتل في الطريق .
ولهذه الفعلة الشنيعة التي تدل على غدر المنصور وتلطخ يديه بالدماء أخوات
سلبته صفة البطولة . بعد أن كان يستحقها بأعماله الالامعة . وجعلت ميل
القلوب إليه مستحيلاً .

على أن صلابته وإقدامه وصلاً بالأندلس إلى قمة من الغزو والصولة تبعد
عن أي خيال . حتى عن خيال الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر . فإن
هذا الرجل الذي لا ينال منه التعب ولا يمسه اللغوب . شن على إفريقية

(١) في نصح الطبيب : أنه غزا سنا وخسين غزوة .

حرباً شعواء . فوسع رقعة الدولة على شواطئ البربر . وغزا نصارى ليون وقشتالة كل عام مرتين . مرة في الربيع وأخرى في الخريف (١) . بينما كان يضغط في قرطبة بيد من حديد على العشائر المتنازعة ويستل شوكتها . وبينما كان يتقرب إلى نفوس الشعب بزيادة المسجد الجامع زيادة فخمة رائعة . حينما شعر بأن الأمة أخذت تغضب للعزلة التي ضربها على خليفتهم الشاب . وتنصت إلى إغراء السيدة « صبح » ورجال القصر الذين سثموا المنصور وحسدوه .

وكان يشرف بعين لا يفر منها شيء على كل قسم من أقسام إدارة الدولة . ويهب كثيراً من وقته لإتناء الأدب وإنهاض الشعر - فقد كان أديباً بطبعه . وكان يأخذ كتبه أينما ذهب بسينته . ولم تكن كتبه إلا الشعراء الذين كانوا يصحبونه في غزواته . ولم ينل قائد ما ناله المنصور من الانتصار في كل موقعة . فقد قذف نصارى الشمال بالحديد والنار . مؤيداً بجنوده الغرباء الأشداء . وبكثير من الجنود المسيحيين الذين جذبتهم إليه كثرة ما يصيبون في ظل قيادته من مغام .

واستولى على ليون . وأتى على بنيان أسوارها الضخمة وقلاعها من القواعد . وقهر برشلونة . والأدهى والأمر أنه خاطر بنفسه وبجيوشه في شعاب غاليقية وجعل كنيسة شنت ياقوب ركاما . تلك الكنيسة الرائعة التي كانت ملتقى الحجاج . والتي كان هذا من المنزلة بأوروبا ما يقرب من منزلة الكعبة عند المسلمين .

(١) في نفع الطيب : واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف .

ولم يمس بسوء قبر القديس يعقوب الذى ينسب المسيحيون إلى ما فيه من آثار القديسين كثيراً من الخوارق . ويقال إن الفاتح حينما دخل المدينة بعد أن هجرها أهلها لم يجد بها إلا راهباً جاثياً أمام القبر المقدس . فسأله المنصور : ماذا تعمل هنا ؟ فأجاب الراهب الحرم : إني أصلى^(١) فامتنع المنصور عن قتله ، ووضع حراساً لحمايته وحماية القبر من غضب الجنود الذين انطلقوا يهدمون كل شيء في المدينة .

وكان المنصور جديراً بلقبه الذى ناله بحق بعد إحدى هذه المواقع .
وبتوالى الغارات على الشمال .

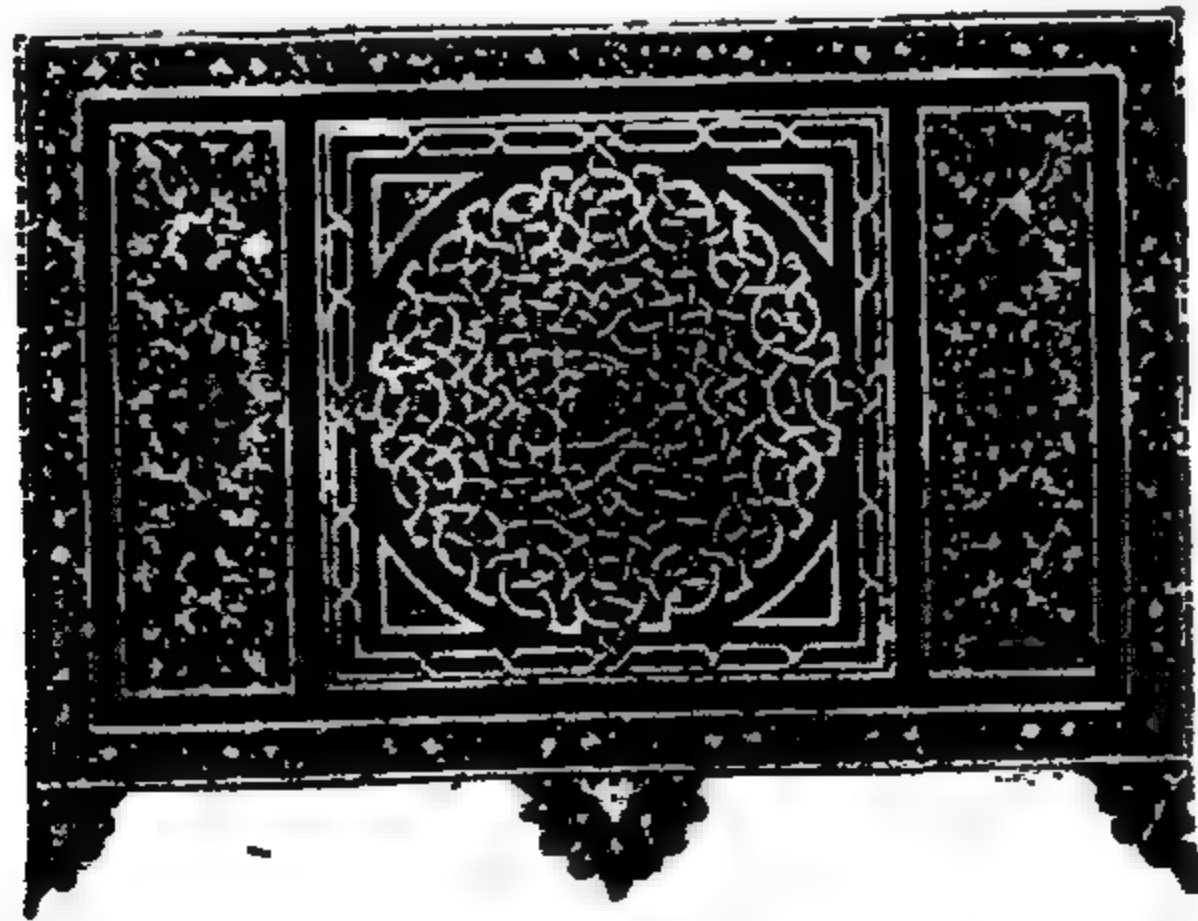
بقى أمراء المسيحية مغلولي الأيدي . وخضعت ليون والممالك المتاخمة لها . وأدت الإتاوات إلى قرطبة . فقد تكررت هزائم قشتالة ، وبرشلونة ونافار . واستولى المنصور على ليون ، وبنبلونة ، وبرشلونة . وشتت ياقوب . وحمل مرة ملك نافار على أن ينجو أمامه ذليلاً على ركبته ، لأن الوزير - وهو لا يتجاوز عن شيء - علم أن امرأة مسلمة مأسورة بمملكته ، فأطلقت في الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار .

وحدث مرة : أن المنصور كان يحارب في الشمال ، فسد جيش النصارى عليه وعلى جيشه الطريق إلى قرطبة ، واحتلوا موقعاً حصيناً لا ينال . فلم يفت ذلك في عضده ، وأمر جنوده أن يعيشوا بأرض الأعداء حولهم . وأن يجمعوا ما يستطيعون لبناء الخيام واستقرار الإقامة ، ولم يجرؤ النصارى على منازلهم . لأنهم وثقوا من أنهم سيأسون ويسلمون . ولكنهم دهشوا

(١) في نفع الطيب أنه قال : إني أونس يعقوب .

حينما رأوهم يقيمون المعسكرات ويحرثون الأرض ويزرعونها . وحينما سأوهم
 في عجب واستنكار عما يعملون . كان الجواب الجادى : « إتنا رأينا أن
 الوقت لا يتسع للعودة إلى قرطبة . لأن موعد الغزوة الثانية أصبح قريباً .
 لهذا عزمنا على الإقامة هذه الفترة القصيرة » ففرغ النصارى وهلم أن
 يكون احتلال المسلمين دائماً . ونزلوا من معاقلهم . وفتحوا الطريق لهم
 ليعودوا إلى قرطبة آمنين محملين بما نالود من ثقل . وزاد بهم الخوف
 فأعطوهم كثيراً من الحقائق والبغال . ليحملوا عايها الغنائم ...
 إن المنصور الذى لم تغلبه الرجال غلبه الموت !!

فإنه مرض ومات بمدينة سالم^(١) « حينما كان فى آخر غزواته المظفرة
 لقشتالة^(٢) . وتنفس النصارى الصعداء لموته . ودل على هذا الارتياح
 عبارة موجزة دونها أحد الرهبان فى تقويمه . وهو : « فى سنة ١٠٠٢ مات
 المنصور ودفن فى الجحيم » .



(١) مات سنة ٣٧٤ هـ .

(٢) يسمى العرب هذه الغزوة : غزوة قتالش والعر .

عَوْدَةُ الْبَرْبَرِ إِلَى الْحُكْمِ

تتدلى أحسن الممالك نظاماً وأضبطها حكماً إلى الفوضى والاضطراب .
حينما تزول العزيمة التي كانت تهديها سواء السبيل . وبهذه الحقيقة وأمثالها
تمسك من يرون أن خير أنواع الحكم أن يحكم الشعب نفسه . وقد قيل :
إنك إذا قدت الأمة بخيط فوهى أو انقطع . فإنك لا تدري في أى طريق
ستذهب الأمة . وهذه النظرية صادقة على إطلاقها . فمن الشعوب ما هو
دائماً في حاجة إلى خيط يقوده . وليس في العالم شعب يستغنى تمام
الاستغناء عن الاهتداء بعقل مسيطر . على أن هذا الاستغناء ليس في منفعة
الشعوب في شيء إلا إذا عدت الركود مثلاً في الحكم صحيحاً .

والأندلس في أية حال لم تستطع الاستغناء عن يقودها . فإذا مات
قائدها وحاكمها سقطت معه الدولة . فهي على حد ما قيل : « حينما يسقط
سيزار العظيم . فإننى وأنت وجميع الأمة نسقط معه » . ولم يكن ذلك في
الأندلس عن محبة للحاكم أو انعطاف نحوه . ولكن كان عن عجز وخور .
فإن كثرة العشائر المتنازعة والقبائل المتنافسة . جعلت الوصول إلى ما يشبه
الاستقرار في حكم الأندلس مستحيلاً . ولن يكبح من جماح هذه العشائر
أو يقل من غرب هذه القبائل إلا يد قوية .

واعتبر هذا بما تقرأ في تاريخ إرلندة عن العداوة المتأصلة بين سكان

الشيء وسكان الجنوب - تعلم أن العرب ليسوا وحدهم الذين رأوا أن من الاستحالة حكم أمة تختلف فيها العناصر والأديان بالسهولة التي تحكم بها أمة متماثلة الأفراد في الجنس والدين . وتاريخ الأندلس كما قصصنا عليك كان حوادث متعاقبة في صعود وهبوط . فقد شهدنا فيه أول الأمر غارة عنيفة رائعة لجنود موهوبين . انتهت بفتح لم يكن منتظراً ولا مرتقباً . وما كاد يتم فتح الجزيرة . حتى رأينا العشائر المتنافرة التي تجمعت لهذا الفتح المبين تنطلق من عقابها . وتدمر ثمرات الفتح التي جناها السيف واغتصبها الإقدام .

ثم نرى الشمري الذي خلق ليكون ملكاً - وهو عبد الرحمن الداخل - فترى الأندلس وقد عادت مرة أخرى إلى وحدتها وقوتها .

وكان من عادة الفرس عند البدء بمخاطبة ملوكهم أن يقولوا : « أيها الملك أبقاك الله » وهذا الدعاء يوحى إلى النفس بأنه لو صح وتحقق لكان حلاً لكثير من المشكلات السياسية . على شريطة أن يكون المدعو له بالخلود ملكاً صالحاً . وأول ملك بالأندلس لم يكن بطبيعة الحال خالداً . وكان من أثر موته ما كان يحصل دائماً حينما يزول الضغط القوي الحازم . فارتكست الأمة في الفوضى والحروب الأهلية ، ثم جاء ثانية الملك الملهم لإنقاذ الأمة مما هي فيه ، وهو الخليفة العظيم ، فألزم الناس القانون والنظام في جميع أرجاء الأندلس ، وهزم الواثيين على المملكة ، وداس العصاة بقدميه ، وبقيت الأندلس خمسين عاماً في عهده فردوس سلام وازدهار . ولو قدر لعبد الرحمن الناصر أن يكون خالداً في هذه الدنيا ،

لبقى السلام ورفرفت الطمأنينة على ربوع الأندلس إلى اليوم . وما كنا نسمع بشيء مما حاق باليهود والعرب في ديوان التفتيش من القتل والقسوة الوحشية ، ولا بشيء من أخبار الكارلوسيين (١).

ومن المحزن أن هذا الدعاء ببقاء الملوك الصالحين لا يمكن أن يتحقق . ولكن الخليفة العظيم لم يترك المملكة خلواً ممن يصلح لقيادتها . فإن أسبانيا أنقذت بالملوك مرتين . والآن ينقذها ويجمع شتاتها كبير الوزراء وهو المنصور الذى لا يغلب . والذى نفذت سلطته إلى كل زاوية من زوايا الأندلس . ولكن المنصور أيضاً لم يكن خالداً . حينما مات « ودفن في الجحيم » كما كان يأمل الراهب المتبتل – أصبحت الأندلس التى بلغت فى عهده قمة الثروة والقوة . وعاشت فى كنف السلامة والنظام . فريسة للقوى المتنافرة التى دفنتها عزائمه وسطواته فى جحورها . ففى غضون ثمانين سنة كان يمزق الأندلس تحاسد الزعماء وظلم العتاة من البربر والعرب والصقالبة والأسبان .

نعم إن جذور الحزبية كانت قد اجتشت من أصولها بمرور السنين ، وذهب عهد التفاخر بالأنساب والقبائل . لأن الناس نسوا أنسابهم ، ومع ذلك بقي بالأندلس من التنافس الشخصى والجنسى والدينى ما يكفى لجعلها جحياً أرضية ، من النوع الذى كان يتمنى الراهب المؤرخ أن يدفن المنصور فيه .

(١) هم أنصار الدون كارلوس البربونى ولد سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٥٥ وهو الابن الثانى لشارل الرابع ، وكان يدعى ملك أسبانيا .

واستطاع ابن المنصور وخليفته . أن يصون وحدة المملكة في مدى ست سنوات . تلاها انهماك سبل جارف من الطامعين المتخاطرين . والحلفاء المتنافسين . والأدعياء الوقحين . وكان الأسباب الذين يمثلون جمهرة الأمة يؤثرون أن يحكمهم ملك . ويحبون أن يتعاقب الملوك من أسرة واحدة . ويذكرون بالإعجاب ما كان للدولة الأموية العظيمة من أثر عظيم . ولم يكن من رأيهم في الحكومة أن يكون المسيطر فيها وزيراً كيفما كان عادلاً صالحاً . لأن الملك في زعمهم يجب أن يحكم الأمة بنفسه . لذلك رفعوا راية العصيان على ابن ثان للمنصور . وزاد في غضبهم أنه أعلن حقه في وراثة العرش . فمضوا إلى الخليفة هشام المؤيد وحثوا عليه أن يقبض على أزمة الحكم بيديه الضعيفتين الواهنتين .

وقد صعب على هشام المسكين أن يترع فجاءة من عزلته في القصر . بعد أن قضى فيها ثلاثين عاماً . سجيناً مغتبطاً بسجنه . فتوسل إليهم ألا يطلبوا منه المستحيل . ولكنهم أصرروا على ما يطلبون . فأطاعهم على الرغم منه . غير أنه حينما ظهر للناس جميعاً أن هذا الرجل الكهل كان أضعف من طفل . طلبوا إليه أن يعتزل . وأحلوا مكانه رجلاً من أسرته . وكان سقوطه في الحقيقة نهاية الدولة الأموية بالأندلس .

ثم جلس على العرش خليفة بعد خليفة في مدى عشرين عاماً . فكان أحدهم لعبة في أيدي القرطبيين وآخر لعبة في أيدي الحراس من الصقالبة . وثالث لعبة في أيدي البربر ، ورابع كان صورة تخفي وراءها مطامح أمير إشبيلية . ولكنهم كانوا جميعاً لعباً لبعض الأحزاب ، ولم يكن لهم

مظهر من النفوذ . وقد شهد بهو القصر قتلا بعد قتل كلما تلا خليفة خليفة .
وأخفى مرة أحد هؤلاء الخلفاء المساكين البائسين نفسه في فرن حمامه .
وحينما عرف مكانه جرد ذبح أمام الخليفة الحديد الذي لم يأت بعد دوره
وإن كان قريباً .

ثم ألزم هشام المؤيد المسكين — الذي نشأ المنصور وأمه « صبح » في
طفولة دائمة — أن يمثل دوره في صندوق الدنيا . فوضع على العرش ثم
خلع . فبدل بقيده الحريري في عزله بين الفواتن من نساء القصر ،
حيطاناً مظلمة لسجن حقيقى . ولا يعرف إلى الآن ما جرى له بعد ذلك ،
فمساواة يعلن أنه جاهد للفرار من سجنه والتجأ إلى آسيا أو مكة . لم يغر العرش
ذلك الملك البائس بشيء من مغرياته . لأنه كان يعشق العزلة والانقطاع
إلى العبادة . ولا بد أن يكون قد عرف أن بقاءه بالأندلس سيشجع مطامع
أنصاره . وأن ذلك سيؤدى حتماً إلى النزاع والتفرقة . فمن المعقول إذاً
أن يكون قد أثر أن يقضى بقية أيامه بمكة للعبادة والتبتل .

ثم ظهر دعوى يشبه هشاماً تمام الشبه . وزعم أنه هشام المختفى وادعى
ملك إشبيلية . فاعترف به حاكمها لأنه رأى فيه لعبة صالحة في يديه^(١)
ولكن هشام الحقيقى اختفى إلى الأبد ولم يسمع إنسان عنه شيئاً
بعد اختفائه .

والذى جرى لهشام المعتد بالله عند عزله يصور لنا ما وصل إليه خلفاء

(١) المعروف أن محمد بن عباد أمير إشبيلية هو الذى ادعى وجود هشام ثانية كذبا
وتحويها ليستعين بهذه الحيلة على أمره ويهدد خصومه .

بنى أمية التاعسون من الذلة والمهانة . بعد أن تركوا زمامهم للبربر المتوحشين . أو الصقالية يلعبون بهم كما يلعب بقطع الشطرنج ، فقد أمر رؤساء قرطبة أن يجر هذا الخليفة الرفيق الرقيق العاطفة هو وأسرته إلى سجن تحت الأرض مظلم . متصل بجامع قرطبة . فجلس الخليفة في هذا السجن الدامس الظلمة يرتعد من البرد ويتسمم بهوائه الفاسد من العطن ، وقد احتضن ابنته الصغيرة وأحاط به نساؤه يبكين ويولولن ويقضقطن في زمهرير قارس . وقد اشتد الجوع بالسجناء بعد أن تركهم السجناء القساة ساعات دون أن يفكروا في إطعامهم . ثم جاء الشيوخ ليلغوا هشاماً حكم المجلس الذي اجتمع في عجلة ليفصل في أمره ، ولكن الخليفة المسكين الذي كان يجهد في أن يبعث شيئاً من الدفء إلى ابنته التي كان يحملها بين ذراعيه قاطعهم قائلاً :-

« نعم نعم . إني سأخضع إلى حكمهم كيفما كان ، ولكني أسألكم الله تعالى أن ترسلوا إلى شيئاً من الخبز . . . إن هذه الطفلة الصغيرة ستموت بين يدي من الجوع » فتأثر الشيوخ لأنهم لم يريدوا أن يعذب الخليفة هذا التعذيب ، وأمروا فأحضر إليه الخبز ، ثم استأنفوا الكلام قائلين : « يا مولانا إن المجلس قرر أن تؤخذ عند الفجر لتسجن في قلعة كذا » . فأجاب الخليفة : « فليكن ، وليس لي الآن إلا رجاء واحد ، هو أن تأمروا لنا بمصباح ، لأن ظلمة هذا المكان الموحش ترزعجنا وتخيفنا » . . . وارجته . . لقد وصل الذل والشدة بحاكم المسلمين الزمى والدينى بالأندلس

إلى هذا الحضيض وهو أن يستجدي خبزاً وشمعة (١) !

وأمثال هذه الكوارث كانت كثيرة بقرطبة . فكل ثورة كان لها جناها المر من القتل والإرهاب ، فإن أهل قرطبة الذين ازداد عددهم كانوا يتزعون إلى الاستقلال وفرض إرادتهم على الحكام . وهذا الاعتداد بالنفس كان نتيجة ثروة الأمة . ونمو التجارة والصناعة فيها .

فحينما أسقطوا أسرة المنصور من الحكم ، ثار العامة كعادتهم وشفوا غليل غضبهم بنهب قصر المنصور البديع الذى بناه فى ربض قرطبة ليكون مقراً له ولرجال حكومته . وبعد أن انتهبوا ما فيه من الكنوز التى لا تقدر بثمن . تركوه طعمة للنيران . واستمرت المذابح والنهب والاغتيال أربعة أيام لا ينهه من حدثها أحد . وأصبحت قرطبة مجزراً .

وحيثئذ جاء دور البربر . وانتهى حكم الصقالبة الجبارين بحكم البربر القساة . الذين سموا ونعدوا بانتهاك المدينة . فحينما ساردهؤلاء البربر سار القتل والنهب وسارت النار فى إثرهم . فكم نهبوا من قصر ثم أحرقوه . وقد لاقت منهم مدينة الزهراء الجميلة التى كانت ريحانة الخليفة العظيم شر ما يلاقى . فقد استولوا عليها بخيانة . ثم انتهبوها ثم أشعلوا فيها النيران . ولم يبق منها من بدائع الفن الرفيع التى زينها بها الخليفتان إلا كومة من حجارة سفع . ووضعوا السيف فى حاميتها وفرسكانها معتصمين بالمسجد . ولكن البربر الذين خوت قلوبهم من الحشية والرحمة . أحاطوا بهم .

(١) لحق المعتد بالله بعد خروجه من السجن باني هود وأقام عنده ومات فى لاردة

وذبحوا في بيت الله الرجال والنساء والأطفال (سنة ١٠١٠) .

وفي هذا الوقت استقلت الولايات التابعة للخلافة ، بعد أن حطم الصقالبة والبربر العاصمة ، ووضعوا على العرش خليفة بعد آخر ، ونقلوا الخلافة من الأمويين إلى بني حمود ، أو حاولوا تجربة حكم البلاد بمجلس يؤلف من الزعماء^(١) ، فأصبح لكل مدينة أو مقاطعة أمير مستقل . وذهبت في الهواء تلك الوحدة التي جمع بها المنصور مختلف الأهواء والأحزاب . ولم يرتح الأسبانيون أنفسهم لهذا الانتقال السريع ، وإلى تمزيق الدولة إلى ولايات صغيرة : فرأوا والحزن ملء قلوبهم ما صارت إليه بلادهم . وكيف أصبحت نهياً مقسماً بين الغرباء . فقد نعم البربر بالجنوب . وأخضع الصقالبة الشرق . أما البقية فقد سقطت بأيدي بعض محدثي النعمة والنفوذ . أو بعض الأسر القديمة التي نجت من ضربات عبد الرحمن الناصر أو المنصور القاصمة .

وكانت قرطبة وإشبيلية — وهما أعظم مدن الأندلس — تحكمان حكماً جمهورياً في الصورة لا في الواقع . لأن سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سلطة الإمبراطور كل الشبه . وحكم في النصف الأول من القرن الحادي عشر نحو عشرين أسرة مستقلة . في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة . ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف . وبينهم : بنو عباد بإشبيلية ، وبنو حمود

(١) كما فعل أبو الحزم بن جمهور : فإنه حكم مملكة قرطبة حكماً يشبه الحكم الدستوري من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٤٣٥ فكان الذي يقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة ، ولما مات قام ابنه أبو الوليد بالأمر بعده على هذا التدبير إلى أن مات سنة ٤٤٢ .

بمأقعة والحزيرة . والأدارسة بغرناطة . وبنو هود بسرقسطة . وكان أقوى هؤلاء بني ذى النون . الذين ملكوا طليطلة . وحكموا بلنسية ، ومرسية . والمرية . وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحكم وإن كان أكثرهم عتاة جبارين . غير أنه مما يعجب له . أنهم كانوا جميعاً غطارفة مثقفين . يعضدون العلم والأدب . وكانت قصورهم مثابة للشعراء والمغنين . فقد كان المعتضد عالماً أديباً شاعراً . ولكنه نصب بيستانه خشباً غلق فوقها رؤوس أعدائه الذين قضى عليهم . وكان يستبشر ويتهيج برؤيتها كل يوم .

وقصارى القول : إن المملكة كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب . تشبه ما وصلت إليه عند تولية الخليفة الناصر . نعم إنه لم يتم بها عصيان من المسيحيين كما كان من ابن حفصون أيام الناصر . ولكن الفوضى كانت عامة . والخطر من سقوط الدولة وتحطمها كان بارزاً للعيان . فإن نصارى الشمال استجمعوا لاثوب . ورأوا الفرصة سانحة فهموا لا هتبالها . لأن الفونس السادس (الأذفونش) الذى وحد تحت إمرته أستورياس . وليون . وقشتالة . كان قد فهم ما يجب أن يفعله تمام الفهم . فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد خبله لملوك الطوائف مداً كافياً . ليشنقوا به أنفسهم . لأن هؤلاء الطغاة الذين لم ينظروا فى العواقب . ولم يعنوا إلا بأنفسهم . ولم يتركوا جهداً إلا بذلوه فى إضعاف منافسيهم . كانوا يحثون عند قدمى ألفونسو لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين — لذلك تقربت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونسو بتقديم الإتاوات . وكان ألفونسو يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته . لأنها

ثمن عطفه وحمايته ، ولأنه كان يريد أن يرضخ المسلمون من المال ، ما يكفي لحومهم ومحو آثارهم من أسبانيا .

وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش ألفونسو ، أو للخوف من غاراته العنيفة التي كان يشنها في كل مكان . حتى لقد وصلت جنوده إلى قادس .

وكان شمال أسبانيا فقيراً ممحلاً . وكان من أوصاحيك القدر ، أن يجمع ألفونسو من ملوك المسلمين ما يعد به العدة لدمارهم ، على أنه مهما اختلف هؤلاء الملوك وتحاسدوا . فقد كان لصبرهم على ألفونسو حد يقفون عنده ، فإنهم تيقظوا من سباتهم . وأحسوا بالخطر المحدق بهم ، وعملوا على دفع الكارثة عنهم . حينما علموا أن ألفونسو اخترق الأندلس على جواده آمناً مطمئناً . حتى وصل إلى أعمدة هرقل فتزل لبيترد في المحيط . وحينما رأوا أنه وضع حامية تزيد على اثني عشر ألفاً من الجنود الشجعان في حصن ليط . وهو في وسط بلاد المسلمين . ومنه كانت تخرج جنوده لتعيث ونهب وتغير . وحينما علموا أن لذريرق اليفاري أو السيد الكميدور^(١) احتل بلنسية مع القشتاليين . ونهب ما حولها من الأرض حتى صيرها قفراً ياباً . وحينما ظهر لهم جلياً أن ألفونسو لا يقصد إلا أن يعيد أسبانيا إلى المسيحية . وأن يستأصل شأقة المسلمين .

ولكن ملوك الطوائف كانوا على الرغم من تفاقم الخطب أضعف من ذات خمار . وكانوا في يأس من توحيد كلمتهم وتوابعهم على مكافحة

(١) يسميه صاحب فتح الطيب القنيطور .

العدو ، لكثرة ما بينهم من تحاسد وتنافس وغيره . لذلك صاروا إلى ما ليس منه بد . وهو دعوة الغرباء إلى عونهم .

وقد رأى بعضهم ما في هذه الدعوة من الخطر الخيق . ولكن المعتمد ابن عباد^(١) أسكتهم بقوله : « لأن أكون سائق جمال في صحراء إفريقية خير من أن أرعى الحنازير في قشتالة !! » . ولم تكن المعونة التي التمسوها بعيدة عنهم . فقد شبت ثورة في شمال إفريقية انبثق منها مذهب متعصب جديد ، سمي أصحابه بالمرابطين . وقد تغلب هؤلاء المرابطون على المملكة جميعها من الجزائر إلى السنغال . وكانوا من طابع طارق وأصحابه . وكانوا على أتم أهبة لاجتياز البحر والتغلب على أسبانيا الحصينة . وأظهروا للناس أن هذا الغزو مكرمة منهم وجهاد في سبيل الله . ولم تبدر منهم بادرة تدل على رغبتهم في الأندلس . غير أنهم نزلوا بأسبانيا . ومن حين أن ندرك أنهم نزلوها لتكون دار إقامة .

وحينما وصل المرابطون إلى الأندلس كأرجال الجراد . ليلتهموا المملكة التي قدمت نفسها لهم طعاماً ، كانت الطريق مذلة أمامهم . وابتهج الأندلسيون حينما رأوا فيهم ساعداً أزل مفتولا . جاء ليمحو الفوضى التي بددت هناءهم منذ أن مات المنصور العظيم . أما ملوك الطوائف أو صغار الطغاة : فمنهم من دعاهم للإقامة ببلادهم . ومنهم من لم يستطع مقاومتهم فصبر على مضض . ولكنهم اغتبطوا جميعاً بكبح القشتاليين .

(١) أشهر ملوك الطوائف ، شاعر ، أديب ، شجاع . أسره ابن تاشفين ومات

وكسر شوكتهم . وعند ما وصل يوسف بن تاشفين ملك المرابطين (١) إلى الأندلس . وتملك مدينة الجزيرة لتكون ميناء له وقاعدة لجنوده ، اخترق الولايات بجيوشه حتى التقى بألفونسو عند الزلاقة بالقرب من بطليوس . في الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) وصاح ألفونسو حينما رأى جيش الأسبان اللهم : « بمثل هؤلاء أحارب الشياطين والجن والملائكة » . على أنه مع هذا التجأ إلى حيلة ليدهم بها أعداءه من البربر والأندلسيين على غرة . ولكن يوسف لم يكن من الذين خداعه . فأحاط في مهارة وحذق بجيش القشتاليين من الأمام والخلف . ووضعهم بين نارين . فتحطم القشتاليون وهزموا شر هزيمة . على الرغم من المقاومة العنيفة وأساليب الحرب التي برع فيها هؤلاء الجنود المدربون . وفر ألفونسو — وما كاد يستطيع الفرار — بنحو خمسمائة فارس . وترك آلافاً مؤلفة من خيرة جنوده في الميدان . وبعد هذا النصر المبين . عاد يوسف بن تاشفين إلى إفريقية . وترك بالأندلس ثلاثة آلاف من جنوده لمعاونة الأندلسيين لأنه وعد ألا يضم الأندلس إلى مملكته . وبر بهذا الوعد . إلا في جزيرة طريف فإنه اختارها لنفسه .

فرح الأندلسيون بمقدمه وأطروا شجاعته . وابتهجوا بنجاة بلادهم ، وأعجبوا بسداجته وتقواه . إذ رأوا أنه لا يعمل عملاً إلا بعد استشارة الفقهاء . حتى إنه أبطل الضرائب بأسبانيا إلا ما أقره عمر بن الخطاب في

(١) خلف ابن عمه على بلاد المغرب فاستقر له ملكه ودانت بلاده . وكان شجاعاً داهية متشدداً في الدين ، توفي سنة ٤٩٣ هـ .

عهود الإسلام الأولى . ولكن طبقة المتعلمين بالأندلس كانت تسخر من جهله وجفوة أخلاقه . فلم يكن يحسن العربية . ولم يكن يدرك مرامى الشعراء إذا أنشده شاعر قصيدة في مدحه . وليس هذا بالنقص اليسير في رأى الأدباء الأندلسيين . الذين لا يغفلون عن إنشاد الشعر والاستشهاد به ولو كانوا في بحر من الدماء . فلم يكن يوسف في أعينهم إلا بربرياً . غير أن نقدهم لثقافته لم يكن له وزن ما داموا في حاجة إلى سيفه . أما جمهرة الأندلسيين : ففكروا في رفاهيتهم أكثر مما فكروا في علمه . وكانوا على استعداد لقبوله مسرورين ملكاً على الأندلس . وفي سنة ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) استجدى ملك إشبيلية عون المرابطين ليصدوا عنه غزوات المسيحيين . الذين استمروا في عدائهم وطفقوا يرسلون غارات مستمرة من حصن ليط .

أجاب ابن تاشفين الدعوة مظهرًا التناقل وعدم الرغبة . ولكنه في هذه المرة وجه هجومه إلى ملوك الطوائف . وإلى نصارى قشتالة على السواء . وملاً الملوك الأغبياء أذنيه بشكوى بعضهم من بعض . وخيانة بعضهم لبعض . حتى عرفهم يوسف جميعاً . ولم يثق بهم جميعاً . وكان يعتمد على الأمة وعلى الفقهاء الذين أحلوه سريعاً من عهده بألا يضم إليه الأندلس . وغالوا فأدخلوا عليه : أن مما يجب عليه - إرضاء لربه - أن يعيد السلام والرفاهية إلى هذه البلاد المنكوبة .

أطاع ابن تاشفين نصيحة الفقهاء . لما كان يخالجه من الطموح في ملك أسبانيا الذى كان يكتمه ويخفيه . فشرع في إخضاع أسبانيا قبل

اسباء سنة ١٠٩٠ فدخل غرناطة في نوفمبر . ووزع على قواده الكنوز العجيبة التي لم يروا مثلها أو ما يقرب منها في حياتهم ، من الماس والدر والياقوت والجواهر الثمينة . والحلى الذهبية والفضية ، والكؤوس الزجاجية وعناق البسط . وغير ذلك مما لم يسمع به من النفائس . ثم سقطت جزيرة طريف في ديسمبر . وشهدت السنة التالية سقوط إشبيلية وغيرها من كبار مدن الأندلس . وجرى ألفونسو جيشاً يقوده البرهانس فهزمه المرابطون . وأصبح القسم الجنوبي في أيديهم إلا مدينة بلنسية التي لم تفلح فيها محاولة . ما دام السيد الكبيدور يتولى الدفاع عنها . وفي سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) سقطت بلنسية بعد موته . فغدت الأندلس الإسلامية كلها - حاشا مدينة طليطلة وريّة - تابعة لمملكة المرابطين بإفريقية .

رضى جمهور الأندلسيين إلى حين - ولحاجة في أنفسهم - عما آلت إليه البلاد بعد دعوة المرابطين إليها . ولكن قلة من عظماء الأندلس والمتقنين . كانوا ساخطين على تلك الحال . فإنهم كانوا يحكمون بطائفة من الدينين المترمتين^(١) كما كانت تحكم إنجلترا في أحد عهودها . ولكن إنجلترا ظفرت بملتون^(٢) شاعر هذا العهد . فخفف من شدته وعبوسه . اشتمأز الشعراء من جفوة البربر وخشونتهم وجهلهم . فإنهم لم يفهموا روائع أشعارهم . وإذا حاولوا التشبه بملوك الطوائف الأدباء البارعين في ذوقهم

(١) يشبههم المؤلف باليوريتان أو الأقياء : وهم صنف من البروتستانت متشدد في الدين وكان لهم نفوذ أيام حكم كرمويل .

(٢) شاعر إنجليزي من الدرجة الأولى اشتهر بالنقد اللاذع الساخر ، ١٦٠٨

المرهف ونقدمهم الدقيق . أتوا بما يستثير الضحك . ولم ير المفكرون في رجوع السلطة إلى الفقهاء المتعصين ما يبعث على التفاؤل . فقد كان هؤلاء أصحاب الرأي والشورى عند المرابطين . فحاربوا كل ما يتصل بالفلسفة . وحمدوا على أن يفهموا القرآن من تفسير مفسر واحد (١) . أما اليهود والنصارى فإنهم أدركوا سريعاً ما يفهم المرابطون من معنى التسامح . فقد قسوا في اضطهادهم . وجرّدوا عليهم سلاحين من القتل والنفي . وأما من بقي من الأسر القديمة ومن فر من السيف من ملوك الطوائف . فإنهم كانوا في يأس قاتل . حينما رأوا هذا الدخيل يعبد إلى أذهانهم أعمال البربر الشنيعة آخر أيام الخلفاء بقرطبة .

ولكن جمهور الأندلسيين كانوا في غبطة وسرور لاستيلاء المرابطين على الأندلس . فقد آمنوا على أرواحهم وأموالهم . وذلك شيء لم يستطيعوا تخيله أيام كانت المملكة ممزقة إلى ولايات . وكان أقوى الملوك من يستطيع أن يحصى رعيته حول قلعته . وأيام كانت الطرق غاصة بعصابات اللصوص . وأيام كان النصارى يغيرون على القرى وينهبون البلاد . أما الآن فقد استتب النظام والهدوء ولو إلى حين . وخضع الناس للقانون . وهزم النصارى فعادوا إلى حصونهم . وأخذ الناس مرة أخرى يحلمون بالثروة والرفاهية .

ولكن هذا الحلم كان وهمّاً وخيالاً باطلاً . فإن القدر لم يدخر نجاحاً ولا

(١) في أخبار المغرب للمراكشي : وكان لاييت حكومة في صغير ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء ، وقرر الفقهاء عنده تقيع علم الكلام ، وأمر بإحراق كتب الفيزياء لما دخلت الأندلس .

سعادة لرعية المرابطين : فقد أصاب البربر ما أصاب الرومان والقوط من قبلهم . فإنهم جاءوا إلى أسبانيا غلاظاً شداداً . لم يعتادوا النعيم والرفه . يتفاخرون بالشجاعة والقوة . ولهم قلوب يملؤها تعصب ديني غصوب ساذج . ولكنهم لم يلبثوا بها إلا قليلاً متمتعين بثمار انتصارهم . حتى أصيبوا بفساد الأخلاق وانحطاط العزائم الذي أصاب جنود (هانيبال) حينما استنهموا إلى لذائد الحياة في (كابو)^(١) . فقد البربر الميل إلى الحرب . والإقدام على الأخطار . واحتمال ويلات القتال . أو قل : إنهم فقدوا رجولتهم في أقصر ما يتصور من زمن . فلم يكن لهم بعد عشرين عاماً جيش يعول عليه في صد هجمات القشتاليين . بل كان جيشهم حشداً غير منظم من حطام آدمى . وكسالى بائسين أدمنوا الخمر . وخذعوا فتوتهم فبددوها . وأصبحوا عبيداً لكل شهوة تجعل الرجل جبناً رعيدياً .

وبدل أن يصونوا النظام كانوا هم أول العابثين بالنظام . فقطعوا الطريق على المسافرين وسرقوا كلما لاحت لهم لائحة ، ووصل الضعف بحكامهم أن صاروا تحت سيطرة العواهر من النساء . والطامحين من الفقهاء . فنقضوا اليوم ما أبرموه بالأمس . ومثل هؤلاء لا يطول بهم الحكم : فإن ثورة جامعة قامت بإفريقية للقضاء على المرابطين . وجدد القشتاليون بقيادة ألفونسو « المحارب » غاراتهم على الأندلس . ففي سنة ١١٢٥ عاثت

(١) مدينة من أجل مدن إيطاليا وأمنها حصانة ، حاصرها الرومانيون حتى كاد يهلك أهلها فاضطر هانيبال إلى تسليمها حوالي سنة ٢١٠ ق . م .

جنودهم في الجنوب سنة كاملة . وفي سنة ١١٣٣ أحرقوا أرباض قرطبة وإشبيلية وقرمونة . وانتهبوا شريش وأشعلوا فيها النار . وامتدت غزوات النصارى من ليون إلى مضيق جبل طارق . أما الدولة الإسلامية حبال كل هذا فلم تفعل شيئاً . لذلك غضب الأهليون وثارت جموعهم . وطردها المرابطون من البلاد .

ويقول مؤرخ عربي : « وفي النهاية ... عند ما رأى الأندلسيون تحطم دولة المرابطون لم ينتظروا طويلاً . فكشفوا حجاب الرياء وأظهروا العصيان . وسمى نفسه بالملك واتخذ شعار السلطان كل حاكم صغير ، أو زعيم . أو رجل ذى شأن يستطيع أن يجمع حوله ثلة من الأنصار . أو تكون له قلعة يحتوى بها عند الحاجة . وصار الملوك في الأندلس بعدد ما فيها من مدن : فملك ابن حمدين قرطبة . وابن ميمون قادس . وحكم ابن قسى و « ابن وزير سيدارى » بالغرب . واللمتوني بغرناطة . وابن مردنيش ببلنسية . وبعض هؤلاء من الأندلسيين . وبعضهم من البربر . ثم اختفى جميع هؤلاء حينما ظهر علم الموحدين الذين أزاوهم عن عروشهم . وأخضعوا الأندلس جميعاً لحكمهم (١) .

وكان عبد المؤمن قائد الموحدين . هو الذى أزال ملك المرابطون في إفريقيا وأسبانيا .

(١) كان مبدأ غزو المرابطون لامتلاك الأندلس في سنة ٤٨٣ ، وحكمها منهم يوسف ابن تاشفين ثم ابنه علي بن يوسف ثم تولى بعده عمه إسحاق الذى قتله الموحدون سنة ٥٤١ .

السيد المنبارز

لقد آن لنا أن نتجه إلى أعداء العرب في الشمال . وقد ذكرنا آنفاً ما كان من أمر (بلای) . وكيف أنه جمع ما بقي من القوط في كهفه الذي لا ينال . ومعه بصلصة جبال (أستورياس) وكيف أن هذه الفئة القليلة اجتازت بعد قليل حدودها . وشجعها على التحدى والنضال ما شجر من الخلاف بين قبائل البربر . الذي انتهى بهزيمتهم عند الحدود الشمالية للدولة العربية .

جدد شيء من ذلك الحياة في هذه الفئة وقوى من عزمها . فاستعادت بالتدريج أكثر الأراضي التي في شمال جبال وادي الرمل . وأُسست مملكة ليون . ومقاطعة قشتالة . وكانت مملكة نافار تبعد نحو الشرق عند سفح جبال ألبرت (البرانس) . وذكرنا أيضاً كيف أن هذه الممالك المسيحية كانت في حرب مستمرة مع جيرانها المسلمين ، وأنه كان في باب الظن أن تكون هذه الحروب خطراً على العرب . لولا ذلك الانقسام المستمر والخلف الدائم بين المسيحيين ، مما حمل بعض ملوكهم أن يلتزم الحيطة ويتجنب القتال . وكان من السهل اليسير على المسلمين أن يصونوا دولتهم مهيبة عزيزة الجانب ، أو بقيت مملكة قرطبة قوية غير متفرقة الأهواء .

ولكن حينما سقطت قرطبة . وأصبحت الأندلس نهياً مقسماً بين ملوك الطوائف . الذين لم يفكروا إلا في أنفسهم أولاً . ثم - إذا دعت الحال - في المملكة الإسلامية - تجرأ النصارى وتمكنوا من أن يستعيدوا من العرب عدداً غير قليل من البلدان . وقد شهدنا كيف أن النصارى زحفوا على أرض المسلمين بجيوشهم المظفرة . وضربوا الإتاوات على أعظم ملوكهم . حينما ازداد الاضطراب وعمت الفوضى في القرن الحادى عشر . وأصبح لكل مدينة دولة ولكل دولة أمير ووزراء . . . في هذا الوقت جمع فرديناند الأول القسم الأعظم من الشمال تحت رايته . فألف بين الولايتين المتعاديتين : ليون . وقشتالة . وأضاف إلى ملكه : أستورياس . وغاليسية . وكان في هذا الحين أقوى ملك بأسبانيا جميعها ، وقد ضم إلى مملكته مدن البرتقال : لورميجو . وبازو . وقلمرية . وأخذ الإتاوات من ملوك : سرقسطة . وطليلة . وبطليوس . وإشبيلية .

نعم إن رأيه السقيم في تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة وبنتيه جر على الشمال بعد موته ويالات متصلة الحلقات من الحروب الأهلية . ولكن ألفونسو السادس « الشجاع » تمكن في النهاية من ضم أشتات المملكة . فانتعشت القوى المسيحية ، وأصبح تغلبها على أعدائها من الحتم المحقق .

ولم يمنع المسيحيين من قهر الأندلس واستردادها في هذا الحين الذى ضعفت فيه العرب ، إلا ما كان يبعث به إليهم ملوك الطوائف من الرشا التى تأبى على الحصر . ليشتروا بها كفهم أو عونهم . وإلا ما كان يظهر في الأفق البعيد من جيوش المرابطين . وعلى أية حال لم يكن ملوك الطوائف

حكاماً مستقلين . لأنهم وقعوا بين شقي رحا : من الخوف من ألفونسو .
ثم من الخوف مما هو أعظم خطراً من ألفونسو . وهو تغلب حلفائهم
المرابطين . ولكنهم في النهاية اضطروا إلى اللجوء إلى المرابطين .

ويظهر لنا في هذا الوقت تدخل النصارى في أكثر شؤون المسلمين
السياسية . ونرى التحالف بين الفريقين مشتبك العرا . وأن كثيراً من
جنود النصارى المرتزقة كانوا ينضمون إلى جيوش العرب في حروب مدمرة
للولايات المسيحية ؛ وأن كثيراً من العرب كانوا يعينون جيوش النصارى
على إخوانهم المسلمين

وقد نخطئ خطأ بالغاً إذا قدرنا لجنود ليون وقشتالة منزلة تقرب من
المثل الأعلى للبطولة والفروسية ؛ وأكبر في باب الخطأ أن نتخيلهم رجالاً
مهيئين مثقفين . فإن نصارى الشمال كانوا من كل وجه على النقيض من
منافسيهم العرب . لأن العرب — وإن قدموا الأندلس في جفوة طبائع
القبائل وخشونتها — رقت أخلاقهم بالاختلاط بالأندلسيين وبميلهم
الطبيعي إلى المرح والترف . فوصلوا إلى قمة المدنية وأغرموا بالشعر والأدب
وتجردوا لطلب العلم . وأحبوا فوق ذلك أن يتمتعوا بكل لذائذ الحياة .
وقد كان ذوقهم العقلي والأدبي مبرهناً دقيقاً . وكان لهم ذلك الإحساس الذي
لا يشعر به إلا من نشأ نشأة سامية في العلم والأدب . وقد كانوا واسعي
التصور خياليين شعريين مفكرين . يمنحون من المال على مقطوعة
شعرية رائعة . ما يكفي للإنفاق على فرقة من الجنود . وكانوا ينظرون
باحترار إلى أقوى ملوكهم وأشدهم بطشاً إذا لم يكن شاعراً . أو لم يوهب

له ذوق فهم الفكاهة الشعرية والبلاغة العربية . ومنح هؤلاء القوم البارعون استعداداً طبعياً في الموسيقى . والخطابة . ودقائق العلوم . والنقد . وإدراك التوريات البعيدة التي نعدّها اليوم من ميزات الأمة الفرنسية .

أما نصارى الشمال : فكانوا على الخلاف من ذلك بقدر ما يتصور العقل من خلاف : كانوا في بداوة الأمم الناشئة على الرغم من أنهم أخلاف أمة قديمة . فكانوا جفاة غير مثقفين . وقليل من أمرائهم من كان له حظ من مبادئ العلم . وكانوا من الفقر وعسر الحال . أعجز من أن يتمتعوا بفنون الرفه التي يتمتع بها أمراء العرب . . . غير أنهم كانوا رجال حرب وجلاد . لا يقل نزوعهم إلى القتال عن نزوع أعدائهم المسلمين . وقد يفوقون هؤلاء في استعدادهم للنضال واحتمالهم الحرب الطويلة الأمد . وجرأتهم اليائسة المستميتة .

لقد كانوا رجال سيف ليس غير . وطالما دفعهم الفقر وحفزتهم الحاجة إلى خدمة أي إنسان كيفما كان . فكانوا يبيعون شجاعتهم لمن يدفع أغلى ثمن . لأنهم يحاربون ليعيشوا . وتاريخ القرن الحادي عشر لأسبانيا مملوء بالوقائع التي حارب فيها أبطال النصارى تحت راية المسلمين . ولكن ليس بين هؤلاء الأبطال من نال شهرة السيد بطل أسبانيا .

هذا السيد هو لنريق البيثاري . وقد سماه أتباعه من العرب بالسيد ، وكان من أسمائه أيضاً : الكبيدور ومعناها : البطل ، أو المبارز المتحدى . لأن شجاعته الفائقة في الحروب جعلته المبارز المشهود له بالسبق في المبارزات التي كانت تسبق التحام الجيشين .

ولم يكن أحد أبعد شهرة وأكثر انتصاراً في المبارزات من لدريق .
أو سيدى القنبطور « كما كان يحلو لأحد قدامى المؤرخين أن يدعوه »
ومن السهل حين أن نميز الصحيح مما شاع من الروايات عن ضروب
شجاعة السيد وإقدامه .. التي امتلأ بها تاريخه العجيب .

وأكثر ما حجب السيد إلى نفوس القشتاليين . عزوفه عن طاعة الملك
ألفونسو وإن عد ذلك مدون سيرته عيباً يحط من بطولته . فإن صاحب
هذه السيرة . أو المعين على جمعها . وهو ألفونسو العالم . لم يستطع أن
يتجاوز عن صلف السيد وتحديه لسلفه ألفونسو السادس . لذلك نلاحظ
في ترجمة سودى^(١) لسيرة السيد - وهي غنية باستشهادات كثيرة من قصيدة
السيد وغيرها - وقوفاً مقصوداً عن الاسترسال في الإطراء . وكبحاً
فجائياً لحماح الأناشيد . والقصص الموغلة في الملق والمديح . وبهذه
السيرة إسهاب كثير فيما لا يشرف السيد . أو يربأ به عن المذمة ، غير أنها
تصور أخلاق البطولة الحققة بما فيها من خير وشر . وتعرض صورة شائقة
عجيبة لهذا العصر المضطرب . ومثالا رائعا لهذا الفارس المعلم بين الفرسان
الأسبانيين .

ولو قصدنا إلى سرد قصة السيد كاملة للملأنا بها مجلداً ضخماً ، لذلك
نرى من الخير أن نقصر عنان القلم على اقتطاف بعض فقرات من سيرته .
ولسنا نعلم شيئاً عن بطلنا في أيام نصابه . والذي نعلمه عنه : أن أول ورود
لاسمه في التاريخ كان في سنة ١٠٦٤ حينما فاز بقلب المبارز ، لانتصاره

(١) روبرت سودى : شاعر كاتب أديب إنجليزي مات سنة ١٨٤٢

في مبارزة على أحد فرسان نافار ، وأنه عين إثر ذلك قائداً لجنود قشتالة ، وكان فوق العشرين بقليل ، ثم نعلم أنه ساعد سانشو أمير قشتالة على قهر أخيه ، بمفاجأة فيها كثير من معاني الغدر والحيانة . وإن عدت من الحيل الحربية في هذا الزمن الجافي الحشن . وبعد أن قتل بليدوسانشو عند أسوار زمورة ، لحق السيد بخدمة خلفه . وهو ألفونسو نفسه . الذي كان السيد سبياً في نفيه بعد انتصار أخيه سانشو عليه . وقد أحسن ألفونسو أول الأمر لقاء فارس قشتالة المظفر في قصره . وزوجه بنت عمه . ولكن جساد السيد ملثوا صدر ألفونسو بالسخائم والحقده عليه . ولم يكن منه سليم دواعي الصدر . فنفاه من مملكته سنة ١٠٨١ م (٤٧٤ هـ) . وتقص علينا سيرته ما أصابه بعد ذلك فتقول :

« وبعث السيد إلى أصحابه وأقاربه وخدمه . وأخبرهم بما آل إليه حاله . وما كان من أمر الملك بنفيه . ثم سأل عمن يريد منهم أن يتبعه . فنفاه . وعمن يريد منهم أن يقيم . فاتجه إليه الثارقانز « البرهانس » وهو من أبناء عجموته . قائلاً : « إننا أيها السيد سنتبعك جميعاً حيثما ذهبت . ولن نخفر لك عهداً . . . إننا سنسير معك في البدو وفي الحضر . وسنبذل في خدمتك بغالنا . وخيولنا . وأموالنا . وثيابنا إن شئت . وسنبقى لك أوفياء مخلصين مدى الحياة » . وأيد جميعهم مقالة الثارقانز فشكر لهم السيد عطفهم ومحبتهم ثم قال : إن القلك يدور . وإن الأيام قد تمكنه من توفية جزائهم .

« وعند رحيله أخذ يتلفت إلى داره . فغلبه الدمع وصاح : هذا من عمل

أعدائي . فالحمد لله على السراء والضراء . وزاد في شجونه أن رأى بهوه
 قفراً . وصناديقه مبعثرة ، وأبوابه مفتحة . ومشاجبه ملقاة على الأرض .
 ومقاعد فناء الدار وقد رفعت . والصقور التي كانت تعلو قممها وقد طارت .
 ثم اتجه إلى الشرق وسجد وهو يتمم : مريم .. مريم ... آيتها الأم
 المقدسة ... وبأيتها القديسون جميعاً . توسلوا إلى ربي أن يهب لي القوة
 لاستئصال الوثنيين . وأن يمنحني من غنائمهم ما يقدرني على مكافأة إخواني
 هؤلاء . ومكافأة كل من يتبعني ويعينني . ثم دعا القارقانز وقال له :
 يا ابن العم ... إن الأمة المسكينة لم يكن لها يد فيها رزأنا به الملك . فاعمل
 على ألا يصاب أحد منها بسوء في أثناء الطريق ... ثم دعا بفرسه ،
 وكانت امرأة عجوز واقفة عند باب دارها ، فمد رآته أجهشت بالبكاء
 وقالت : ارحل على الطائر الميمون أيها السيد . وانهب من الغنائم ما شئت .
 وبعد سماع هذه الوصية الغالية . ركب جواده وقال : أيها الأصدقاء . إننا
 سنعود بمشيئة الله إلى قشتالة متوجين بالشرف . فائترين بالغنم الكثير .
 وعند رحيلهم من بيقار^(١) . رأوا غراباً سانحاً . فلما وصلوا إلى برغش رأوا
 غراباً بارحاً .

« ولما دخل برغش كان برفقته ستون رجلاً . فهرع الرجال والنساء
 لمشاهدته عن بعد وهم حذرون . وأطل كثير من منافذ دورهم باكين
 محسورين . وصاحوا بصوت واحد : سبحان الله !! سبحان الله !! يا له
 من خادم كريم لو ظفر بسيد كريم !! وتمنوا أن يضيفوه في دورهم .

(١) اسم قصر السيد .

ولكنهم لم يجرعوا . لأن ألفونسو في حدة غضبه أرسل رسائل إلى أهل
برغش يحذروهم فيها من إيواء السيد . وينذر من يخالفه بمصادرة أمواله
وسمل عينيه . واستولى الحزن والهم على التصارى حينما شاهدوا هذه المرزاة
من بعيد . وأخذوا يخنفون حينما قرب السيد منهم . لأنهم كانوا يحذرون
مشافهته والقرب منه . فذهب السيد إلى « بوسادا » وهو الخان الذى كان
ينزل به . فرأى صاحب الخان قد أسرع بإغلاق بابه خوفاً من الملك ،
وعند ما صاح رجاله بأبى المثلوى أن يفتح الباب لم يجبه أحد . فقرب
السيد من الخان . وخلع قدمه من الركاب . وضرب الباب بها فلم يفتح ،
لأنه كان وثيق الغلق . وعندئذ خرجت فتاة صغيرة فى التاسعة من إحدى
الدور وقالت : أيها السيد . . . لقد نهانا الملك أن نؤويك فلم نستطع أن
نفتح أبوابنا لاستقبالك . ولو فعلنا لفقدنا دورنا . وأموالنا . وأعيتنا التى
فى رموسنا . . . أيها السيد . إن مصيبتنا بإيوائك لن تساعدك ، ولكن الله
وجميع القديسين معك .

« وعند ما علم السيد بما أمر الملك به . لوى عنان جواده نحو كنيسة
سنت مارى . وهناك ترجل وتجد . وصلى بقلب خافق يفيض رهبة
وخشوعاً . ثم ركب ثانية وغادر المدينة . حتى إذا كان غير بعيد من
نهر أرلنسون . عرس ودق أطنابه فوق الرمال . لأن أحداً لم يقبل أن
يضيفه . فأقام بين أنصاره وصحبه كما لو كان مقبلاً بين الجبال التى نخلت
من ديب الحياة .

« وأذنت الديكة بأصواتها البدية . وبدأت تبشير الصباح . عند ما وصل

السيد إلى دير سنت بدرو ، وكان إذ ذاك راهب الدير الدون سيوتو
يؤدي صلاة الفجر . ومعه الدونة شبانة زوج السيد ، في خمس من
وصائفها النبيلات . يدعون الله والقديس بطرس أن يعين السيد ويشد
أزره . فلما سمع الراهب صوت البطل لدى الباب كان سروره عظيما .
فخرج هو ومن معه إليه يحملون المشاعل والشموع ، وحمد الراهب الله
أن متعه بلقائه . وأخذ السيد يقص عليه كل ما حدث له . وما رماه به
الملك من النفي والاضطهاد . ثم منحه لنفسه خمسين دينارا ، وأعطاه مائة
دينار لزوجته وبنتيها وقال : أيها الراهب . إني أكل إلى رعايتك بنتي هاتين ،
بعد أن أتركهما ورائي . فاخفض لهما جناح الرحمة ، واعطف على زوجي
ووصيفاتها . فإذا نفذ هذا المال فأنفق عليهن سخيا مبسوط اليد . فإن كل
دينار يصرف عليهن سيرد إلى الدير أربعة دنانير . فوعده الراهب بأنه
سيفعل ما يؤمر بمشيئة الله . ثم تقدمت شبانة إلى زوجها وهي تحمل
طفلتها . كل طفلة فوق ذراع ، وحشت أمامه على ركبتيها وهي تبكي
بكاء شديداً . وتومئ إلى يديه بالتقيل . ثم قالت : انظر الآن كيف نبت
بك بلادك وشمت بك الأعداء والحاسدون . وانظر الآن ما صار إليه
أمرى وأمر بنتي الصغيرتين . وكيف حكم علينا بالفراق ونحزن أحياء ؟ !
أقسم عليك بحق مريم إلا ما أخبرتنى عما أفعل !! فحمل السيد طفليته
فوق ذراعيه وضمهما إلى قلبه . وانتحب طويلا . لأنه كان شديد الحب
لها . وقال : إني سأجيا بمشيئة الله ومشية السيدة مريم . حتى أزوج
ابنتي هاتين . وحتى أقوم بشرف خدمتك أيها الزوج النبيلة التي أحبتها

كنفسى . وأقاموا فى هذا الدير وليمة للبطل الكريم . وصدحت أجراس
الدير برنات البهجة والسرور .

ومضت ستة أيام من المهلة التى منحها ألفونسو إياه لمغادرة البلاد .
وبقى منها ثلاثة .

« وكان ألفونسو صلب العود عنيداً . فلو أنه بقى فى المملكة بعد انتهاء
المهلة يوماً واحداً ، ما استطاع أن يتقذه من برائته ذهب ولا فضة . وفى
هذا اليوم أولم مع أصحابه . ثم وزع عليهم فى المساء كل ما يملك . فأعطى
كل رجل على قدر منزلته . ثم أمرهم أن يتلاقوا بالدير عند صلاة الفجر
ليرحلوا معا . وقبل أن يصبح الديك كانوا قد أخذوا أهبتهم واجتمعوا
بالدير . فأدى بهم الراهب الصلاة حتى إذا انفتلوا منها أعدوا خيلهم
للرحيل . وهنا أخذ السيد يعانق شيانة وبنتيه ويدعو لهن . وكان فراقه
لهن أشبه بترع الظفر من لحم الأنامل . وعند مغادرة الدير طفق يبكى
ويكثر من التلفت وترديد الزفرات . فقرب منه القارقانز وقال : أين
شجاعتك أيها السيد ؟! لقد ولدت سعيد الطالع مجدوداً !! فكر الآن
فى سفرنا . واعلم أن هذه الأحزان ستقلب فى يوم سعادة وسروراً . »

عرض السيد نفسه على أمير سرقسطة^(١) ، وكان أقوى ملوك المسلمين
فى الشمال . فرحب به وبرجاله وضمهم إلى جيشه .

ومن هناك قاد السيد أتباعه إلى غارة بأراغون . وكانوا قد شغفوا به
ورأوا الغنم فى متابعته ، وكان سريع الضربة فى هذه الغارة خفيف الخطأ ،

(١) هو أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالقتدر .

حتى لقد قطع مسافات بعيدة في خمسة أيام . وفر بغنائمه قبل أن يشعر
النصارى بمقدمه . ثم قاد العرب لمحاربة كونت برشلونة ففاز فوزاً مبيناً .
حتى اضطر الكونت إلى محالفته .

وأعظم أعمال السيد تغلبه على بلنسية . وقصة ذلك : أن أمير سرقسطة
ندبه لحماية أمير بلنسية . بعد أن اضطرب بها جبل السياسة . وتفاقت
الأمور . فدخل المدينة أول ما دخلها مسالماً . والسيرة تقول :

« فذهب السيد إلى بلنسية . واستقبله الأمير يحيى بن ذى النون
أحسن استقبال . وعقد معه ميثاقاً تعهد فيه : أن يمنحه كل أسبوع
أربعة آلاف مرابطة^(١) لقاء إخضاع أهل الحصن لطاعته . حتى يؤدوا
إليه الإتاوة التي كانوا يؤدونها لأسلافة من أمراء بلنسية . وعلى أن يحميه
السيد من العرب والنصارى . وأن يتخذ بلنسية منزلاً له ومقاماً . وأن
يجلب إليها ما يسطو عليه من الغنائم لبيعه بها . وأن يتخذ بها أهراءه .
وقد دون هذا الميثاق حتى يكون حجة لكليهما . فأرسل السيد إلى من
بالحصن . يأمرهم أن يؤدوا الإتاوة إلى أمير بلنسية كما كانوا يفعلون من قبل
فقبلوا طائعين وتسابقوا إلى مرضاته »

ومنذ ظفر السيد بهذا المنصب . شرع يقود جيوشه المظفرة إلى الممالك
المصاوبة « فحارب دانية . وشاطبة . وأقام بها في أثناء الشتاء مدمراً عاتياً فلم
يدع حجراً على حجر من أريولة إلى شاطبة . وكان يبيع غنائمه وأسراه ببلنسية » .

(١) أصغر قطعة نحاسية بأسبانيا ، وهي أقل من الفاردينج الذي يقرب من المليم .
وفي الحلل السندسية : أن أمير بلنسية كان يمنعه عشرة آلاف دينار في كل شهر .

وفقد السيد سيطرته على بلنسية حيناً من الدهر . في أثناء هذه الحروب والغارات : ذلك أن ألفونسو سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) عاد فرضى عنه ومنحه حصوناً . وأقره على جميع ما استولى عليه في غزواته . وبهذا الإقرار أصبح السيد أميراً مستقلاً . غير أنه لم يمض من الزمن إلا قليل . حتى عاد الملك إلى الشك في أمره . والأخذ فيه بالشبهة . فاقتنص فرصة غيبته بالثمال . وأسرع فحاصر بلنسية . وحينما علم الكييدور بذلك اشتعل غضباً . ووجه انتقامه إلى مقاطعات ألفونسو . فدمر بالسيف والنار نافار . وقلهرة . وترك حصن لوكرني دكا . وجاء في بعض المدونات اللاتينية القديمة : « وعاث في الأرض جباراً نهاباً ثم غادرها قفراً يباباً . بعد أن احتجن خيراتها » فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار عن بلنسية . وعاد مسرعاً لإنقاذ مملكته . ولكن السيد بعد أن نال مأربه من غزو ممالك ألفونسو . سلك سبيلاً أخرى إلى بلنسية . فوجد أبوابها مغلقة دونه .

ومن ذلك الحين ابتداء ذلك الحصار التاريخي الذي لبث تسعة أشهر . لاقى فيه أهل بلنسية الشدائد والحن . فاشتد بهم الجوع والظمأ . كل هذا والسيد ورجاله محيطون بأسوارهم بقلوب أشد صلابة من هذه الأسوار . لم تنفذ إليها الرحمة . ولم تعرف في الحرب ليناً ولا رفقاً . وآض أهل بلنسية في هذا الحصار القاتل أشباحاً هزيلة . خائرة القوى . أخذ منها السغب . ونهكتها انخمصة . وكان إذا وثب أحدهم من السور أو ألقاه أهل المدينة لأنه لا غناء فيه . ولا معونة عنده . تلقفته سيوف أتباع السيد . أو أبقت عليه فيبع كما تباع العبيد . ويقول مؤرخو العرب : إن السيد أحرق كثيراً

من هؤلاء أحياء . وتوجز سيرته في وصف هذا الحصار فتقول :
 « ولم يبق بالمدينة طعام يباع . وأصبح الناس بها يترنحون بين أمواج
 الموت . وكثير منهم من سقط في الطرق ميتاً » .

وسلمت المدينة في يونية سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) حين يشت من
 المقاومة . وحين لم يبق لها في قوس الصبر مترع . ووقف السيد مرة أخرى
 فوق حصونها وأسوارها مؤزراً منتصراً . ثم أملى على أهل بلنسية شروطاً
 قاسية . وطرده كثيراً منهم من المدينة لتخلو أمكنتهم للقشتاليين . وفي
 الحق إن السيد كان جافياً في معاملة المغلوبين أشد الجفوة . ناكثاً
 بعهده . ولكنه لم يدنس انتصاره بخصد الأرواح . وذبح من في المدينة .
 كما كان يفعل كثير في هذا الزمان . نعم إن من السكان من فقدوا
 ما يملكون . ولكنهم جميعاً نجوا بحياتهم . ولم يقتل إلا قوادهم (١) . وأرسل
 السيد يستقدم زوجته وبنتيه من الدير . ودعا بنفسه ملكاً على بلنسية .
 وحامياً للممالك حولها . وضرب إتاوات فادحة على جيرانه . حتى بلغ دخله
 في السنة من بلنسية وحدها مائة وعشرين ألف دينار . ووصل إلى عشرة
 آلاف من ابن رزين صاحب السهة . ومثلها من أمير البنت . وإلى ستة
 آلاف من أمير مريبطر . وهكذا . . .

ونخيلت له الأحلام أن يسترد الأندلس كلها . فقد قال : إن للزريق
 خسر أسبانيا وسيعيدها للزريق آخر . وحين حاربه المرابطون شتت
 جموعهم ، وبدد شملهم في معركة حامية .

(١) لأنه بعد أن عاهد القاضي أبا أحمد بن جعاف حاكم بلنسية أخرقه بالنار .

ولكن الحظوظ تتقلب في الحروب . وكما تكون الأيام لك تكون عليك ، فقد هزم المرابطون جنود السيد في النهاية ، فمات حزناً وغماً في يولية سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) . وحين مات حنطوا جسده وأقاموا بجانبها حراساً ، ثم أنفذوا ما أوصى به — كما تقول الأشعار القصصية — فأقعدوه على جواده الكريم «بايكا» ، وأحكموا شدة السرج ، فجلس عليه معتدل القامة . لم يظهر بوجهه أثر الموت ، وقد أبرقت عيناه الشهلاوان ، وأرسلت لحيته إلى صدره ، وقبضت يده على سيفه الأمين « تيزونة » فبدا كأنه حي لا يتطرق في ذلك شك لرائيه . ثم أخذوا بلجام فرسه وخرجوا من المدينة . يتقدمهم بيروبرميودز ، وهو يحمل علم السيد ومعه خمسمائة فارس لحراسته . وسارت خلفه شيانة في صويحباتها وحاشيتها ، فأخذوا طريقهم بين العرب المحاصرين للمدينة ، ويمموا شطر قشتالة ، وتركوا العرب في دهشة وعجب من هذا الرحيل الغريب ، لأنه لم يخطر لهم ببال أن السيد ميت لا يرجى . ولا وصلوا إلى دير سانت بدور . أجلسوا السيد على كرسي من العاج إلى جانب المذبح تحت ظلة ، وضعوا فوقها زنوك قشتالة ، وليون ، وناقار ، وأراغون ، ورنك الكمييدور نفسه . وبقى السيد نفسه جالساً إلى جانب المذبح عشرين سنين . كان وجهه في أثنائها هادئاً نبيلاً . حتى إذا تغلبت آثار الموت على الصناعة والتحنيط . دفنوه أمام المذبح . وأبقوه في قبره جالساً كما كان على الكرسي العاجي . مرتدياً ملابسه الملكية وسيفه تيزونة في يده . ولا تزال درقة السيد المحفورة بالزخارف ، وعلم انتصاره معلقين على قبره ، يفيضان أسى وحزناً .

مملكة غرناطة

أصبحت عودة أسبانيا إلى حكم المسيحيين وفيهم من الجنود أمثال السيد ومن الملوك أشباه فرديناند وألفونسو - أمراً متوقفاً بين يدي الزمان . ومن الجلى أن لكل أمة ميقاتا . وأن لكل دولة عهد نمو ثم عهد ازدهار ، يتبعهما الذبول والهرم والانحلال . وكما سقطت دولة الإغريق ، وكما سقطت رومة . وكما سقطت كل مملكة قديمة شهدت الدنيا نهوضها وقوتها - سقط العرب في أسبانيا وشالت نعماتهم . بعد أن دنا أجلهم وحان حينهم . فقد ذهبت ريحهم . وتفاقم الخلاف وزادت الجفوة بين أمرائهم : قبل أن يتملكهم المرابطون . ثم إنهم لم يكونوا أحسن حالا حينما دالت دولة المرابطين ، فما كاد هؤلاء يغادرون الأندلس ، حتى ظهر في الميدان عدو جديد : ذلك أن الموحدين الذين ثلوا عرش المرابطين بإفريقية . راق لهم أن يحاكوهم في ضم الأندلس إلى ملكهم . وذلك أمامهم السبيل ما شجر من التراع بين أمراء هذه المملكة المنكودة ، التي طال على تمزقها الأمد . فأخذ الموحدون الجزيرة الخضراء سنة ١١٤٥ م (٥٤١ هـ) . وفي سنة ١١٤٦ م (٥٤٢ هـ) نزلوا بإشبيلية ومالقة . وبعد أربع سنوات أصبحت قرطبة وبقية القسم الجنوبي من أسبانيا تحت رايتهم ، وامتنع عليهم بعض الأمراء أول الأمر . ولكن الموحدين كانوا أعظم قوة

وأشد بأساً من أن يقف في وجوههم أمير أوزعيم .

ولم يفكر الموحدون في أن يجعلوا من الأندلس قاعدة ملكهم . بل لبثوا بإفريقية . وأرسلوا من حضرته نوابا يقومون بالأمر فيها . وكان من أثر ذلك أن ضعفت قبضتهم على الأندلس . وزلزلت أقدامهم فيها . فإن من الصعب العسير أن تضبط ولايات مضطربة متنازعة كولايات الأندلس . بنواب يرسلون من مراکش . أو يبعوث الجند ترسل بين الحين والحين لصد كرات الأعداء . نعم إن الموحدين قويت شوكتهم أول الأمر . حينما قدموا إلى الأندلس بعدتهم وعديدهم . فانتصروا انتصاراً مؤزراً في سنة ١١٩٥ م (٥٥٩١) بموقعة الأرك بالقرب من بطليوس . وقتلوا آلافاً من أعدائهم . وظفروا بغنائم يخطئها العد . ولكن الحظ وهو متقلب ملول . لوى عنهم وجهه في موقعة العقاب المشنومة سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) التي قضت على ملكهم بالأندلس . فقد كان جيشهم ستمائة ألف مقاتل . لم ينج منهم إلا عدد قليل فر لينبي . بهزيمتهم ودحرهم . وسقطت مدينة إثر مدينة في أيدي المسيحيين . وضاعف كارثة الموحدين ما كان من الشغب بين قبائل البربر بإفريقية . وما توالى من وثبات المنافسين خم فيها . فتبددت قوتهم . وطمع فيهم أمراء الأندلس الذين سئموا حكمهم المترمت العنيف . فأزاحوهم عن الأندلس في سنة ١٢٣٥ م (٦٣٣ هـ) وأعلن ابن هود نفسه حاكماً لأكثر بلاد الجنوب . وتملك سبعة بإفريقية . وحين قضى نحبه في سنة ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) تحول حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة . وكانت مملكة غرناطة بقية ما ملك العرب بأسبانيا . بعد أن تمزقت

أشلاء مملكتهم . ووقع أكثر المدن بأيدي المسيحيين . فبين سنة ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) و ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة . وجايم الأول ملك أراغون مدن : بلنسية^(١) . وقرطبة . وإشبيلية . ومرسية . وأصبح حكم العرب محصوراً في مقاطعة غرناطة . وهي الرقعة بين جبال نيفادا^(٢) وساحل البحر . من المريه إلى جبل طارق . وقدر للعرب بعد هذه الفتوح أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن .

وكان للعرب جيش ومنعة في هذه البقعة . التي أحاط بها أعداؤهم من كل جانب . فإن الجنود الأشداء الذين فروا من المدن بعد استيلاء النصارى عليها . هرعوا إلى الملك الباقي من ملوك المسلمين . ليقدّموا سيوفهم وسواعدهم لخدمته . وقد قيل : إن خمسين ألفاً من العرب قدموا على سلطان غرناطة . من بلنسية . وشريش . وقادش . ومع كل هذه القوة وهذا السلطان كانت غرناطة تومئ للملك قشتالة بالطاعة . وتؤدى إليه الإتاوة كل عام . وكان منشىء دولة بنى نصر عربياً يدعى ابن الأحمر^(٣) لشقرة فيه . وكان شديد المراس قوى الأسر . غير أنه لم يستطع الوقوف في وجه النصارى . لأن أسبانيا كلها إلا قليلاً أصبحت في أيديهم . فعرض ابن الأحمر مرغماً لهم . وأدى الإتاوة لفرديناند . ثم لابنه ألفونسو « العالم » وإن حاول مرات أن يخلع نيرهم ويتحدى قوتهم . وفي غضون

(١) سقطت بلنسية وقرطبة ومرسية سنة ٦٣٦ هـ وسقطت إشبيلية سنة ٦٤٦ هـ .

(٢) معنى « نيفادا » الثلج ، ويسمى العرب هذه الجبال بجبل الثلج ، أو شلير (بصيغة التصغير) .

(٣) هو محمد بن يوسف بن نصر .

هذه الفترة . ترك ملوك المسيحية غرناطة وشأنها . لأنهم شغلوا بتوطيد دعائم الملك فيما فتحوه من البلاد . وبمكافحة كل دعى فى الملك دخیل . وطالما حاول العرب فى حروب متعاقبة أن يتغلبوا على المسيحيين . ويتفلقوا من أيديهم . ولكنهم قنعوا فى النهاية بالمنزلة التى وضعهم فيها القدر . وكانت الإتاوة التى يؤديها محمد العاشر إلى المسيحيين لصيانة مملكته فى سنة ١٤٣٦ م (٨٦٨ هـ) اثنى عشر ألف دوکات (١) .

وكانت لغرناطة منزلة قرطبة فى إنهاض الآداب والعلوم . فى أثناء هذا الهبوء السياسى . فكان لبنائىها ومهندسيها شهرة ذائعة فى أرجاء أوربا . فهم الذين بنوا الحمراء التى دعيت بهذا الاسم للون التربة التى أنشئت عليها . وهم الذين موهوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع ، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة التى لا تزال إلى اليوم موضع عجب الفنانين وإعجابهم فى أنحاء العالم (٢) . وتعد غرناطة نفسها ببرجىها السامقين . لؤلؤة فى جيد الزمان . فقد بنيت عند نهاية المرج الممرع . وفى سفح جبال القمر المتوجة بالثلوج (جبال نيفادا) . وإذا أطل المرء من إحدى قمم غرناطة أو الحمراء . التى تقف ديدباناً فى نهاية المرج . كما يقف الأكروبول فى أثينا (٣) . وسرح نظره فى فضاء

(١) نقد ذهبي كان يتعامل به فى أوربا قديماً ، قيمته : تسعة شلنات وأربعة بنسات . فهى تقرب من قيمة الدينار .
 (٢) بدى فى بناء الحمراء فى القرن الثالث عشر ، وتم فى القرن الرابع عشر .
 (٣) حصن قديم على صخرة ارتفاعها خمسون ومائة قدم .

المرج الأفيح^(١) وقد تعانقت أشجاره . وتبسدت أزهاره — رأى من
الحداول والكروم والبساتين وغياض البرتقال ما يملأ النفس سروراً وبهجة .
وفى الحق إن غرناطة تفضل كل مدينة بالأندلس . فى جمال مناظرها .
واعتدال جوها . فإن النسيم الذى يهب عليها من الجبال الثلجية . يجعل
أشد أيام القيظ فيها من أجمل الأيام وألطفها . أما تربتها . فمنقطعة
النظير فى الحصب وقوة الإنبات . وقد أنشئ قصر الحمراء فوق شرف من
الأرض تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر . تتدفق فى سفحها الشمالى
أمواه نهر حدرو^(٢) (درّو) . وقد حصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر .
وشدت عند كل مسافة بخصون تشرف عليه . وتشبه الرقعة التى قامت
عليها الحمراء سن رمح دقيقة الطرف . عريضة الجانين . يبلغ طولها
نصف ميل من الشرق إلى الغرب^(٣) .

ويمر الزائر من فناء الحمراء بقبة ضخمة برتقالية اللون . تضرب إلى
الحمرة فينتهى إلى باب دار العدل . حيث كان يجلس السلاطين للفصل
بين الناس^(٤) كما كان يفعل قضاة اليهود . وهناك على قوس من البناء
لها شكل حذاء الفرس . ترتفع إلى نحو ثمان وعشرين قدماً — صورتان
نُحتتا فى صخرتين عظيمتين . إحداهما لمفتاح رمزى . والأخرى ليد

(١) يسمى هذا المرج أيضاً بالنخس والبطح ، وهو يمتد نحو خمسين كيلومتراً إلى الغرب حتى مدينة لوشة .

(٢) فى الروض المطار حدره . ويظهر أنهم كانوا يبدلون الماء واواً عند النطق .

(٣) تسمى الأرض التى بها الحمراء وما حولها بالسيكة .

(٤) كانوا يجلسون للحكم يومى الاثنين والخميس .

ضخمة مرفوعة إلى السماء^(١) فإذا اجتاز الداخل هذا الباب . وصل إلى فناء مربع . فرأى إلى أحد جوانبه القصر الذى هم بإنشائه شارل الخامس ولم يتمه . ثم يمر بالطريق الموصلة إلى الحمراء . فيرى بعض أطلالها ، وينتهى إلى ساحة تسمى : ساحة الريحان لكثرة ما بها من هذا النبات ، ويخرج من هذه الساحة ممر ضيق يوصل إلى فناء البركة . وطوله مائة وأربعون قدماً . وعرضه نصف ذلك . وبه بركة من الرخام تتألق فوقها الشمس . بها كثير من السمك ذى الألوان . وتزين جوانب هذا الفناء أعمدة ومشارف نادرة الصنعة . ويظهر إلى الشمال منه حصن « قمارش » تياهاً مخترقاً الأفق . ويرفرف السكون والهدوء على هذا الفناء ، حتى إن المرء لا يكاد يسمع فيه للماء خريراً وهو منطلق إلى البركة . وما أجمل تألق السمك الذهبى الكثير العدد بالبركة إذا واجهته أشعة الشمس !! وما أروح أن يحس المرء فيه بأنه فى عزلة عن الدنيا !! فإن أثراً من آثار الحياة الصاخبة لا يصل إليه . إذ كل ما حوله هدوء مطلق لا يبعث فى النفس الملالة . فهو طلل صامت رزين هادئ . يصور الموت والدمار . ولن يستطيع المرء وهو يراه إلا أن يشعر بالعطف والإكبار والحب لبناء هذا القصر الأولين .

فإذا مررنا من فناء البركة . أو القاعة الزورقية إلى بهو الرسل (السفراء) تخيلنا أيام ازدهار دولة المسلمين : وكدنا نبصر فى صدرها خليفة الأمويين جالساً على عرشه . فى عظمتة وجلاله .

(١) إشارة إلى أن المدل قوة فى الدنيا والآخرة .

فإذا أشرفنا من النافذة المظلة على سهل حدرو ذكرنا كيف أن عائشة زوج السلطان أبي الحسن . أدلت منها ابنها أبا عبدالله محمداً في زنبيل منذ خمسة قرون . وكيف أن شارل الخامس قال مرة وهو مشرف منها : « ما أشقى من يفقد كل هذا ! » .

وفي أثناء بحثنا عن التخطيط المشتبك المعقد لهذه الأطلال ، نجد أنفسنا في مخدع الملكة . الذي تطل نوافذه على المرج القسيح الفيح . فتعود بنا الذكرى إلى العهد القديم وما كان فيه من بلهنية ونعيم ورفه ، لأننا نرى بين صفوف الممر الذي رصفت به أرض المخدع شقوقاً وفروحاً . بالقرب من مدخله . يحدثنا القصاصون عنها أن البخور وأنواع الطيب كانت تحرق تحت المخدع ، فينفذ إليه شذاها من هذه الشقوق . فتعطر أرجاؤه . وإذا أطللنا من إحدى نوافذه . رأينا بستان « لينداراجا » ورأينا بالقرب منه حمامات السلاطين المدلة بنحتها الرائع ، ورسومها العبقريّة ، وزليجها الجميل .

وبهذه الحمامات فوارة كان يسيل منها الماء في صوت إيقاعي ، كأنه يحاول الانسجام مع رنات الموسيقى التي كانت تهبط من المشارف ، وقد جلس بها القيان يغنين ويعزفن لسيدات القصر ، وهن ينعمن بالاستحمام ، أو يضطجعن على الأرائك الذهبية . وقد نقر كل مستحم في صخرة عظيمة من الممر ، ووضع في غرفة سقفها من الزجاج المزين بالهاويل ، بينها صور من نجوم وورود يتقد النور من خلالها .

وقد يكون بهو السباع أشهر جزء وأبدعه في هذا القصر ، وإن كان أقل

اتساعاً من ساحة الرياحان . وبهذا البهو مائة وثمانية وعشرون عموداً من
المرمر . وضعت أجمل وضع ، . ونسقت أبدع تنسيق . بإجماع كل
ثلاثة ثلاثة . أو أربعة أربعة . وفوق هذه الأعمدة صفوف ليست
سامقة الارتفاع . والبهو غنى بروائع الفن . مليء بنوادرد .

ومن هذا البهو يصل الزائر من باب أبدعت الصناعة رسمه وزخرفته إلى
قاعة بنى سراج . سميت بذلك لأن السلطان أبا عبدالله أمر بذيبح بنى سراج
بها (١) ولا تزال اليوم ترى على أرضها نقطا من الدم . يزعم بعض الناس
أنها بقية ما سأل من دماهم .

ولن يتسع لنا الوقت إذا حاولنا مشاهدة جميع قاعات هذا القصر الفخم
وأبهائه . ونخير لنا أن نتجه الآن إلى قصر آخر . يسمى : بجنة العريف .
وهو جوسق القصر الأكبر . يصور ظاهره بساطة الفن الشرقى . وقد أصابه
الآن الدمار . وحطمت يد الدهر والإنسان . حتى إن نقوشه العربية
الدقيقة شوهت بما لطختها به يد الجهل من طبقات الملائط . واختفت
تماثيله المنحوتة . وتولى جماله . وزالت نضارته منذ حين .

لم يكن يتوقع العرب . والمملكة المسيحية القوية على مرمى سهم منهم .
أن يعيشوا أكثر من قرنين في رفاغة من العيش وقد حمست في آذانهم
النذر . وأحسنوا قرب زواهم في الربع الثالث من القرن الخامس عشر .
وكان اتحاد أراغون وقشتالة بتزويج فرديناند بإيزابلا . أول باعق
بالقضاء . وكان يحكم غرناطة في هذا الحين مولاي على أبو الحسن .

(١) كان منو سراج وزراء سلاطين غرناطة ، وقال : إن أبا عبدالله كان يتهمهم

بملاة الإفرنج .

وكان من أشجع الشجعان قوة وجرأة . فصمم على أن يسبق مكائدهما ،
وأن يناجزهما الحرب . وكانت بداءة الشر أن أبي أن يؤدي إليهما
الإتاوة . حتى إذا وصل إلى حضرته رسول فرديناند يلح في طلبها .
وينذرو ويوعد . أجابه أبو الحسن في صلف وكبرياء : « قل لمولاك : إن
سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا . وإن دار الضرب
بغرناطة لا تطيع الآن غير السيوف » ثم أرسل غارة شعواء على المسيحيين
بقلعة الصخرة ليعزز قوله بالعمل .

وقد قص علينا الكاتب الأمريكي الموهوب واشنطن إيرفينج^(١) . عنف
هذه الغارة في كتابه « آخر حروب العرب بأسبانيا » فقال :
« في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف من الميلاد (٨٨٦ هـ) دهم
أهل الصخرة بياتاً وهم نائمون . وكان حارس القلعة قد هجر مكانه منها .
وانتجأ إلى كن يقيه العواصف والأنواء التي اشتد غضبها . وثار ثورتها
منذ ثلاث ليال متعاقبة . وقر في نفسه أن أحداً من الأعداء لن يخرج في
مثل هذه الليلة الليلية . وغاب عنه أن أرواح الشر أكثر ما تعمل في
ظلام الليالي العاصفة . وفي منتصف الليل . ارتفع الضجيج في المدينة .
فكان أشد إرهاباً من صخب الأنواء . وصاح الأسبان مذعورين :
العرب . العرب . وسرت أصواتهم في كل ناحية من المدينة : ممتزجة
بصليل السيوف وأنين القتلى . وصيحات الظفر والانتصار . وخيل
إلى أهل المدينة وقد شدهم الذعر . أن شياطين الليل طارت إليهم على

(١) أقام بأسبانيا زمنا طويلا . مات سنة ١٨٥٩ .

أجنحة الريح ، وسلبتهم حصونهم ومعقلهم ، وارتفعت صيحات القتال من كل مكان : نداء يرجع نداء ، وصوت يردد صوتاً ، هذا من فوق ، وهذا من تحت ، وهذا من معقل القلعة ، وهذا من طرق المدينة . نعم كان العرب في كل مكان وقد لفهم الظلام وسترتهم الأنواء ، غير أنهم مع كل هذا كانوا يعملون متعاونين على نظام دقيق وخطة محكمة . وباغت جنود أبي الحسن حراس الصخرة بعد أن هبوا من نومهم ، فطارت نفوسهم شعاعاً ، وأناخ عليهم العرب فاستأصلوهم قبل أن يغادروا ثكناتهم . وبعد فترة قصيرة انتهى الصدام والقتال ، والتجأ من نجا من أهل المدينة إلى مخابئ دورهم ، أو ذهب إلى الأعداء راضياً بالذل والإسار . وسكنت السيوف في أغمارها ، وسكت صليلها ، ولكن العواصف ما زالت تزار وتصخب ، مختلطة بأصوات العرب الذين خرجوا هائمين . يبحثون عن الغنائم والأسلاب . وبينما كان السكان يرتعدون فرقا مما سيصيبهم ، إذا صوت بوق يدوي في أرجاء المدينة ، داعياً إياهم أن يجتمعوا عزلاً في الميدان الكبير ، وهناك أحاط بهم الجند لحراستهم حتى الصباح . وكان مما يثير الحزن والأسى ، أن ترى ، وقد انبثق الفجر ، هذه الجموع الحاشدة التي كانت تعيش في ترف ونعيم . وقد اختلط حابلهم بنابلهم وشيوخهم بأطفالهم ، ونساءهم برجالهم ، وأغنياؤهم بفقراهم ، وليس على أجسامهم ما يقيهم قارس البرد وعاصف الأنواء . وزاد الضجيج وارتفعت أصوات التوسل والرجاء ، ولكن مولاي أبا الحسن القاسي سد أذنيه ، وأغلق قلبه دون العطف والرحمة ، وأمر بهم أن يساقوا جميعاً إلى

غرناطة كما يساق العبيد . وأبقى بالمدينة والقلعة حراساً أشداء ، وأمرهم أن يتيقظوا لكل طارق ، ثم قفل إلى غرناطة والانتصار ينفخ خياشيمه كبيراً وزهواً . ودخلها على رأس جنده ، ومعهم الغنائم والأسلاب ، والبيارق والأعلام . وفي أثناء ما أقيم من الولائم والأفراح لهذا الفتح المبين ، قدم أسرى الصخرة من الرجال والنساء والأطفال ، وقد نهكهم التعب ، وأكل قلوبهم اليأس ، فدخلوا المدينة كما يدخلها قطيع من البقر ، قد لفه الليل بسواق حطم .

وبهت أهل غرناطة ، وذعروا وتألماو لقسوة أبي الحسن ، وشعر عقلاؤهم بسوء مغبة هذا التهور ، وسموه : بداية النهاية ، وصاحوا : « ويل لغرناطة ! ويل لها ، لقد دنت ساعتها ، وستقع أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا » . ولم يكن الانتقام بعيداً ، فقد استولى بعد قليل مركز قادس على حصن الحمة غيلة . وبهذا الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية في قلب بلاد المسلمين ، وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها . وبكم حاول أبو الحسن أن يسترد هذا الحصن فلم يفلح ، لأن من به من الجنود أظهروا شجاعة نادرة المثال ، وصبروا وصابروا حتى جاءهم المدد ، وأدركتهم النجدة . وارتفع الصباح بغرناطة : « ويل للحمة ! ! لقد سقطت الحمة وأصبح مفتاح غرناطة اليوم في أيدي الكفار » .

ومن ذلك الحين أصبح هذا الحصن شوكة في جنوب ملوك العرب ، فمنه خرج كونت تنديلة وعاث في المرج ، وأكثر فيه الفساد . حفز الانتصار كلا الفريقين من المسلمين والنصارى إلى شن الغارات ،

التي لم يكن لها من أثر إلا التخريب وإثارة الأحقاد . وصمم النصارى آخر الأمر على أن يذيقوا العرب النكال . ويدهموهم بجيش جرار . فعزموا على غزو ولاية مالقة ، وجمعوا كتائبهم بزعامة مركزز قادس وغيره من كبار القواد ، ثم زحفوا على العرب بهذا الجيش المشؤم^(١) . « وخرج الجيش مزهوا بأبطاله المدججين من أبواب أنتقيرة^(٢) يوم الأربعاء . فمشى جنوده ليلة بنهارها في شعاب الجبال ، مبالغين في إخفاء أنفسهم . حتى يأخذوا العرب بغتة .

ولم يصلوا إلى الطريق الذي كانوا يقصدون العيث والإفساد فيه إلا في اليوم التالي ، وكان شعباً ممتداً في أملاك العرب بالقرب من ساحل بحر الروم ، وفي هذا الشعب لاقوا من الأهوال والفواح ما يعجز عنه الوصف . فساروا فيه يستحثون الخطأ ، بين الجبال العابسة السامقة . والأوعار والخوانق . وطالما اعترض طريقهم مهاو عميقة ، وأودية صلبة بعيدة الغور قليلة الماء ، بين صخور تريد أن تنقض . وصخور أسقطتها عواصف الخريف ، فعزّ اجتيازها . وقد يمشون ساعات طويلة في أخاديد . أو في مجرى جاف حفره السيل بين الجبال ، وغمره بالحصى والأحجار . وكانت تغطي هذه المهاوى وتلك الأخاديد قمم عزيزة المرتقى صعبة المنحدر ، جعلت من هذا المكان غباً صالحاً . كان يكمن فيه الجنود في أثناء

(١) الوصف التالي الذي وضع بين أقواس ، مقتبس من كتاب واشنطون ليرفنج .

(٢) يسميها صاحب نفع الطبيب : « التقيرة » .

الحروب بين العرب والمسيحيين ، ثم أصبح بعد ذلك وكراً للصوم ،
يثبون منه على المسافرين . . .

وعند غروب الشمس ، بلغ الفرسان قمة بعض الجبال ، ونظروا إلى
ميامنهم فرأوا عن بعد قسماً من مرج مالقة الوسيم . وقد ظهر من ورائه
بحر الروم . فاشتد فرحهم حتى كأنهم بقية من قوم موسى . ظفروا
بعد أين بنظرة إلى أرض الميعاد ، بعد الفرقة والشتات . وحين اعتكر
الظلام وصلوا إلى بعض الأودية والدساكر التي أطبقت عليها الجبال .
ويسمى العرب هذه البقعة : بشرقية مالقة . وفيها كتب لآمالهم أن تخيب ،
ولجيشهم أن يتمزق : فإن العرب لما علموا بقربهم . ساقوا بقرهم .
وحملوا أمتعتهم . والتجثوا بزوجاتهم وأولادهم إلى قلل الجبال ومعاقلها .

واشتد غضب النصارى ، وانصرفوا مسرعين طامعين في أن يقعوا
في الطريق على غنم أعظم وأوفر . وأرسل اللوذ ألونزو آل أغيلار وغيره
من القواد جنودهم ، فعاثوا فيما حولهم من الأرض . ودمروا ما شاء غيظهم
أن يدمروا ، واستلبوا بعض البقر من زراع العرب في أثناء فرارهم . وبينما
كان هذا الفريق يعيث ويدمر . ويشعل النار في الدساكر فتتير الجبال ،
أمر صاحب سنتياغو - وكان يقود ساقية الجيش - أن يجتمع الفرسان
صفوفاً ليكونوا على استعداد إذا صاحت بهم صائحة .

وحاول بعض فرسان هذه الأخوة الدينية أن يهيموا في الأودية لاقتناص
الغنائم ، فدعاهم وزجرهم .

ثم قادم سوء الطالع إلى شعب في الجبل تقطعه الهوات والأخاديد

البعيدة العمق ، وتغطيه القمم ، فكان مستحيلاً أن يحتفظ فيه الجيش بنظامه . وضاق مجال الخيل عن المسير فخرجت عن طوع فوارسها . وكانت تتسلق من صخرة إلى صخرة . وتترل غوراً وتصعد في نجد ، وتنقل سنايكها في مكان يضيق بفرسن الوعل . وحينما مروا بأحدى القرى ، كشفت لهم أضواؤها ما صاروا إليه من سوء الحال . وتفاقم الخطب . ووعورة الطريق . وهنا بصر بهم العرب الذين كانوا قد سبقوهم إلى معانقهم الممعة في الارتفاع . ورأوا الفخ الذى سقطوا فيه . فصاحوا جذلين مستبشرين ونزلوا من حصونهم . وربضوا فوق قمم الجبال التى تشرف على الدوآت التى ارتطم فيها المسيحيون . وأخذوا يصبون عليهم وابلاً من السهام والأحجار . وأطبق الليل بظلامه الدامس مرة أخرى على المسيحيين . ودم محبسون فى واد ضيق يخترقه جدول عميق . وتحيط به الجبال الذاهة فى السحاب وقد اشتعلت فوقها نيران الدعوة إلى الجهاد . وبينما هم فى هذه الحال من اليأس . إذا صيحات مزعجة يتردد صداها فى جنبات الوادى : الزغل الزغل !! فسأل صاحب سنتياغو : ما هذه الصيحات ؟ ؟ فأجابه جندي قديم : هذه صيحات الزغل قائد العرب . وهى تدل على قدومه بجيشه من مالقة . فالتفت بصاحب سنتياغو إلى فرسانه وقال : قلنمت ممهدين الطريق بقلوبنا ، بعد أن عجزنا عن تمهيدها بسيوفنا . ولنخترق الجبال إلى الأعداء . ولأن نبيع أنفسنا هنا غالية . خير من أن نذبح مستسلمين . وما كاد يتم قوله حتى لوى عنانه . وحمز فرسه متسلقاً الجبل يتبعه المشاة والفرسان . وقد وقر فى نفوسهم أنهم إذا لم يستطيعوا الفرار ، فلا أقل من أن يتالوا من أعدائهم

بعض منال . وبينما هم يتسلقون . إذ دهمهم من العرب سيل من السهام والحجارة . وكثيراً ما كانت الصخرة تهوى على جموعهم كالرعد القاصف فتمزقهم تمزيقاً .

وكان يطمح صاحب سنياغو أن يجمع شمل مشاته . وأن يهجم بهم على الأعداء . ولكن قومه من حوله ألحوا في رجائه أن يربأ بنفسه عن التلف . وقالوا له فيما قالوا : إن في بقائك بين براثن هؤلاء الأعداء موتاً محققاً . لا يدفع بسيف . ولا ينفع فيه الإقدام . وإن في فرارك إبقاء على حياة قد تنال في يوم أمنية الانتقام . فخضع القائد بعد لآى لنصحهم وقال : اللهم إني أفر من غضبك لا من هؤلاء الكفار . فإنهم لم يكونوا إلا آلة في يدك . أردت أن تطهرنا بها من ذنوبنا . ثم دعا بالأدلاء أن يتقدموه . ونخس جواده فوثب فوق أخاديد الجبل . قبل أن يدركه العرب . وراه جنوده فتفرقوا أيدي سباً . واقتنى بعضهم آثاره ولكنهم ضلوا الطريق وأخذتهم الحيرة بين شعاب الجبال المضللة . فذهبوا هنا ، ثم ذهبوا هناك . ومات فريق منهم في الطريق . وذبح العرب فريقاً . وأسروا فريقاً (١) .

ولم ينس المسيحيون وشيكا هذه الولايات . ويلات جبال مالقة . فكانوا يتحرقون للانتقام . وقد ظفروا بثأرهم وشفوا غلتهم . وفازوا بانتصار

(١) في نفع الطيب : وقتل من النصارى في هذه الوقعة ثلاثة آلاف وأسروا نحو أثنين من جلتهم خال السلطان وصاحب إشبيلية ، وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم ، وهم نحو الثلاثمائة من الأكابر . وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة .

باهر ، حينما شن أبو عبد الله على بلادهم غارة شعواء . وكان في ذلك الحين
 قد اغتصب ملك غرناطة من أبيه . فزحف بجنوده خفية مدرعا الليل .
 ولكن النصارى علموا بهذا الزحف . فأشعلوا النيران في قسم التلال
 للاستغاثة . وقد تنبه كونت قبيرة خذد النيران وجمع زعماء قومه وأتباعه
 فعثروا على العرب بالقرب من لشانة . وتربصوا بهم في غابة هناك . ثم
 سقطوا عليهم فهزموهم شر هزيمة . وحينما دخل فلون الثارين أبواب غرناطة .
 تعاضم الأمر أهلها فبكى الباكون . ونادى النادبون قائلين : « غرناطة يا أجمل
 المدن !! أين ذهب جمالك وجلالك ؟ ! .. لقد دفنت زهرات مجدك في
 أرض الأعداء . فلن يتردد في بطحاء الرملة بعد اليوم صدى سنابك
 الخيل . ولا صيحات الأبواق . ولن يزدحم فضاءها بعد اليوم بشبابك
 النبلاء . وهم يستعدون للمبارزة والجلاد .

غرناطة يا أجمل المدن !! .. لن تسرى بعد اليوم نغمات العود الناعمة
 في شوارعك القمرية . ولن تسمع ألحان العشاق تحت قصورك العالية . . .
 وستخرس دقات الصنوج المرحية فوق تلالك الحصية . . وستقف رقصات
 الزميرة الجميلة تحت عرائشك الوريثة .

غرناطة يا أجمل المدن ؟ ! .. لم أقفرت الحمراء من أهلها وأصبحت
 يابا ؟ ! إن الريحان وأزهار البرتقال لا تزال ترسل أريجها بين غرفها وفراشها
 الوثير !! ولا تزال البلابل تصدح في مروجها الفيج . ولا تزال أعمدة أبيائها
 تتعش برشاش الفوارات يتساقط عليها ، وتنعم بخير أمواتها كأنه
 صوت أم تدلل أطفالها . واحسرتاه !! لن نشهد بعد اليوم طلعة السلطان

مشرقة بين أبيها ، لأن نور الحمراء أطفىء إلى الأبد . «
 قبض على أبي عبدالله في هذه الموقعة . وأرسل أسيراً إلى قرطبة .
 وانقض فرديناند على المرج يعيث فيه فساداً . بينما كان مولاي أبو الحسن
 — وقد عاد إلى ملكه — شيخاً هماً يحرق الأرم غيظاً من وراء أسواره .



سقوط غرناطة

كان أسر أبي عبدالله ضربة قاصمة لحكم المسلمين بالأندلس . ولم يكن أبو عبدالله نفسه بالرجل الذى يؤبه له — وإن كان شجاعاً مقداماً — لأنه كان ضعيف الرأى كثير التردد . شديد الوسائس والتطير . وزاده خيالاً أن استقر فى نفسه : أن الدهر يعكس آماله . وأن القدر يحاربه . فكان يندب دائماً سوء طالعهِ ونحس نجمهِ . وعرف الناس فيه ذلك فنبزوه « بالشقيتو » أى الشقى . وبالزُغيبى . وكثيراً ما كان يقول وهو يرى آماله تبيض رماداً : لقد كتب فى لوح القدر أن أكون مشثوم الطالع ، وأن يكون زوال هذه المملكة على يدي^(١) .

وكان من الهين على النصارى أن يطلقوا سراح أبي عبدالله ، فقد كان فسلاً مسلوب القوة . ولكنهم رأوا أنه على ضعفه قد يكون أداة شديدة الخطر فى أيدي آخرين . وقد صدقت الحوادث ظنونهم ، فإن خضوع أبي عبدالله لفرديناند وبقاءه فى قبضته . كان من أسباب سقوط دولة المسلمين بالأندلس . وحينما وصل إلى قرطبة . استقبله الملك الكاثوليكيان أحسن استقبال . وما زالا يأخذانه بضروب الإغراء الحبيثة . ويشرجان له سوء أمره ، ويظهران له قوة بطشهما وعظمة ملكهما . حتى ذل عنقه

(١) يزعمون أن المنجمين تكهنوا بأن سقوط غرناطة سيكون على يده .

وأصبح آلة في أيديهما ، وخادماً لها أميناً . وبعد أن وثقا منه طلبا إليه أن يعود إلى غرناطة . حيث يتحصن أبوه أبو الحسن بقلاع الحمراء . فدخلها أبو عبدالله مؤيداً بأنصاره النازلين منها بربري البيازين^(١) ، وامتلك حصن القصبة ، وشن على أبيه المتحصن قبالة حرباً عواناً .

وبقى أبو عبدالله بحصن القصبة مدة ، تؤيده رماح بني زغبة وسيوفهم . ولكن قوة أبي الحسن كانت فوق قوته . فاضطر إلى أن يلتجئ إلى المرية . ومن ثم أصبح لغرناطة سلطانان : أحدهما أبو عبدالله المنكود الحظ في ميداني السياسة والحروب . البغيف إلى العرب ، لأنه أصبح أداة في أيدي أعدائهم : والثاني أبو الحسن ، أودع على الأصح أخوه الزغل « الشجاع »^(٢) لأن السلطان كان يقضي بقية أيامه حزينا كئيباً لما أظهره ابنه من العصيان ، ففقد بصره ثم مات . وأغلب الظن أنه مات مسموماً .

أما الزغل : فهو آخر ملك عظيم أنبته الأندلس ، فقد كان شجاعاً ثابت الرأي ، عدواً لدوداً شديد المراس قوى العزم في محاربة المسيحيين . ولو لم يفسد عليه ابن أخيه أمره ، لبقيت غرناطة في أيدي المسلمين مدة حياته . وإن لم يكن ثمة مفر من انتصار المسيحيين في النهاية . وقد أسرع سلاطين غرناطة بتنازعهم وتكاليهم على الملك بتقريب هذه النهاية . وإذا حكمت الأقدار على ملك بالسقوط أخذت تملي له ، وتملاً رأسه بالسخف والغرور . وهكذا نرى اليوم سلاطين غرناطة وقد استبد بعقولهم الشغف بالانتحار

(١) ربح متسع إلى شمال غرناطة يبلغ نحو ربع المدينة وكان قيم به مطبو
البراة الصيد .

(٢) الزغل في لغة المغاربة : القى الغضب الشباب .

— إن صح أن نسمى تخريبهم بلادهم بأيديهم انتحاراً — : ففى الحين الذى كان يجب أن يجتمعوا فيه ويتواثقوا لصد المسيحيين . نراهم يبددون قواهم فى محاربة بعضهم بعضاً . ونرى بعضهم يصد جيش أخيه وهوزاحف على الأسبان ، ليكون هو وأخوه آخر الأمر طعمة للأسبان . وتفرق أهل غرناطة شيعاً ، فزاد ذلك فى إشعال نار الغيرة والتحاسد بين السلاطين . ولم يكن من شيء أحب إلى الغرناطين من إسقاط سلطان ونصب آخر مكانه . لأنهم قوم متقلبون لا يصبرون على حال ، مولعون بالتغيير . سواء أكان للخير أم للشر . وكانوا يتهاجون بالسلطان ويؤيدونه . ما دام سعيداً موفقاً فى حروبه ، تعود جيوشه إليهم بالغنائم والأسلاب . فإذا خاب مرة فى شيء من هذا أغلقوا أبواب المدينة دونه ، ونادوا بحياة السلطان الذى أعدوه لساعته . وقد يكون هذا أبا عبدالله أو الزغل ، أو أى رجل أسعده الحظ فى هذه اللحظة بالفوز بحبهم الفروك .

وبينما كان أبو عبدالله المشنوم يبذل وسعه فى إحباط جهود عمه الزغل الباسل ، كان المسيحيون يضيقون الدائرة المحيطة بالمملكة المنكوبة شيئاً فشيئاً . فأخذت تسقط فى أيديهم مدينة بعد أخرى ، وتملكوا حصن لورة وغيره من الحصون سنة ١٤٨٤ م (٨٨٩ هـ) بنسفها بالمدافع التى ابتكرت حديثاً . وتبع ذلك فى السنة التالية سقوط : ذكوان ، وقرطمة ، ورندة . وبذل الزغل فى هذه الوقائع ما يستطيع من جهد ، ووثب على فرسان قلعة رباح من كمين فأثخن فيهم ضرباً وطعنا . ومع هذا استمر النصارى فى سبيلهم إلى النصر فسقطت لوشة فى سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) واشترك فى

معركتها من غزاة الإنجليز اللورد إسكيلز . وكان يقود فرقة من النبالة الإنجليز (١) . ثم تملك النصارى : إيلورة . ومكلين . فهال ذلك العرب ورددوا مذعورين : لقد عورت عين غرناطة اليمنى . فأجابهم النصارى : بل قولوا : لقد كسر ملوك الكتلكة جناح النسر العربى الأيمن . وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم الغربى من المملكة ، وأصبحت غرناطة تنقص من أطرافها قليلا قليلا . وسخط الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يحتملوا كل هذه الهزائم . ودعوا أبا عبدالله مرة ثانية إلى مدينتهم . فصعب عليه أن يثبت وحده أمام عمه فاستعان بالمسيحيين .

وكان فرديناند فى هذا الحين يحاصر بلش بالقرب من مالقة . فوصل الخبر إلى غرناطة فأثار غضب أهلها وسخطهم . فاستنهضوا عزيمة الزغل . وكان دائما على أهبة لمصافحة سيوف أعدائه ومنازلة الموت لاستبقاء الحياة . فقاد جنوده فى جرأة وإقدام لتخليص بلش . وكان يعلم حق العلم أن ابن أخيه الخائن سيهتبل فرصة غيبته ويوطد ملكه بغرناطة ، ولكن الزغل لم يلقب بالشجاع عبثا . فجعل التفكير فى نفسه دبر أذنه وتقدم لإنقاذ مالقة . وكانت خطته : أن يشب المحصورون بالمدينة من الداخل ، وأن يفجأ هو وجيوشه أعداءه فى الخارج . ولكن عدوه كان عظيم المكر شديد المحال . فقد وصلت هذه الخطة إلى يد فرديناند ، فاتخذ لها عدتها .

(١) فى خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكب أرسلان : وكان معه آلات ومدافع تفوق الإحصاء لإدارة جند المائين .

وفي ليلة رأى أهل بلش جنود الزغل مصطفىين فوق شرف قريب ، فابتهجت نفوسهم . ولكنهم في الصباح حينما رددوا النظر لم يروا من هؤلاء الجنود أحداً . لأنهم دحروا في أثناء الليل عند أسوار المدينة . وتمزق جيش الإنقاذ شرمزق . وتبدد تبدد الضباب أمام هجمات مركز قادس العاتية . وحينما أخذت فلول هذا الجيش تدخل في خزي وعار أبواب غرناطة . اشتد غضب الغرناطين . فثارت ثورتهم . وأسرعوا بجمع طاعة الزغل ونصب أبي عبدالله سلطاناً مكانه . وبعد قليل أقبل الزغل في بعض رجاله نحو الأبواب . فراها مغلقة في وجهه . ورفع رأسه فرأى علم أبي عبدالله خفاقاً فوق حصون الحمراء فارتد حزيناً محسوراً إلى مدينة وادي آش . وجعل بها حضرة ملكه بعد أن أغلقت غرناطة أبوابها وقلوبها دونه . ولفظته في ساعة يؤسه كما تلفظ النواة .

ثم شرع النصارى يحاصرون مالقة . ولكنها كانت صعبة المنال شديدة المنعة . لم يكن اقتحامها أمراً يسيراً . فقد أحاطت بها الجبال والأسوار الحصينة التي يعلوها الحصن الرابض قبل جبل فارو . حيث تستطيع حاميته أن تصب القذائف على من بالسهول التي تكتنف المدينة . وتطوع بالدفاع عنها في هذا الحين بطل عنيد ، واسع الحيلة ، صلب العود ، يعرف بحامد الزغبى كان يقود من قبل جيش رُنْدَة ، الذي حطمه النصارى تحطياً ، فلم ينس لهم بعد تغلبهم عليه ، وانتزاع القلاع الصخرية منه عنوة . وهب هذا الجندى الباسل يث في أهل المدينة وبين أنصاره من البربر روحاً من الجرأة والصبر والتحدى ، حاول ملوك الكتلكة جهد استطاعتهم أن

يخمدوها فلم يفلحوا . فاستطاع حينئذ تمكن من جبل فارو أن يحمي المدينة ، على الرغم من انجلال عزيمة بعض أهلها من التجار وأصحاب الأموال . وحاول الملك أن يرشيه ، فرد إليه رسوله في أنفة وكبرياء . وحينئذ أنذر النصاري المدينة بوجوب التسليم ، وألح عليه تجارها أن يغمد السيف ، أجابهم في شمم وإيجاز : لقد جئت هنا للدفاع عن المدينة لا لتسليمها . وحصر فرديناند ضربه في جبل فارو فغطت مدافعه المعروفة « بأخوات شيمينيس السبع » الحصن برداء من الدخان والنار . واستمرت قذائف اللهب تضطرم ليلاً ونهاراً ، وهم النصاري أن يأخذوا الحصن عنوة ، فصب عليهم الزغب وأنصاره الأشداء حمياً من القار والراتنج ، وقذفوا فوق رؤوسهم الأحجار والصخور وهم يحاولون تسلق سلالهم ، وسددوا نحو صدورهم السهام فاضطروا إلى النكوص مدحورين .

ثم أخذ النصاري في دس الأنفاط (الألغام) تحت الأسوار فنجحوا ، ونسفت بعض المعادل بالبارود لأول مرة في تاريخ الأسبان . واجتمع الفرسان المسيحيون حول أسوار مالقة ، وحضرت الملكة إيزابلا نفسها فأثار حضورها روح الحماسة في الفرسان والجنود ، ونصبت عرائش من الخشب لحماية الجنود في أثناء وضعهم الأنفاط تحت الأسوار . كل هذا والزغب عنيد لا يسلم ، قوى لا يغلب . ولكن القدر المحتوم جراً إليه في ذبوله ما هو شر من المدافع وأفتك من البارود : فقد اشتدت المجاعة بين سكان المدينة ، فقلت عزائمهم وصبرتهم أكثر ميلاً للإنصات إلى دعوة الصلح التي ينيها التجار ، منهم إلى سماع دعوة الصبر والمثابرة من الجنود المستميتين . ولم يكن

هناك أمل في نجدة تصل لإنقاذهم ، فإن الزغل هم مرة بعد أخرى بإنقاذ المدينة ، فجمع ما بقي من جيشه ، وزحف من وادي آش للنجدة ، ولكن ابن أخيه المشثوم الذي أكد بأعماله شؤم لقبه . أدركته الغيرة الكاذبة من عمه . فأمر جنده أن يصدوا جيشه ويشقتوه وهو ذاهب إلى مألقة . وانتهت آخر جهود الزغبى بمذابح شنيعة وأضر السغب بالسكان ، وقذفت الأمهات بأطفالهن أمام جواد الحاكم باقيات صائحات : بأن لم يبق لديهن فتاة من طعام يغذين بها أطفالهن . وبأنهن لم تعد بهن طاقة لسماع بكائهم .

بعد ذلك سلمت المدينة وأجبر الجنود قائدهم الزغبى - وكان لا يزال متشبثاً بجبل فارو - أن يفتح أبواب المدينة ففتحت . وكان جزاء هذا البطل الشجاع الباسل . أن يقذف به في جب فلم يسمع عنه خبر إلى اليوم .

وعند ما رفع الحصار عن المدينة . أخذ سكانها المساكين يحارب بعضهم بعضاً لشراء الطعام من النصارى . وأسر الأسبان الحامية الإفريقية للمدينة وكانت لا تزال تحتفظ بشممها على الرغم مما أصابها من الإعياء والنصب . أما بقية السكان : فسمح خم بأن يفتدوا أنفسهم . على شرط أن يسلموا جميع بضائعهم وأمتعتهم إلى الملك . لتكون أول قسط من أقساط الفدية . وأنهم إذا لم يؤدوا الباقي بعد ثمانية أشهر عدوا عبيداً . وبعد أن أحصى عددهم وفشت منازلهم أطلق سراحهم .

« فكنت ترى الشيوخ وقد ناك منهم الحرم . والنساء وقد فقدن الحمى .

والنصير . والفتيات في غضاضة شبابهن . وكثير من هؤلاء من عاش في
 باحة العزوين أكناف النعيم - ترى هؤلاء جميعاً يمشون مشية المتعثر
 اليائس قاصدين القصبة . وجينا غادروا ديارهم أخذوا يدقون صدورهم
 حزناً . ويقلبون أكفهم أسفاً . ويرفعون أعينهم الباكية إلى السماء في ألم
 وخسرة . وتحدثنا الروايات أنهم كانوا يقولون وهم يندبون :

« يا مالقة يا أجمل المدن وأبعدهن صيتاً أين منعة حصنك ؟
 وأين عظمة أبراجك ؟ . وماذا أفادت أسوارك القوية في حماية أبنائك . . ؟
 سيرثي بعض هؤلاء الأبناء لبعض وهم غرياء مشتتون في أرض غير أرضهم . .
 ولكن هذا الرثاء لن يلقى من الناس إلا سخرية وهزواً » .

أرسل هؤلاء البؤساء إلى إشبيلية ليقوموا بخدمة الأسبان فيها . حتى
 انقضت ثمانية الأشهر . وإذ لم يستطيعوا أداء ما بقي عليهم من القدية ،
 حكم عليهم جميعاً بالعبودية ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً . وهكذا نالت
 مكاييد فرديناند أمنيته ، وبلغ مكره السيئ غايته .

أصبح القسم الغربي من مملكة غرناطة الآن في قبضة النصارى ،
 واحتلت حامياتهم قلاع : رندة ، ومالقة الحميلة . وكان أبو عبد الله لا يزال
 يحكم غرناطة . وقد أسرع بنهضة سيده وسيدته على انتصارهما بمالقة .
 أما الزغل فكان في الشرق يتحدى الفاتحين . وقد جمع حول لوائه كل من
 بقى في نفسه شيء من الحمية والتصميم من بين العرب القانطين . وكان
 يملك غير منازع القسم من جيان إلى المرية ، وفي ثغر عظيم الشأن على
 بحر الروم . ويدخل في ملكه أيضاً بعض المدن العظيمة : كوادى آش ،

وبسطة ، ثم السفوح الوعرة لجبال البشرات ، وهى مهد قوم شداد صلاب من الجبليين ، تطل على عدد عديد من الأودية . التى تسقى بالماء الخصر المنهر من جبال نيفادا الثلجية ، حيث تكثر المراعى والكروم ، وغياض البرتقال والرمان . والأترج والتوت . ومن هذه الخيرات وغيرها تتكون ثروة هذا الإقليم .

وفى سنة ١١٤٨ م (٨٩٣ هـ) وجه فرديناند سيفه المنتصر إلى هذا الجزء الحادى من مملكة الإسلام . فجمع جموعه فى مرسية . ثم زحف إلى الغرب فى مملكة الزغل . وهجم على بسطة فصدمه الزغل صدمة عنيفة . لأن يده لم تفقد بعد قوتها . ولأن عقله لم يزل ثاقباً بعيد مدى الحيلة . لم تذهب النكبات بذكائه . فرد النصارى عن أبواب بسطة . وزاد فانتقم لنفسه بالمهجوم على مملكتهم . ولكن هذه الهزيمة لم تضعف من عزيمة فرديناند . فجدد هجومه على بسطة فى السنة التالية . وبدل أن يقذف بجنوده فى هجمات خائبة على المدينة . أرسلهم يعيشون ويفسدون فى الأرض الحصينة حولها . ليدفع الجوع سكانها إلى التسليم . واستمر حصار المدينة ستة أشهر . مات فى خلالها من جنود النصارى نحو عشرين ألفاً من المرض والإقامة بالعراء . ومن هجمات المسلمين (١) . ثم سقطت المدينة فى سبتمبر

(١) فى أثناء هذا الحصار وصل إلى معسكر الأسبان راهبان : أحدهما كبير دير الفرنسكان ببيت المقدس أرسلهما سلطان مصر ليطلبا من فرديناند وإيزابلا رد ما استوليا عليه من أملاك المسلمين وإلا قتل سلطان مصر النصارى بمملكته وخرب الكنائس . وكان من أثر هذه السفارة أن أرسل الملكان إلى سلطان مصر بطره ماتير سفيراً فأقعه بحسن معاملة ملكى أسبانيا للمسلمين فوقف الأمر عند هذا الحد ١١

سنة ١٤٨٩ م (٨٩٤ هـ) وبسقوطها تبددت قوة الزغل وأفل نجمه . وتلا ذلك أن خضعت القلاع التي تحصن البشرات واحدة بعد واحدة لسيف فرديناند أو ذهبه . وتجلت عند ذلك للزغل الحقيقة المحزنة : وهي أن حكم المسلمين بالأندلس قضى عليه بالزوال . فألقى القيادة على كره منه لفرديناند . وسلم إليه المرية ، فأقطعه الملك قطعة من الأرض في البشرات . ومنحه لقب « أمير أندرش » ولكنه لم يقيم طويلاً بهذه البلاد التي ذهب فيها مجده وتولى سلطانه ، فباع أرضه ، واجتاز البحر إلى إفريقية . وهناك قبض عليه سلطان فاس فعذبه أشد عذاب وسمل عينيه ، فقضى بقية أيامه هائماً في الأرض بائساً طريداً . وما كان أشد حزن الناس على هذا البطل المغوار وهو في أسفاله البالية ، وقد قرءوا على رق غزال خيط بردائه « هذا سلطان الأندلس العاثر الجحد » .

لم يبق للمسلمين غير غرناطة التي اغتبط أميرها أبو عبدالله أعظم اغتباط . وتشفى في عدوه القديم عمه أبي عبدالله الزغل . حينما سلبه ملوك الكتلكة ملكه ، وصاح من الفرح حينما بلغه الرسول الخبر : لن أقبل من الآن أن يلقبني أحد بالزغبى ، لأن الحظ أقبل على بوجهه . ولكن الرسول أجابه في تودة : إن الريح التي تهب من أفق قد تهب من آخر ، وإنه يحذر بالسلطان أن يكبح من فرحه وسروره حتى يستقر الجحش . وكان أبو عبدالله كثيراً ما يسمع سبه ولعنه بأذنه في جميع شوارع غرناطة ، وكثيراً ما يصل إليه ما يرميه الناس به من خيانة قومه ومخالفة أعدائه . ومع كل هذا كان يعيش مطمئناً هادئ البال ، تام الثقة

بمخلفائه . سعيداً بزوال ملك عمه . وفي أثناء ما كان يحرض الملكين عليه ، عاهدتهما على أنهما إن أفلحا في الاستيلاء على ملك الزغل ، وأخذوا وادي آش والمرية . سلم إليهما غرناطة راضياً . ولكنه لم يلبث طويلاً حتى أفاق من غفوته ، فإن فرديناند كتب إليه يبعثه بأن الشروط التي دونت لتسليم غرناطة قد تمت من ناحيته ، وأنه يحتم تسليمها على حسب نصوص المعاهدة التي دونت بينهما . وألح أبو عبدالله عبثاً أن يرجى فرديناند هذا الأمر قليلاً ، ولكن الملك لم يتحول عما طلب ، وأنذر بأنه إذا لم تسلم إليه المدينة أعاد نكبة مالقة . فارتبك أبو عبدالله ولم يدر ماذا يفعل . غير أن أهل غرناطة بزعامة موسى بن أبي الغسان الفارس الشجاع . أخذوا الأمر في أيديهم ، وبعثوا إلى فرديناند : بأنه إن أراد أسلحتهم فليأت لأخذها بنفسه .

وحينما وصلت هذه العبارة الجريئة إلى أذن فرديناند ، كان مرج غرناطة يزخر بالحب والفاكهة ، وقد عاد إليه الخصب والنماء بعد أن عاثت فيه الحروب بين الزغل وأبي عبدالله . وبلغ الزرع أشده ، وآن حصاده ، وتطلب المناجل ، فاقتنص فرديناند هذه السانحة ولبأ إلى طريقته المعتادة فرمى المرج بخمسة وعشرين ألفاً من جنوده ، غادروه بعد ثلاثين يوماً وهو أقفر من كف اللثيم . واقتنع فرديناند بهذا القدر في هذا العام . ثم أرسل على المرج في سنة ١٤٩٠ م (٨٩٥ هـ) غارة مدمرة أخرى . ودفع أبا عبدالله إلى شجاعة يائسة ، فلبس لأمة الحرب وهجم على أعدائه مستعيناً برأى موسى الذي كان نادرة في الرجال . وحينما رأى العرب الذين

كانوا عاهدوا فرديناند من قبل على الطاعة سلطان غرناطة وهو يقود جيوشه للجهاد ، وثبت عزائمهم من جديد . وألقوا بعهودهم في الهواء وانضموا إلى إخوانهم المحاربين . وكان ينحيل إلى المرء أن أيام العز الماضية قد عادت إلى غرناطة ، فإن المسلمين استردوا من النصارى بعض الحصون وعاثوا في تخوم بلادهم ، ولكن كل ذلك كان آخر شعاعة للشمس عند المغيب : فإن فرديناند وإيزابلا خرجا في إبريل سنة ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) للحرب الصليبية التي اعتاداها كل عام ، وعزما ألا يعودا إلا وغرناطة في قبضتهما . فقاد الملك جيشاً عدته أربعون ألفاً من المشاة . وعشرة آلاف من الفرسان . وعقد أبو عبدالله مجلس الحرب بالحمراء بينما كانت سحب غبار الجيش الأسباني ترى من نوافذها . فرأى بعض رجال المجلس أن لا فائدة من المقاومة وأن الخير في التسليم . ولكن موسى قام واستحثهم أن يكونوا أبناء برة لآبائهم . وأن يطردوا عنهم اليأس ما دامت فيهم قوة على القتال . وما بقيت لهم جياذ سريعة الوثبات . فانتقلت حماسه إلى الناس ، وصمموا على الموت . ولم يكن يسمع بغرناطة إلا صليل السلاح وأبواق الجنود .

وكان موسى قائد الدفاع وحارس أبواب المدينة . وكان أهل غرناطة قد أحكموا إيصادها عند ما ظهر جيش النصارى فأمر بفتحها وقال : سنبد الأبواب بأجسامنا . فاثارت هذه الكلمات وأمثالها عزائم الشباب . وحين قال مرة لجنوده : إننا لا نحارب لشيء إلا لصيانة الأرض التي تحت أقدامنا ، فإننا إن فقدناها فقدنا بيوتنا ومملكتنا — قذفوا بأنفسهم للموت

معه . ومن الحق أن ندون هنا أن فرسان العرب تحت لواء هذا القائد الجريء ، قاموا بأروع ضروب الشجاعة والإقدام .

وعول فرديناند في النهاية على اتباع أساليبه المعتادة في قهر المدن . فخرج من معسكره الذي اتفق أن التهمته النيران ، وشرع في إفساد ما بقي في المرج من نبات وثمار . وبذل العرب آخر ما في قلوبهم من شجاعة لحماية المزارع والبساتين . وحارب موسى وأبو عبدالله أمام فرسانهما كما يحارب الأبطال البسلاء . ولكن المشاة وقد كانوا ضعاف القلوب هزموا وتقهقروا إلى أبواب المدينة . فتبعهم موسى حزينا وقد عزم ألا يقذف بنفسه في موقعة حامية . وإلى ظهره أمثال هؤلاء الجبناء . وكانت هذه آخر حروب الغرناطين . فقد لبثوا عشر سنين يناضلون أعداءهم على كل شبر من الأرض . وكلما وجدت أقدامهم مكانا تقف عليه حاربوا الأسباب دونه : ثابتين غير مزعزعين . غير أنهم الآن لم يبق لهم غير المدينة ، فحبسوا أنفسهم بين أسوارها يائسين جازعين . وعزم فرديناند أن يسلم المدينة إلى الجوع والسغب ، فاتبع بطريقة عبد الرحمن الناصر في حصار طليطلة وبنى في ثمانين يوماً مدينة أمام غرناطة سماها : شنتي^(١) « الإيمان المقدس » ويقوم إلى اليوم بهذه المدينة تذكراً أثرى لهذا الحصار . وعمل الجوع بأهل المدينة ما تعجز عن مقاومته الشجاعة . فتوسل أهل غرناطة إلى أبي عبدالله أن ينقذهم من هذا العذاب : وأن يعقد شروطاً للتسليم مع الفاتحين . فخضع لهم السلطان الشقي الطالع في النهاية .

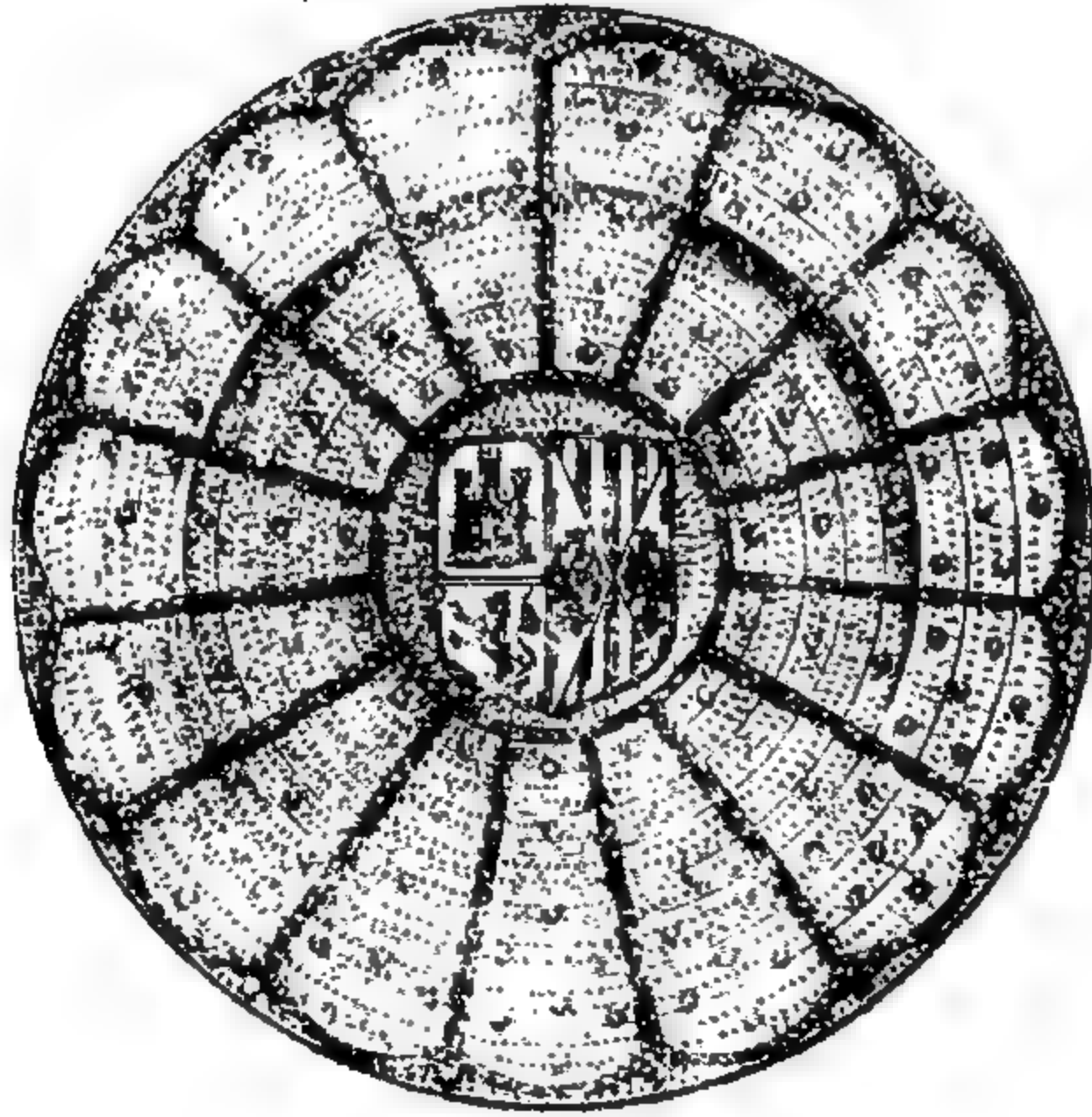
(١) هكذا سماها صاحب أخبار العصر .

أما موسى لم يرض بالتسليم ، ولبس شكته ؛ وامتنطى جواده ،
وخرج من المدينة إلى غير عودة .

وفي الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٨٩٧ هـ) أمضيت
شروط التسليم . وكان منها شرط يحدد زمناً للهدنة ، لا يجوز بعد انقضائه
أن تصل إلى المدينة أية نجدة . وأن تسلم عند ذلك للملكين . وترقب
العرب عبثاً وصول ما كانوا يؤملون من النجيدات من مصر أو من سلاطين
تركيا فلم تأت . وأرسل أبو عبدالله في آخر ديسمبر إلى فرديناند يطلب
إليه أن يدخل المدينة ويستولى عليها . فتقدم جيش النصارى من مدينة
شتتني صفوفاً . واخترق المرج . وعيون العرب الباكية تنظر إليه في جزع
وحسرة . ودخلت مقدمته الحمراء . ونصبت الصليب الفضي الأكبر فوق
قمة برج المدينة إلى جانب بريق الحوارى يعقوب . بين أصوات كانت
تملأ الأفق صائحة : ستياغو ! ثم نصب حوذاً علماً قشتالة وأراغون .
وحثا فرديناند وإيزابلا على ركبتهما يحمدان الله على هذا الفتح المبين .
وسجد خلفهما الجيش كله . ورتلت فرقة المرتلين الخاصة صلاة الشكر
في تبطل وخشوع .

ووقف أبو عبدالله في ثلة من فرسانه بسفح جبل الريحان . عند مرور
هذا الموكب . فتقدم إلى فرديناند وسلم إليه مفاتيح المدينة . ثم ولى
مدينته المحبوبة ظهره منطلقاً إلى الجبال . حتى إذا وصل إلى قرية
البنول وهي على مسافة مرحلتين من المدينة فوق مرقب عال من البشرات
— وقف يودع المملكة التي نزع منها كما تنزع السن القاذجة ، فرأى

المرج النضير وأبراج الحمراء ، ومناثرها الضاربة في السماء ، وبساتين
 جنة العريف . وكل ما بغرناطة من جمال وعظمة . فأجهش بالبكاء
 وصاح : الله أكبر . . ووقفت أمه عائشة إلى جانبه وهي تقول : حق
 لك يا بني أن تبكى كما تبكى النساء . لفقد مدينة لم تستطع أن تدافع عنها
 دفاع الرجال . ولا تزال البقعة التي ودع فيها أبو عبدالله مدينته بدموعه
 وزفراته تسمى إلى الآن : آخر حسرات العربي . ثم اجتاز أبو عبدالله إلى بر
 العدو بإفريقية . حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه بالاستجداء وسؤال
 المحسنين .



ظهور الصليب

لم تكن آخر حشرات أبي عبد الله إلا بداية عصر كله حزن وابتلاء وآلام ونكبات . تتوالى على رءوس العرب المساكين . وقد لمع في أول الأمر بصيص أمل بأن الأسبان سينفذون ما عاهدوا المسلمين عليه عند تسليم غرناطة . وأن العرب ستكون لهم حرية العبادة . وإقامة أحكام الإسلام . وكان هرناندو تالافيرا — أول أسقف بغرناطة بعد نكبتها — رجلاً خيراً واسع أفق التفكير . يحافظ على حقوق العرب . ويحاول أن يكتسب مودتهم بالقدوة الصالحة والرفق والعدل . ثم بمشاكلتهم في عاداتهم وأحوالهم بقدر ما يستطيع . فأمر قساوسته أن يتعلموا العربية . وأدى صلاته باللسان العربي المبين . وكان لهذا التسامح أثره في عقول العرب . حتى إنه في سنة ١٤٩٩ م (٩٠٥ هـ) حينما قدم الكردينال شيمينيس مرسلًا من قبل الملكة لمعاونة تالافيرا كان يخيل إلى الناس أن مظاهر النصرانية — وهي في أول نشأتها بأورشليم — تجددت ثانية بغرناطة . فقد تنصر في يوم واحد ما يبلغ ثلاثة آلاف من العرب ، عمدهم المطارنة ونضحوم بأغصان الثغام المقدسة . ولم يرض شيمينيس عن سياسة اللين التي كان يصطنعها الأسقف ، لأنه كان من دعاة الكنيسة الحربية الذين يظهرون نشاطهم عقب كل انتصار . ولأنه كان يريد فيما يزعم أن ينقذ

أرواح هؤلاء الملحددين رضوا أم غضبوا . فأدخل في عقل إيزابلا - وما كان أسرع تأثيرها بكل ما له صلة بالدين - رأيا شديدا للخطر . ووسوس إليها أن في حفظ عهد المسلمين خيانة لعهد الله . فأنفذت أمرها في الحال باضطهاد العرب .

ونجابت أول محاولة لإجبار الغرناطين على التنصر . وأظهر المتشددون من المسلمين ازدراءهم للمرتدين . فأخذوا وحبسوا . وبينما كانت امرأة تساق إلى السجن هذه الجريمة . أخذت تصيح وتستثير عزائم أهل البيازين . فوثبوا إلى أسلحتهم وأنقلبوها . واشتعلت الفتنة بغرناطة وتحفز أهلها للقتال . وكانت حامية غرناطة قليلة العدد لا تستطيع دفع الثائرين . فاشتد غضب شيمينيس وحنقه . ولكن الأسقف خرج عادئا لا يتبعه من رجاله إلا حملة الصليب . ودخل غير خائف ولا وجل ربض البيازين . حيث أحاط به الناس يقبلون طرف عباة . ويبتشون إليه شكواهم . ويدتغون إليه الرفق وحسن الوساطة . فأزال تلافيرا أسباب الثورة واضطر الكردينال إلى مغادرة المدينة .

ولم يكن شيمينيس بالرجل الذي يسهل صرفه عن أغراضه ومآربه . فأغرى الملكة أن تصدر مرسوماً تخير فيه العرب بين التنصر ومغادرة البلاد . وجاء في هذا المرسوم : أن أسلافهم كانوا مسيحيين . وأن الكنيسة تعدهم وهم من سلالتهم مسيحيين منذ الولادة . فيجب عليهم أن يظهر دينهم الموروث . وبعد هذا المرسوم أغلق الكردينال الحائق المساجد . وأحرق المخطوطات والكتب النفيسة التي هي عصارة الفكر

نعرى في عدة قرون . وأنذر المسلمين وعذبوا أشد العذاب ليدخلوا في دين الرفق والرحمة . على الأسلوب الذى ارتضاه الملكان الكاثوليكيان لقسر اليهود على التنصر . وبهذه الوسائل خضعت جمهرة من العرب ، لأنهم آثروا أن يتركوا دينهم على الشرود في بقاع الأرض بلا أهل ولا مأوى ، ولكن جذوة من الروح العربية القديمة بقيت متأججة بين سكان جبال البشريات . الذين لبثوا حيناً من الدهر تائرين ممتنعين على أعدائهم في معاقلتهم الثلجية . وحاول المسيحيون أول الأمر القضاء على هذه الثورة فأبوا بالخيبة والاندحار .

وهذا الفوز انقلب لم يعمل إلا أن أثار غضب المسيحيين . وحفزهم على أخذ الثأر . فهجم صاحب تنديلة على قوجار . وهدم صاحب سيرين مسجداً على جماعة من النساء والأطفال كانوا التجئوا إليه من ويلات الحرب وكوارثها . وأخذ الملك فرديناند الطرق على العرب بامتلاك قلعة لانجارون . ففر من أبطت عليه السيوف إلى مراكش ومصر وتركيا ، وعاشوا في هذه البلاد صناعاً ماهرين . وهكذا انتهت الثورة الأولى بالبشريات .

وتلا ذلك نصف قرن والمسلمون في غيظ مكتوم . فقد أدوا مكرهين مرأين أقل ما يستطيعون أدائه من أمور الدين الذى فرض عليهم ، ولكنهم كانوا إذا خلوا إلى أنفسهم . جهلوا في غسل الماء المقدس الذى عمد به أطفالهم في الكنيسة . وإذا زوجهم قسيس أسرعوا إلى منازلهم فأعادوا عقد الزواج على سنن شريعة الإسلام . ثم إنهم أعانوا لصوص

البحر الذين كانوا يتزلون بثغور الأندلس على اختطاف أطفال المسيحيين .
وقد كان في استطاعة حكومة الأندلس أن تتقي هذه الأخطار وتلك الأحقاد
الدفينة لو أنها كانت حكومة حازمة أمينة ، ترعى عهودها التي واثقت
المسلمين عليها عند تسليم غرناطة . ولكن حكام أسبانيا لم يكونوا حازمين .
ولم يكونوا أمناء في معاملة العرب . فقد أكرهوهم على أن يخلعوا أزياءهم
الوطنية الحميلة ليستبدلوا بها قبعات النصارى وسراويلهم ، وعلى أن
يهجروا سنة الغسل والاستحمام . اقتداء بغالبيهم في الصبر على تراكم
الأقذار . ثم على أن يلبسوا لغتهم وعاداتهم وأسماءهم . وأن يتكلموا
بالأسبانية . ويعملوا كما يعمل الأسبان . ويغيروا أسماءهم بأسماء أسبانية .
وكان تجريد العرب من قوميتهم ودينهم دفعة واحدة فوق احتمال أى
شعب وقبيل . بله سلائل عبد الرحمن والمنصور وبنى سراج . وحدث يوماً
شغب من جراء بعض جباة الضرائب الظلمة . فاشتعلت نار الفتنة الحامدة
التي كانت تتحرق إلى الاشتعال . وقتل بعض الزراع جنود الأسبان
الذين كانوا يحتلون دورهم . وثار صباغ بغرناطة اسمه فرج بن فرج
ينتمى إلى بنى سراج ، وجمع حوله جماعة من الساخطين ذوى الحمية .
وفر بهم إلى الجبال قبل أن تدركهم الحامية . ونادت هذه الجماعة
بهرناندو آل فالور ملكا على الأندلس وسموه محمد بن أمية ، وهو رجل
من نسل خلفاء قرطبة ومن أعيان غرناطة يزن بإسرافه في الشهوات . وبعد
أسبوع عمت الثورة وحمل رجال البشرات كلهم السلاح . وكان هذا بدء
الثورة الثانية سنة ١٥٦٨ م (٩٧٦ هـ) . وكانت منطقة البشرات من

أحسن المناطق لنمو الثورات . فإن الأرض المرتفعة بين جبال نيفادا والبحر . وطولها نحو تسعة عشر ميلا . وعرضها نحو أحد عشر ميلا ، ليست إلا وعراً تتقاسمه التلال الصلدة . والأخاديد العميقة ، حتى يصعب أن يجد فيه المرء قطعة مطمئنة إلا في وادي أندرش الصغير ، وإلا في نطاق ضيق يتوسط بين البحر والجبال .

واستمرت الثورة مشتعلة بالبشرات ستين . ولم يطفئها الأسبان إلا بعد جهد عنيف . وتاريخ هذه الثورة ممتلئ بأعمال الجرأة والتعذيب ، والقتل والخيانة . والقسوة الوحشية من كلا الفريقين . غير أن هذه الأعمال البشعة كان يتخللها كثير من أعمال البطولة والجلد الجديرة بأن تشرف أى عصر وأى قبيل . وكان صراع العرب شديداً يائساً . لأن المعركة كانت آخر معركة لهم في آخر مكان يستطيعون الوقوف فيه . فقد أحسوا أنهم يطاردون . فأخذوا في هجماتهم الأولى . والغضب ملء خياشيمهم . ينتقمون لما نالهم من ضروب الإهانة والاضطهاد في مدى مائة عام . فثارت قرية بعد قرية في وجوه الأسبان . ولطخت الكنائس بالأقنار ، وجعلت صورة العذراء غرضاً للرماة ، وذبح العرب القساوسة ، وكثيراً ما نكلوا بالمسيحيين الذين التجثوا إلى الأبراج والحصون .

وقل قائد غرناطة مركز منديجار من غرب هذا العصيان قليلاً بهجمة عنيفة على الجبال ، كان فيها على رأس أربعة آلاف من الجنود الأشداء . ثم حاول أن يأخذ الثوار باللين والمسالة والصفح ، وكاد يفلح لولا أن حدثت مذبحة للعرب بجوييليس ، ولولا أن غدر الأسبان بالعرب ونكثوا

بعهودهم في لارول . فأثار ذلك غضب المسلمين . وأعاد نيران الثورة إلى تأججها بعد أن كادت تبوخ . ثم تلا ذلك أن ذبح طائفة من المسجونين الأسبان بسجن البيازين مائة وعشرة من العرب ، فجاء ذلك ضغثاً على إباله . وزاد في حق العرب المضطهدين . وكان منديجار بريثاً من تلويث يده بهذه الأعمال الدموية . راغباً في مسالة العرب . وقد سار بحرسه إلى السجن ليهدئ ما به من ثورة واضطراب . ولكن رئيس شرطة المدينة أخبره في الطريق أن لا داعي لذهابه . لأن جميع من بالسجن من العرب قد ماتوا . وبعد هذه الحوادث كان العرب يفوزون كل يوم بانتصار جديد . وأصبح ابن أمية أميراً بالفعل على جميع ولاية البشرات . ولكن هذا الأمير الضعيف المستهتر . لم ينعم بالحكم فترة قصيرة ، حتى ذبحه في سريره بعض أتباعه سنة ١٥٦٩ م (٩٧٧ هـ) لبغضهم إياه ، ولما حام حوله من الشبهات . وخلفه في الملك والزعامة مولاى عبدالله ابن أية . وكان صنديداً مخلصاً . وقائداً صادق العزم . يقذف بنفسه بين مخالف الموت فداء لأتباعه وأنصاره . غير أن القدر كتب على ابن أية هذا أن يحارب عدواً من صنف جديد ، ذلك أن أخا الملك وهو اللون جون الأوسرى ، وهو شاب في الثانية والعشرين ، ملأته الآمال ، وتكهنت بعظمته المخايل — خلف منديجار على قيادة الجيوش ، فأقنع فيليب بعد أن تبادل كثيراً من الرسائل بخطورة الموقف وتفاقم الخطب ، وضرورة اتخاذ وسائل عنيفة لحسمه ، فوصل إليه في النهاية أمر من الملك بالهجوم ، ولم يتوقع العرب من الأسبان بعد صدور هذا الأمر الخطير إلا أن يمنحهم

وقتاً قصيراً للتوبة والإنابة . ففي غضون الشتاء سنة ١٥٦٩ - سنة ١٥٧٠ (٩٨٧ - ٩٧٨ هـ) زحف الدون جون على العرب . ولم ينجى مايو إلا وقد كانت شروط التسليم قد أعدت . أما الأشهر التي مرت بين بدء هذه الحرب ونهايتها . فقد لطخت بأنهار من الدماء . لأن شعار الدون جون كان « لا إبقاء ولا هوادة » فذبحت النساء والأطفال بأمره . وتحت سمعه وبصره . وأصبحت قرى البشرات مجازر بشرية .

وبعد أن ظهر للعيان أن العصيان قد أخذ وبردت جذوته . انطلقت من بين الرماد آخر شرارة للثورة . ذلك أن ابن أبيه بقى مجالداً فلم يخضع للأسبان . ولكن القتل أخضعه في النهاية . فحز رأسه وعلق على باب المذبح بغرناطة . وبقى معلقاً ثلاثين عاماً .

وجاء بعد الدون جون القائد الأعظم ريكيسنس . ف قضى على هذه الشرارة الأخيرة للثورة في الخامس من نوفمبر سنة ١٥٧٠ م (٩٧٨ هـ) بطرق منظمة : فكان يحرق القرى بمن فيها . وكان يرسل الدخان على الملتجئين إلى الكهوف والأغوار حتى يموتوا أو يخرجوا فيموتوا ، وانتظر النفي والرق كل من نجا من هذه الثورة - وكانوا قليلي العدد - فقد قتل في الثورة كما قيل أكثر من عشرين ألف عربي . وبقى منهم نحو خمسين ألفاً . فلما جاء عيد جميع القديسين في سنة ١٥٧٠ م (٩٧٨ هـ) مجد الأسبان ذكرى الحوارين والشهداء ، واحتفلوا فيه بالقضاء على من عثروا عليه من العرب . وحكم الأسبان على من أسروا في الثورة بالعبودية ، ونفوا الباقين تحت حراسة الجنود . بعد أن راقبوا شباب الجبال حتى

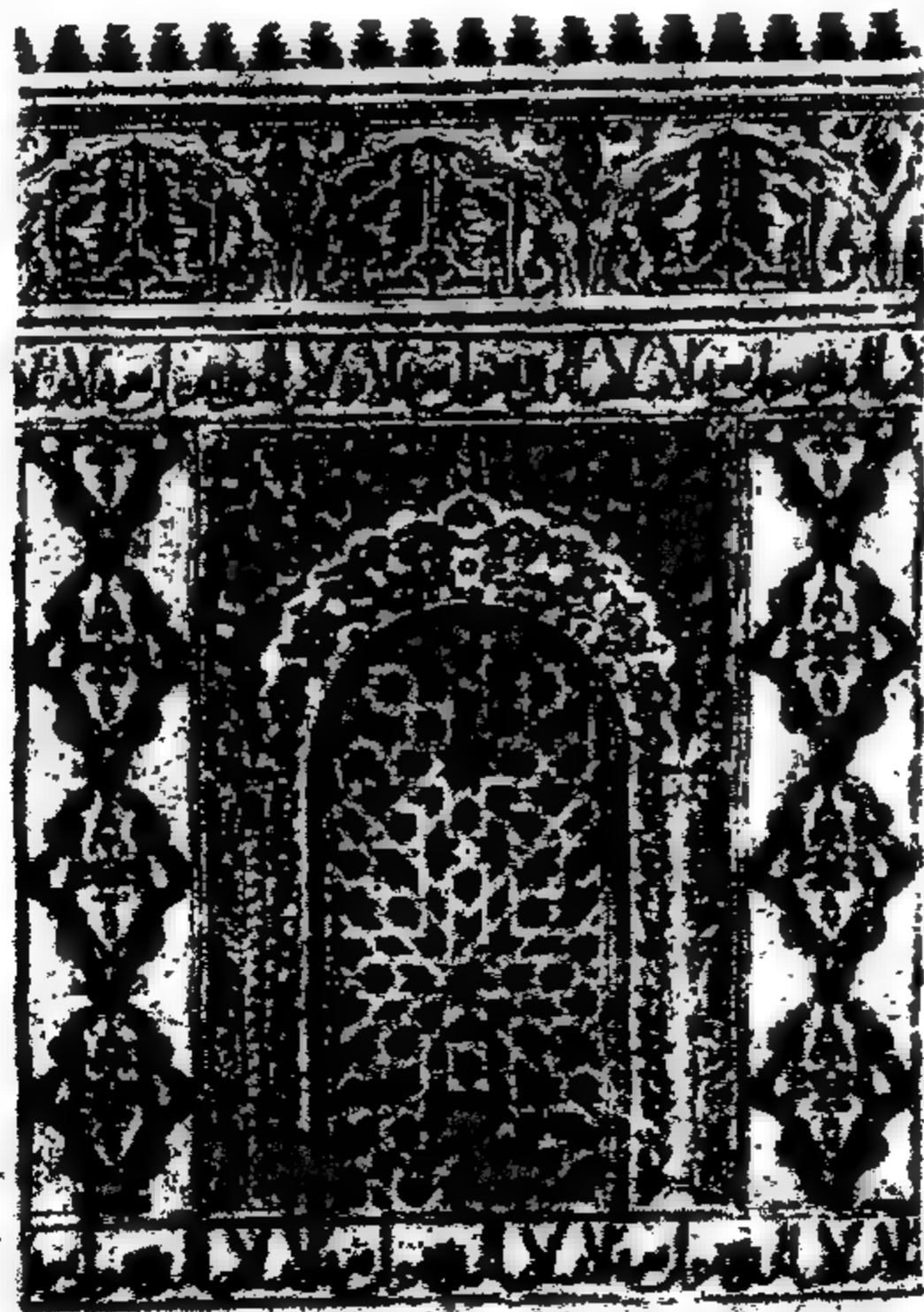
لا يفروا . ومات كثير من هؤلاء في الطريق من الجوع والنصب والعري ،
 وذهب بعضهم إلى إفريقية فعاشوا بها يستجدون الناس . لأنهم لم يجدوا
 بها أرضاً تصلح للحرث . وسار بعضهم إلى فرنسا فلم يلاقوا ترحيباً من
 هنري الرابع . وإن وجد فيهم أداة صالحة للكيد لأسبانيا . ولم ينته استمرار
 نفي العرب إلا في سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) حين حكم في هذا العام
 على نحو نصف مليون منهم بالنفي . وقد ثبت أن من نشأ من العرب
 في المدة بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر يبلغون
 ثلاثة ملايين .

والمؤرخ العربي يذكر هذه النكبة حزيناً . ويعدها ضربة من ضربات
 القدر ويقول : « إن الله لم يشأ أن يهب نصره للأندلسيين . فأخذوا
 وذبحوا في كل مكان . ثم أخرجوا من ديارهم . وقد وقعت هذه النائرة في
 أيامنا سنة ١٠١٧ للهجرة (سنة ١٦٠٨ م) والله جل شأنه وعظم سلطانه
 يقول : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . ولم
 يعرف الأسبان عند ما نفوا العرب ماذا كانوا يفعلون . . . حقا لقد خربوا
 بيوتهم بأيديهم . فإنهم ابتهجوا أول الأمر بنفيهم . وشتموا فيهم . وشفت
 غليلهم المناظر المؤثرة لهؤلاء العرب . وهم يطردون من فردوسهم .

ولكن الأسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الإوزة التي تبيض بيضة
 من ذهب كل يوم . فقد بقيت أسبانيا قرونا في حكم العرب وهي مركز
 المدنية . ومنبع الفنون والعلوم ، ومثابة العلماء والطلاب ، ومصباح الهداية
 والنور . ولم تصل أية مملكة في أوروبا إلى ما يقرب منها في ثقافتها وحضارتها

ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابلا القصير المتألى ، ولا إمبراطورية شارل الخامس . الأوج الذى بلغه المسلمون فى الأندلس . وقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من أسبانيا وضاعة لامة . ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر الذى يستعير نوره من الشمس . ثم عقب ذلك كسوف بقيت بعده أسبانيا تتعثر فى الظلام .

وإنا لنحس فضل العرب وعظم آثار مجدهم . حينما نرى بأسبانيا الأراضى المهجورة القاحلة . التى كانت فى أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار . تزدهر بما فيها من الكروم . والزيتون . وسنابل القمح الذهبية . وحينما نذكر تلك البلاد التى كانت فى عصور العرب تموج بالعلم والعلماء . وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار .



أمامك قصة عن مجده قوم
مناصلُ إن دعوا للحرب لبوا
نجوم ما بدت إلا لتخفى
سلوا التاريخ عنها إن أردتم

تقشع عن سمائمُ السحاب
وإن نودوا لمكرمة أجابوا
كما يعلو على الماء الحباب
ففي صفحاته خُط الجواب

بدر الدين الجارم

رقم الإيداع ٩٨/٥٤٩٢

شركة الأمك للطباعة والنشر

٢٩٠٤٠٩٦: ٥

Bibliotheca Alexandrina



0444045

التمن : جتيه واحد

شركة الأمل للخدمات